عَوْدَة توماس إكويناس

مناطق النزاع الجديدة بين اللاهوت والعلم

على خطى برتراند راسل

The Returne Of Thomas Ekwinas

The new conflict between theology and science

In line with P.Rasel's perspective

د . إبراهيم حسين خليل

دار كنوز المعرفة
الطبعة الأولى ٢٠١٠

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
مرجعيات رمزية	٧
مقدمة	١٧
الفصل الأول	١٩
مدخل لغوي/فكري	٢١
فكر توماس إكويناس وفكرنا اللاهوتي	٣٧
الفصل الثاني	
تقنيات سيميائية وأسلوبية الفكر في النزاع.	٤٩
الصورة – الهندسة الإلهية	٥٨
الساعة	٨٠
الاصطلاح العلمي والسيرورة الرمزية للعلامة اللغوية	٩٣
بعض المغالطات المنطقية وتطبيقاتها في اللاهوت	١٠٧
الفصل الثالث	
نتائج العلوم الحديثة والفكر اللاهوتي: البيولوجيا والفيزياء	١٣٨
أولا: البيولوجيا	١٤٠
الطبيعة : بين التنظيم الإلهي الحكيم وبين العشوائية واللاأخلاقية	١٤٣
الهيكل العظمي (RD) بين البيولوجيا والفكر اللاهوتي	١٦٠

الموضوع	رقم الصفحة
الانتخاب الطبيعي. آلية تطور أم خديعة علمية؟	١٦٩
ثانيا : الفيزياء الحديثة	١٩١
حلم آينشتاين ونظرية الأوتار الفائقة. Super-String Theory	١٩٣
الثيرموديناميكا : القانون الأول ، والقانون الثاني.	٢٠٦
أخطاء علمية في التصورات اللاهوتية للكون	٢١٩
الفصل الرابع **علم اللغة الحديث ولغة القرآن**	**٢٣٥**
إعجاز القرآن في التراث	٢٣٧
الإعجاز العلمي في القرآن الكريم	٢٥٢
المصادر والمراجع	٢٦٩

مَرْجِعِيّات رَمْزِيّة

"WILD..WILD WATER"

Sail across the universe
All the magic here on Earth
Slipping and sliding
Rolling and riding to you, my love
Summer breeze reminded me - love was wild and love was free
Love is wide and love is free
Memories will hiding
Baby, come riding to me

Wild, wild water
Brings me back to you, over and over
Wild, wild water
Babe, still missing you, over and over
Wild, wild water
Freez the wind in summer sky
Wild, wild water
Expects love that just wouldn't die…

BY: Modern Talking: great music band, germany.1980's-1990'S

❋ ❋ ❋

"الحيـاةُ كلُّهــا احتــراق."

شبلي الشميل

***

"إن جسَدَ الأميرِ لا يساوي أكثرَ من جَسَد العَبْد"

.... بوذا

***

إن حـرّيتي تـبرزُ وتُمـارس بـين عـددٍ لا يُحصـى مـن التَّبِعـات، فأنـا محـدودٌ منـذُ البدايـة، كمـا تُحَـدِّدُ القاعـدةُ الهَـرمَ، باسـتطاعة الهـرم أنْ يرتفـعَ ارتفاعـاً أعلـى، أو باستقامةٍ أشد، لكنّه لا يستطيع أبداً أنْ يتخطى المربعَ الذي برزَ منه.

لويس إيفيلي

***

"لقـد أدخلـت مجموعـةُ فلاسـفة الإغريـق الثلاثـة (سـقراط، أفلاطـون، أرسـطو) العالمَ في صندوقٍ لم نستطع الخروجَ منه حتى اليوم."

إدوارد دي بونو

***

من أعمال سلفادور دالي

لوحة تمثّل التمازج بين الفنّ والعلم، وتعلنُ عن غياب ملامح "الزمن"، واتحادِه بالموت واليَباب، في المفهوم الفيزيائي بعدَ آينشتاين.....تأمّلْ!

من أعمال فلاديمير كوش

الطبيعة تعزف أنغاما....

"... واقتناعاً من جانب محاكم التفتيش بأنّها أدّت خدمةً جليلةً للحفاظ على الدين والأخلاق بإرغام أعظم رجلٍ في عصره على النطق بشهادةِ زُور، سمحت له هذه المحاكمُ بقضاء بقيّة حياته في عُزلةٍ وسُكوت، ورغم أنّها لم تُلقِ به في غياهب السجن فإنها راقبت كلَّ تحركاته، ومنعته من زيارة أهله وأصدقائه. وفي عام ١٦٣٧ أُصيب بالعمى، ومات عام ١٦٤٢ ، **وهو نفس العام الذي وُلد فيه نيوتن**."

بيرتراند راسل في جاليليو

***

"وقد مضت عليَّ سنون وأنا غارقٌ في (قضية الشعر الجاهلي) أطلب نَفَساً أو نَفَسَيْن حتى لا أهلك، فما نجوت من الهلاك حتى فَصلتُ فصلاً حاسماً بين هذين اللفظين (المترادفين) (المعجزة- الآية)، فتنفّستُ أنفاساً ردّت عليَّ حياتي بحمد الله وحدَه، فهو الذي أغاثني حيثُ لا مُغيثَ مِن خلقه. **وهذا شيءٌ قد كان مضت عليه أربعون سنةً على الأقل**، كنت قبلَها لا أَتبيّنُ أيّاً من أيّ، إنّما هو القلقُ والحَيرة والتردّد في الظلُمات لا غَير"...

محمود محمد شاكر

***

There is no enough math to describe more physics, he said this when he was talking about quantum gravitation, sepcially on the foam theory since there is no athematics describing the foam theory and as you know physics is the practical meaning of mathematical solutions of differential equations.

It is said it was because Einstine, Dirrak physics moved faster than what math can provide.

Khalil.K …about: Steven Hawking problem

***

"إنّ السعي - عن رضا- لفهم الكون هو مِنَ الأشياء النادرة التي تسمو بالإنسان، وتنتشله مِنَ الترّهات وصَغارة الحياة اليومية، وتُنعِم عليه بشيءٍ مِنْ شرف المشاركة في هذه المسرحية التراجيدية.

ولكن، هذا السعي ليس مِنَ الأمور التي في متناول كلِّ إنسان لاعتباراتٍ عديدة، مِنْ أهمّها أنّ عقول البشر مثقلةٌ ومقيّدة بأفكارٍ مسْبقة، وبأجوبة أيديولوجيةٍ جاهزة، فلا ترى في الكون وأحداثِه وظواهره، إلا تعبيراً عن حكمة فلسفية!"

ستيفن واين بيرغ

Steven weinbierg

***

لماذا هنالك شيءٌ بَدَلاً مِن لا شيء؟!

سدني كولمان

Seddny kholman

* * *

...هناك بعض الناس من أهل عصرنا متفقون على أنّ الله موجود بشرط ألا يظهر نفسه كما قال أندريه فروسّار.

الأب جيوفاني مارتينتي

Jiovani Martinity

* * *

I am stranded in the middle of nowhere…

I am stranded in astruggle of my dreams … it seems...

Modern Talking

مقدمة

بسم الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد؛

فإنني أحاول في هذا العمل أن أضيف إضافة يسيرة إلى المؤلفات السابقة، وبالتحديد من حيث انتهى راسل سنة ١٩٥٣ ، لأن مناطق جديدة للنزاع قد ظهرت، لم تكن محلا للنزاع في أيامه، وسبب آخر دفعني إلى ذلك، هو أن راسل لم يتوقف بما يكفي عند موضوعين لم يكونا محل اهتمامه لانتمائه لأوروبا، وهما علاقة هذه العلوم ونزاعها مع المفاهيم الثابتة في الفكر اللاهوتي في الشرق بشكل خاص، ثم عدم بسط راسل الكلام المثير في العلم التجريبي بشكل كاف كـ"نظرية الكم" أو "الكوانتية"، والثيرموديناميكا، وعلاقة نتائجهما بالفكر اللاهوتي، وظهور تلك المناطق الجديدة التي أشرت إليها قبل ثلاثة سطور.

أما "مناطق النزاع" فهو عنوان يمكن شطره إلى نصفين متباينين دلالياً، ويأخذ معنىً اصطلاحياً إلى حدٍّ ما هنا ، لأن الجزء الأول: "مناطق" ليست مناطق جغرافية، ولكن "النزاع" هو النزاع الذي تعرفه ، ولا أشك في أنك مارسته يوماً ما. أما عن الفكر اللاهوتي كاصطلاح فأعني به ذلك الفكر المبني على فهم خاص بالنصوص المقدسة، بحيث تُفهم الآيات الكريمة في القرآن، أو الإنجيل والتوراة بفهم يقرره أشخاص مخصوصون وضعوا أنفسهم أوصياء على شرح وتفسير كلمات الله تعالى، وعلى صعيد تفسير القرآن الكريم فنحن نعلم أن القول في القرآن بالرأي منهي عنه، والفكر اللاهوتي الذي أضعه هنا في مناطق النزاع مع العلم إنما هو هذا الفكر الذي يقدمه هؤلاء الأشخاص بقولهم في آيات الله بآرائهم الخاصة. لقد كتب تحت هذا العنوان ثلاثة فلاسفة على ما أعلم ، هذا غير المقالات الكثيرة، كان أولهم جون دريبر، الذي وضع كتاباً عنوانه :" تاريخ الصراع بين العلم والدين"، وأصدره سنة ١٨٥٧ م ، ثم تلاه أندرو وايت في كتابه: "تاريخ المعركة بين اللاهوت والعلم في المسيحية"، وأصدره سنة ١٨٩٥م ، وآخرهم بيرتراند راسل الذي وضع كتابه بعنوان " مناطق النزاع بين الدين والعلم"، ونشره سنة ١٩٥٣. ويسمى هذا الكتاب أحياناً "العلم والدين"، دون ذكر "مناطق النزاع".

أما عن المقالات والمحاضرات والندوات في ذلك فحدث دونما حرج أو شك.

الفصل الأول

I. مدخل لغوي – فكري .

II. فكر توماس إكويناس وفكرنا اللاهوتي.

مدخل لغوي - فكري :

كان يُقال : "قُلْ لي من تُصاحب أَقُل لكَ مَن أنت"... وسأقول على هذا المنوال: دعني اقرأ ما تكتب أقل لك من أنت... وقولي هذا مقدمةٌ لطلب آخر مني وهو : قُل لي فيمَ تتخصّص كي أفهم ما تقول.

فعبارة بسيطة مثل :" **نحن نعيش في الواقع**". يصعب فهمها أكثر مما تُصوّر لك العبارة ذاتها التي تبدو سهلةَ الفهم. ببساطة لأننا لا ننفق من وقتنا في التفكير بما يكفي في بَدَهيّة الجملة (عفويتها)، أقصد معناها البسيط حسب **ظاهر** اللفظ، أو البنية السطحية، إذا رغبتَ في قراءة مصطلحات متخصصة. فـ"اللغة" غامضة بشكلٍ من الأشكال. دعني أوضح لك ذلك الغموض بتفسيراتٍ مُتعددةٍ للعبارة نفسِها على ما سترى :

مرة أخرى نقول : "**نحن نعيش في الواقع**".

- فإذا كنت مؤمناً –بالمعنى الديني- مثلاً ؛ فإنك تقصد بالضمير "**نحن**": بني الإنسان، أولاد آدم عليه السلام ، لأنك تؤمن أن البشرية انطلقت من النفس الواحدة (آدم عليه السلام) التي خلق "الله" منها زوجها، ثم بتدبيرٍ إلهي أنزلهما إلى الأرض، وتوالدت البشرية منهما.

أما عن كلمة "**نعيش**": فمعناها عندك أنّ الصالحين من بني آدم يفعلون ما يطلب "الله" عز وجل منهم، أما غيرهم فلا يفعلون، ونحن مسيّرون ومخيرون، ونقع في "الواقع" تحت وطأة القضاء والقدر، و"النصيب والكِتْبَة".

و"**الواقع**" لديك هو "الحياة الدنيا"، الكون المنظم، الذي سخر الله كل ما فيه لبني آدم لأنهم يحيَون فيه حياةَ اختبار ، وسينهار هذا الكون عندما يقرر الله ذلك، فيطوي السماء، ثم يؤخذ الناسُ إلى الجنة أوالنار أو الأعراف حسب ما قدموا.

- أما إذا كنت فيزيائياً فإن كلمة "**نحن**" تعني: كل شيء حي وغير حي، عاقل وغير عاقل، ابتداءً من (الكوارك) وانتهاءً بالثقب الأسود، مروراً بالخلية الأولى حتى الإنسان، ومروراً بذرة الغُبار الفضائي إلى المجرّة.

وكلمة "**نعيش**" تعني: أننا موجودون بالفعل كمادة تقع تحت وطأة قوانين الفيزياء التي تحكمها، وتستطيع التنبؤ بحركتها وتحولاتها، فأنت تعرف مثلاً أنك ستموت إذا ألقيت نفسك عن سطح عمارة مرتفعة جداً عن الأرض؛ وذلك حسب قانون الجاذبية، وأنت خبير به عبر تجاريك اليومية عندما يسقط منك قلمٌ مثلاً على الأرض.

أما "**الواقع**" لديك أيها الفيزيائي - مع أنك حائر في حقيقته - فهو الكون الذي بدأ بانفجار، و يتوسع وليس بسرعة ثابتة، بل متغيرة بشكلٍ متسارع من منطقة إلى أخرى في الفضاء، وكلما زاد قرب مجرةٍ ما منك قلّ تسارعها في ابتعادها عنك، والعكس صحيح، حسب ما تقول نظريتك عن الانتفاخ البالوني للكون.

- وإذا كنت بيولوجيا فكلمة "**نحن**" تعني بها: الفرع المنحدر من الفقاريات الأولى إلى (الهومو أركيتوس) وصولاً إلى (الهوموسابينز) ثم (الإنسان الحديث).

و"**نعيش**" تعني : أننا نمارس الأنشطة الحيوية بفاعلية- الإرادية واللاإرادية منها- طبقا لشروط الوراثة الجينية التي تحققت في أجسادنا.

أما كلمة "**الواقع**" فتعني عندك في البيولوجيا: الطبيعة التي تفرض نمطاً من السلوك عليك يمتاز بالجبرية ، تقضي حياتك فيه كي تحافظ على نفسك حيّاً، وعلى نوعك، وتتناسل فيه بدافع من رغبةٍ غريزية. ونسلُك هذا يخضع لآليّة "الانتخاب الطبيعي" شاء أم أبى، عرف أم لم يعرف، صدّق أو لم يصدّق.

هنا لا بد أن أعود لمقولتي الأولى بتعديل بسيط: دعني أنظر فيمَ تقول- أو تكتب - كي أعرفك، ومعرفتي إياك تعني لي الكثير، كفاني أن أتعرّف إلى فكرك... وبالتالي أجدُ وتجدُ جواباً عن السؤال: هل ثمّة قناة للتواصل بيننا أم لا ؟

ولعلك تدرك جيداً أنه لا بدّ من تحديد القيمة المعرفيّة للمصطلح بدقة قبل استخدامه، ومن ذلك أن تعرف ببساطة لأيّ علم ينتمي هذا الاصطلاح، أو في أيّ علم

وُلد إذا كان مُستحدثاً، فالفيزيائيون على يد (غابرييل فينيتسيانو) في أواخر الثمنينيات من القرن الماضي أصبحوا يستخدمون كلمة "**الأوتار**"(١) مثلاً، وهم لا يقصدون الأوتار التي نعرفها كأوتار العود، الآلة الموسيقية المعروفة ، أما الرياضيون فيستخدمون الكلمة عينها(الأوتار) في دراسة الدائرة العتيدة. والبيولوجيون يستخدمون كلمة "**النوع**" خلافاً لما نفهمه من هذه الكلمة. و"**التجربة**" في الأدب لا تعني "**التجربة**" في العلم، و"**الضمير**" عند الفيلسوف (روسّو) مثلاً هو غير "**الضمير**" عند النُّحاة.

إن التحوّل أو التطور أو الإزاحة الدلالية هنا على جانبٍ خطير في الإدراك، يجب أن نُقرّ بذلك إذا كُنّا معنيين بالوصول إلى تنمية فكرية، وفهمٍ أنصع لما تمّ بناؤه في ذواتنا من فكر ، وإلى أي درجة ينسجم فكرُنا مع ذاته، الذي يولّد بدوره مناهجَ نظرنا إلى أنفسنا، وإلى كوننا، وينبني عليه سلوكُنا تجاه أنفسنا، وتجاه الآخرين.

" إن نقد الفكر لا يتمّ دونَ التبصّر الكافي في استعمال الألفاظ، في ضوء الصراع والتجاوز والنفاق والحضّ والبراءة، وسائر ما يؤلّف اتجاهاتِنا أو مواقفَنا، إنّنا إذ نغضّ النظر عن هذا نجني على درس اللغة... يجب أن تسهم الملاحظاتُ اللغوية في تعرية بعض ما نحرص أن يظل مستوراً أو مجهولاً، أو غير مُمحّص، يجب أن نتصور ببساطة أن تعاملنا مع اللغة ليس أقلَّ من التعامل مع مشكلات حياتنا".(٢)

وأهمية ذلك (أقصد تربيتنا وتفكيرنا وفكرنا المجتمعي) ستبدو –وأنا على يقين من ذلك- مخيبةً للآمال إلى حدّ فقدان الثقة في فكرنا لأنه ليس فكرا مُنتجاً، وأنّ كل ما يقوم به إنما هو عملية ابتلاعٍ لأفكار متنوعة من جهات غير متجانسة، ويعيد إنتاجها بشكل مشوّه جداً، وهذا يحتاج مني إلى برهان وإثبات، لن أتوانى عنه فيما يأتي من فصول، إضافة إلى أننا نتصرف في "واقعنا" وأقصد حياتنا اليومية، بشكل أقرب إلى السذاجة منه إلى الجدية، مع قناعتنا التامة بأننا نفعل الصواب، وأننا من المحسنين صنعا.

كيف حكمتُ على ذلك؟ ومن أين لي بهذا التعميم؟

---

١) إشارة إلى نظرية الأوتار الفائقة، سيأتي الحديث فيها في الفصل الثالث.

٢) اللغة والتفسير والتواصل. مصطفى ناصف. عالم المعرفة.يناير ١٩٩٥ . ص٢٠٤

أظنّ أنها أسئلة تدور في خاطرك، إذا كنت تفكر فيما تقرأ، ولا بأس، فإني حريصٌ كلَّ الحرص على ألا أُلقي الكلام جزافاً على عواهنه، وما عليك إلا أن تقبل وحسب، بل سأقوم بالدفاع حسب قواعد العلم، ومنهج الفكر المعتمِد على "العقلانية" والاستقامة - مع أن مارتينتي يَعدّها عقبةً من العقبات التي تواجه الإيمان- كي أقنعك بما أقول، وأن ما أقول لم يكن حلماً ظهر لي في المنام.

فمع معرفتي بالعديدين الذين لا يقبلون بـ"بهلوانية" الفكر كمبدأ حياتي، ويرفضونها بشدة، ويبدون –في الوقت نفسه- لعامة الناس أنهم حَمَلَة رسالة نبيلة، إلا أنني أجدهم من أمهر البهلوانيين الفكريين اللغويين في آن واحد، ويمتازون بأغرب ميزة يمكن لكائن ذي عقل أن يتميز بها، وهي اقتناعهم التام والراسخ رسوخ الجبال بفكرتين متناقضتين في آن معاً، وهو ما سماه (أوريل) بـ**التفكير المزدوج**. ثم أنهم يتمتعون أيضا بميزة أخرى وهي:**التفكير الأعوج**. كما سماها روبرت ثاولس.

لا بأس ، سأضرب مثالاً لتوضيح ما أقول؛ لأنك ستسأل نفسك مجدداً: كيف يمكن أن يقتنع شخصٌ ما بفكرتين متناقضتين في الوقت نفسه و في المكان نفسه؟ وأقصد بـ"المكان" عقله، وستستخدم هنا قاعدةً فلسفية بعلم منك أو بغير علم ، فتقول : **هذا شيء غير منطقي!** ولكن انظر في المثال الآتي:

لا يمكن في اللاهوت الإسلامي والمسيحي إلا أن يكون الله عز وجل مطلقاً في كل شيء، لا يحيط به الزمان ولا المكان، وهو - جلّ في عُلاه- خارجهما لأنه يجب أن يكون كذلك فهو ببساطه إله، إذن فهو مختلف، خلافا للخطأ التوراتي الفاضح الذي يشخّصه، ويجعل آدم يستمع إلى وقع حذائه في الجنة عندما كان يبحث عنه، ارجع إلى سفر التكوين للتتأكد من كلامي إذا لم يكن لديك علم فيه.

في حين أن المؤمن مقتنع تماماً بأن الله ينزل إلى السماء الأولى في الثلث الأخير من كل ليلة، بمعنى أنه محدود في المكان والزمان- بالتعبير الفيزيائي والفلسفي- وليس هذا ببعيد عن شخصنته كما فعلت التوراة، ولا بأس أيضاً إذا أردتَ تحميل العبارة قيمةً رمزية خلافاً لظاهر اللفظ، لإخراج "الله" عز وجل من الحيّز الزمكاني. ولكن لا تنسَ أنه

تجلّى للجبل أي ظهر له[1]، فتحدد بذلك داخل المكان والزمان، لأنه ضرب موعداً محدداً (زمناً) مع النبي موسى، عند مكان محدد(مكان)، وتجلّى- ظهر- فيه. ولا بد أن يكون الموعد زمناً محدداً في مفهوم بشري أرضي ، لأن موسى عليه السلام وقومه سوف يخلفون موعد الله تعالى إن لم يتفق مفهوم الزمن عند الله تعالى معه عند موسى عليه السلام وقومه، وعندئذ لن يعني لهم الأمر شيئاً . كذلك القول في المكان.

وهنا لا مكان للمُحاجّة بالرموزية، لأن الموضوع لا يقبل الترميز، فكيف يفهم موسى وقومه الرمز من وراء الزمان والمكان اللذين قصدهما الله لأنه مطلق ولا يحيطان به؟!

الإشكالية الآن تشبه ما يقال في المثل الشعبي إنّ مجنوناً رمى حجراً في بئر. فصار جمهور العقلاء يجتهدون في كيفية استخراج هذا الحجر. فهل الله مطلق أم محدود؟ أم الاثنتان معاً، فإن حاجَجْنا بذلك فيعني أن لله تعالى كينونتين متناقضتين في "ذاته"، وهذا لا يستقيم، ولا يمكن عدهما صفات كالرحمة وعكسها البطش مثلاً، لأن الحديث – كما تعلم- عن ماهيّة لا عن صفة، فإذا قلنا بذلك عن يقين وصار لله كينونتان متناقضتان؛ فما المانع من ثلاث كينونات أو أكثر ، وهو ما يسمى في اللاهوت المسيحي بالأقانيم!

ومرةً أخرى : الإطلاقُ مضادٌّ تماماً للمَحدوديّة والنسبية، إلا أن المؤمن مقتنعٌ بالفكرتين معاً وفي الوقت نفسه، ولا يكفّ عن ترداهما، فصار في البئر حجران لا حجر واحد. لأن المسلم يُقِرّ في ذهنه ما يرفضه لسانه، فيقر بما جاء في القرآن عن موعد الله تعالى لموسى عليه السلام، وتجسّده في المكان والزمان، وهذا ما يكمن في ذهنه، وما يردده لسانه أنه لا يمكن لله أن يتجسد في شخص المسيح مع أنه تجلّى للجبل فجعله دكّاً.

وتمثيلاً على التفكير الأعوج أعطيك المثال الآتي : يقتنع المؤمن بأن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم قد أُسري به إلى المسجد الأقصى، ثم ما لبث أن صعد إلى أعلى سماء ورجع- في الليلة نفسها- بعد أن تلقى فروض الصلاة التي رست - بعد أن تردد

---

1) في لسان العرب. مادة (جلا) :" وجَلَوْت أَي أَوضحت وكشَفْتُ. وجَلَّى الشيءَ أَي كشفه. وهو يُجَلِّي عن نفسه أَي يعبر عن ضميره. وتَجَلَّى الشيءُ أَي تكشَّف."

إلى الله مراراً بنصائح من أخيه موسى عليهما الصلاة والسلام- إلى العدد (٥) في اليوم والليلة، وعُرض عليه مشاهد من عذاب الناس في جهنم، ورأى كذلك ثلةً من المؤمنين يتنعمون في الجنة، وأخبر الصحابة بعدما رجع عمّا رأى. وفي الوقت نفسه عندما يُقال لهذا المؤمن البسيط إن (أرتاويراف)- وهو من سلالة زرادشت- صعد إلى السماء بروحه وقاده إليها الملاك (سروش) الذي ألقى سباتاً على جسده، ولما وصلا إلى السماء تلقى(أرتاويراف) التعليمات من إلهه، ينقلب المؤمن على ظهره ضحكاً من سُخف هذه الحكاية. وسوف يتساءل كيف لهذا الكاذب كائنا من كان أن يصعد إلى السماء، ولم يكن في عصره صواريخ؟!! هل بإمكان هذا اللاهوتي أن يوجه السؤال نفسَه لِنفسِه؟ فيقول: لماذا أصدق القصة عن (س) وأرفضها عن (ص)، إذا تمتع الاثنان بصفة النبوة عند أتباع كل منهما، وبلا برهان على خدعة (ص) وصدق (س) فيما قال. تذكّر أن اعتماد لاهوتيٍّ ما على نصٍّ مقدس يعادله على الطرف الآخر اعتماد لاهوتيّ آخر على نص مقدس آخر في نظره، على أن كلاً من الطرفين يطعن في قدسية ما لدى الآخر علناً أو سرّاً.

ولكن الذي يسخر من ذلك نسي أن هناك احتمالا أن تكون "الخرافة" آتية من أصل حقيقي، إذ نقرأ في القرآن الكريم أن الله لم يقصص علينا قصص الأنبياء جميعاً، ((منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك))[1]، ثم نقرأ قوله تعالى: ((وإنْ من أمّة إلا خلا فيها نذير))[2]. والتفكير باستقامة مع وعيٍ لهذه الآيات لا ينفي أن يكون الله قد بعث في تلك الأمة رسولاً، وعُرج به إلى السماء، ومع تطاول الزمن اكتسبت قصة هذا النبي نوعاً من الأَسْطَرة أو التحريف، وتغييرا في الأسماء أو تبديلاً في أصواتها، وهذا ليس ببعيد طالما أن القرآن الكريم يخبرنا عن رُسُلٍ لم يذكرهم، فلماذا لا تكون قصة (أرتاويراف) والملاك (سروش) صحيحة؟ ما المانع من ذلك؟

---

١) [غافر: ٧٨]

٢) [فاطر: ٢٤]

على صعيد آخر فإن العلوم الفيزيائية في عصرنا هذا- بشكل خاص- فقدت الآن القدرة على صوغ نتائج ملاحظاتها في حركة الجسيمات تحت الذرية وطبيعتها، في "قوالب" أو معادلات رياضية، وهو الأمر الذي شكا منه ستيفن هوكنغ، والسبب هو قصور في قدرة الرياضيات في ملاحقة "فرضيات" عن وجود جسيمات تحت ذرية تمتلك صفة العشوائية في الحركة بامتياز لا سابق له في خبرات الفيزيائيين، إضافة إلى الخلاف حول الأبعاد في المساحة الضيقة التي تتحرك فيها تلك الجسيمات حسب الكمية المحسوبة بـ"ثابت بلانك"، وكذلك الأبعاد لم تعد أربعة (ثلاثية التجسّم + الزمن)، بل صارت ستة، أو عشرة عند بعض الفيزيائيين إلى أن صارت أحد عشر بعدا عند (ويتن) الذي حل نظريا معضلة كبيرة في الصرعة الفيزيائية الأحدث حتى كتابتي هذه الكلمات وهي نظرية (الأوتار الفائقة Super String theory)، الإشكالية الأكبر من ذلك هي اختلاط الزمان بالمكان في هذه المساحة، وعدم القدرة على وضع حدود فاصلة بينهما في النموذج الفيزيائي للكون المبني على نظريتين؛ **الأولى** ارتقت إلى رتبة "حقيقة" من جهة وهي نظرية الكم " الكُمومية "، وأساسها مبدأ الارتياب لـ(هايزنبيرغ)، والنظرية **الثانية** هي مبدأ الانفجار العظيم الذي اقترح نموذجاً لما يسمّى "البداية الأولى"- التي هبطت عند بعض الفيزيائيين إلى مرتبة "فرضية".

على رأس أصحاب هذه النظرية الجديدة الفيزيائيان (شتاينهاردت) و(توروك). ثم فلنتساءل هنا: هل –حقيقةً- يتوجّب إيجاد حدود تميز الزمان عن المكان؟ أم إن وضع هذه الحدود خطأٌ كبير في فهم طبيعة المادة؟

تبقى هذه معضلات علمية وفلسفية في آن معاً، ومهما يكن من أمر فلا يعني هذا توقف علم الفيزياء عن الحركة، بل عن التعبير الرياضي بالقوانين التجريدية عما يتم رصده. يبدو الكلام هنا غامضا نوعا ما، لكنه سيتضح ويتبسط أكثر في الفصل الثالث. وهذا العمل على مستوى الفيزياء والبيولوجيا أيضا قد افتتح اليوم مناطق جديدة للنزاع بين الفكر اللاهوتي والعلم. ولقد وُضعت اليوم "حقائق" الفكر اللاهوتي مرة أخرى موضع اختبارٍ أكبر مما كانت عليه الحال في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بل أن طريقة "التجربة" المنتهَجة في العلوم أخضعت اللاهوت لامتحان لم يكن له سابقة خبرة في التعامل مع أسئلته؛ لأن مادة التجربة هي الواقع المحسوس ،

وإذا أردنا أن نكون أكثر دقة وموضوعية فعلينا كمؤمنين أن نعترف أن مساحة المناورة أمام اللاهوت- أو الفكر اللاهوتي- قد ضاقت بشكل لا مثيل له اليوم. وبقاءُ مجموعة من الفلكيين المحالين على التقاعد (من ناسا)، وعلى رأسهم كارل ساغان، والفيزيائيين الكبار من طراز ستيفن هوكنغ يشهدون على تاريخ الصراع المرير بين العلم والفكر اللاهوتي ، وقد شارك عدد منهم فيه بكتاباتهم ، وهوكنغ مثالٌ حيّ على ذلك.

في الوقت الذي ينشغل فيه الفيزيائيون في البحث عن نظرية تستطيع "تلخيص" الكون، أي التوصل إلى قانون أو صيغة رياضية لها القدرة على جمع القوى الطبيعية الأربع في قالب رياضي واحد مصوغ بتقنية عالية لسلوك المادة، ويتمتع- في الوقت نفسه- بالقدرة على فك شيفرة الجاذبية والكهرومغناطيسية والقوتين النوويتين (القوية والضعيفة)، ابتداءً من "الكم" وانتهاءً بالثقب الأسود، في الوقت هذا نفسه لم يزل الفكر اللاهوتي يدافع عن نفسه بإشعال الحرب مرة بعد أخرى، لكنه في مجمل الوقائع والسِّجالات التي دارت وتدور يبقى في موقع الدفاع، وليس الهجوم.

هذا النزاع سببه النتائج التي يعلن عنها العلماء في العلوم المختلفة التي تتعامل مع المادة فقط، ونوعية هذه النتائج لها الدور الأكبر في النزاع، فالنتائج التي تصطدم أو تعارض الأخبار المسطورة في الكتب المقدسة تشكل في الفكر اللاهوتي منطقة خطرة تهدد بكارثة وشيكة، لذلك وجب عليهم كمؤمنين الدفاعُ عمّا تقول الكتب المقدّسة أو ما يفهمونه هم منها بناءً على تفسير موروث أو عصري، وردُّ ما جاء من طرف العلوم مما يُعدّ هجوماً يهدف إلى تدمير قواعد اللاهوت كما يتصورون، هنا يتحول العلم إلى عدو تماماً، لكن العلم بطبيعته لا يُمكّن اللاهوت من تجريد حملات عسكرية للقضاء عليه، على أن كثيراً من النتائج التي تتمخض عن العلوم لا تثير حفيظة اللاهوتيين لأنها ببساطة بعيدة عن منطقة التصادم، كاختراع جهاز قياس ضغط الدم مثلاً والهاتف المحمول، فقد قابله اللاهوتيون ببرود، وانظر –في المقابل- في ردة فعلهم عندما أُعلن عن نظرية دارون سنة ١٨٥٩.

إذن؛ النزاع يقوم انطلاقاً من فهمٍ لنتائج ، ولكن النزاع أعمق من مجرد نتائج، فالنتائج "العلمية" تقوم على "التجربة"، والنتائجُ في اللاهوت محسومةٌ مسبّقاً وقارّة، ولا معنى للتجربة في اللاهوت، وعليه فالخلاف بالتحديد حاصل بسبب منهج النظر إلى الواقع. ... لذلك يُطلب منك أحيانا أن تجيب عن السؤال : هل أنت مع أو ضد؟ أو يدور هذا السؤال في خلدك أحيانا إذا فكّرتَ في العالم حولك.

الجواب يتحدد فيك داخلك، بناءً على كيفية نظرك إلى الواقع، فهل يمكن أن نردد قول نزار قباني: لا توجد منطقة وسطى ما بين الجنة والنار ؟ هل من مصالحة وتوفيق بين طريقتي النظر؟ الجواب : لا. لأن أحدهما ثابت والآخر متغير، أحدهما قديم (تاريخي : مرتبط بواقع الأمس) بحاجة إلى فهم جديد، والآخر تجري عمليات التحديث والترميم فيه على الدوام.

هنا يأتي تميّز توماس إكويناس. في حين أن الفكر اللاهوتي المسيحي واحد، فالكاردينلات والقساوسة والحاخامات والأئمة والعلماء المسلمين أكثر مما يمكن حصره عدداً، إلا "الدلايلاما" المسكين فهو واحد لأن منصبه الديني كمنصب البابا فلا يوجد أكثر من بابا في الوقت نفسه، لكنهم جمعيا يرددون المقولات اللاهوتية-الفلسفية ذاتها على أنها مسلّمات تمتاز بالحتمية، وترفُّعِها عن الإهانة بوضعها تحت الفحص والنظر، الذي لا يعني الطعن في هذه الكتب المقدسة، بل العكس تماما هو الصحيح، أي أن يتقدم العلماء في هذه الشؤون بقراءة جديدة واعية وواقعية ولا تحيد عن الغرض الذي أنزلت من أجله هذه الكتب، أقصد بألا يقحمها المشتغلون فيها في الأغراض التي لم تتنزل من أجلها، أعني العلم ونظرياته ونتائجه. لأنها ليست مقررات جامعية لطلبة علوم الفيزياء والبيولوجيا والطب والفلك والكيمياء...

ومع تقدم العلوم فإن عصر اللاهوتيين قد ولّى، ولكن إلى رجعة، هي ذاتها رجعة فكر توماس إكويناس، ومع مناطق جديدة للنزاع بين الاتجاهين اللذين يشبهان سهمين مصوّبين إلى هدف واحد، وميزة الهدف أنه لا يستقبل السهمين معا. والنتيجة أن أحدهما صائب ، والآخر - لا بد- طائش .

أن الأزمة الحقيقة في فيما يجري في العالم اليوم- ولا تبتئس لذلك- هي أزمة الفكر اللاهوتي، فالعلوم لا تجد غضاضة في تغيير ما كانت تسميه "حقائق" ، وتبدل

نظرية بنظرية، وتفترض فرضية ثم يقوم العلماء بشطبها من دفاترهم بعد التأكد من عدم ملاءمتها، ولكن اللاهوت لا يستطيع القيام بما يقوم به العلم من تعديل وتغيير وتطوير وشطب. لأن الحقيقة عنده مطلقة وثابتة، وإن خالفت هذه الحقيقة فهمنا العلمي فلا يعني ذلك شيئا، وعلى العلم أن يغير فهمه للوجود بناءً على الفهم اللاهوتي[1].

إن مجرد الشعور بالحاجة إلى التغيير في فهم النصوص أو تعديل هذه الأفهام يوقع هذا الفكر بين أمرين ليس فيهما مثقال ذرة من حلاوة؛ لأنه أقحم نفسه في مسائل علمية لم تكن يوما من اختصاصه؛ فإما أن ترفض، وإما أن تشك. وعلى الحالين صارت الحقيقة في "الكتب المنزلة" في حاجة إلى تدخل بشري نتيجة هذا التصرف الأرعن، وأي عمل من نوع التعديل يندرج تحت تحريف "الكلم من بعد مواضعه"، وهو ما يحدث فعلا تحت ما يسمّى التفسير العصري للنص الديني أو الدياناتي، أو "الثابت" و"المتحول "في النص، أو الرمزية أو اللغة المجازية الانتقائية، وما إلى ذلك من محاولات توفيقية، على أن مجرد هذه المحاولات هو اعتراف ضمني أو صريح أحيانا أن النص في حاجة إلى معالجة من نوع جديد، تجتهد العقول في إجرائها، وتحديث الفهم، وأَقْلَمَة النص بما يناسب العصر وما استجد فيه، من ذلك مثلاً كتاب " أبي آدم" لعبد الصبور شاهين، أضف إليه محمد شحرور ، وفكرة (أنسنة الإنسان)، وكتبه جميعها تحاول تقديم فهم جديد للنص بما يسمّى في السيمياء بمنهج "المحايثة"، ولا تنس جهود علماء مثل زغلول النجار وعبد المجيد الزنداني اللذين يصران على إقحام النص المقدس في الذرة، والحمض النووي الأول، ورحم المرأة، والطبقات التكتونية، حيث صار "الإعجاز العلمي في القرآن " منهجاً من مناهج التفسير، وهذا خلط لم يحدث في الثقافة الإسلامية خلط مثله من قبل، هذا غير

---

١) يقول الحلاج مثلا : " أفهام الخلائق لا تتعلق بالحقيقة ، والحقيقةُ لا تليقُ بالخليقة ، الخواطرُ علائق ، وعلائقُ الخلائق لا تصل إلى الحقائق ، الإدراكُ إلى علم الحقيقة صعب." الطواسين. الحلاج. المكتبة المحسية للتصوف.http://alnafry.googlepages.com/altwasseen .ص٣ .
فكيف إلى حقيقة الحقيقة ، وحق الحق وراء الحقيقة ، والحقيقةُ دون الحق

جهود الدعاة العصريين الذين يملؤون الشاشات[١]. وبعضُ وسائل الإعلام تقدم برامج تحت عناوين مثل : العلم والإيمان، أو الشريعة والعلم، ومن أشهر تلك البرامج وثائقيات مصطفى محمود[٢] الذي بذل من عمره الكثير ليرينا براهين الإيمان في قيعان البحار، لكنه موضع إكبار واحترام شديدين عندي لأنه –على الأقل- كان من الباحثين - النادري الوجود- عن الحقيقة بمعناها المحض، وهو غرض يستحق بجدارة أن تبذل الجهود من أجله.

لقد قمت بالبحث عبر الإنترنت عن المحاولات التوفيقية بين "التطور"، وهو درس بيولوجي، والأنتروبيا(قانون الثيرموديناميكا الثاني)، و"الكم" وهما عمودا الفيزياء الحديثة فلم أستطع لما وجدت من محاولات توفيقية حصرا، وكثيرٌ منها لا يرتقي إلى المستوى المطلوب للإقناع، فتجد من كاتبيها أخطاء ومبالغات كثيرة، تضعك بين حدّي البكاء والضحك.

وإذا قابلت موقف اللاهوت اليهودي- المسيحي في أوروبا من جهة، واللاهوت الإسلامي من جهة ثانية تجاه العلوم فستجد أن اليهودي المسيحي (المتفق عليه في العهد القديم) أذعن وترك العلماء مشغولين في شؤونهم دون أن يتدخل مؤسسياً في عملهم إلا بقايا من المتطرفين الذين لا يزالون يقارعون العلماء ويضيعون وقتهم ، ولكن إلى حدٍّ مقبول بحسبانهم يدافعون عن "كتبهم" في وجه أعدائها.

---

١) كانت إحدى المحطات الفضائية تقدم برنامجا لأحد الدعاة المسلمين عن قيمة إهداء الوردة إلى الجار والصديق ووقع ذلك في نفس المهدى إليه، ومحطة اخرى تقدم مقابلة حية مع جورج جلوي قائد حملة" الحياة" لأهل غزة لما تعرضوا إليه من إعاقات وإصابات من قبل السلطات المصرية للحؤول دون وصول المساعدات الإنسانية لأهل غزة، وكي تريهم صعوبة ذلك ليكونوا عبرة لمن خلفهم ممن ينوون القيام بمثل هذه المساعدات. قارن بين الحلقتين وأي منها أنفع للإنسان. وأي ضرب من التفكير يقود مثل هذه الحلقات المشابه لموضوع أهمية الوردة في تلك الظروف الإنسانية غير الإنسانية التي يعاني منها الناس على مدى سنين عديدة؟!

٢) ومما لا يقّدر بثمن أن مصطفى محمود لم يكن يبحث عن الحقيقة بأفكار مقررة قبلا في ذهنه، بل جرد عقله من الافتراضات المسبقة والاعتقادات والعادات والمعارف الشائعة بلا برهان، حتى تنقل من مذهب إلى آخر، إلى أن انتهى به الأمر في النهائية إلى الإيمان. وأصدر كتابه المشهور "حوار مع صديقي الملحد". ولم يتوفق فيه لأنه افترض ملحدا جاهلا يسأل أسئلة ويجيب المؤمن عنها دون نقاش، وله عدة سقطات في الكتاب ومغالطات، ليس هذا مكان شرحها. يمكنك الرجوع إلى الكتاب وتفحصه جيدا وبفكر مستقل حتى تكتشف ذلك.

أما على صعيد عالمنا الشرقي، فإن الفكر اللاهوتي أشد عناداً بكثير، ليس لصلابة قواعد الفكر التي يقف عليها، بل هو مجرد عناد وإصرار على الفكر الميتافيزيقي. والعملُ ضدّ العلم بقوة مبررٌ عند هؤلاء لأن هدم قواعد هذا الفهم والفكر اللاهوتي يؤدي إلى موت الأديان جميعاً كما يظنّون. ولا يعرفون –في الوقت نفسه أن فكرهم وفهمهم الخاص لهذه النصوص هو المهدد وليست النصوص المقدسة نفسها. لذلك يدينون العلم وأصحابه بتهمة هم برءاء منها، وهي أنهم يهدفون إلى محو الأديان ونسبة النقيصة إلى الكتب المقدسة دفاعا منهم عن فكرهم ومنظورهم كما يريدون.

والعمل هنا في العالم الإسلامي مؤسسي متضامن بشكل واسع النطاق، سأضرب عليه أمثلة من الواقع، أمثلة على استبسال الفكر اللاهوتي الذي يتم التلاعب به اليوم في الدفاع عن قواعده ، حتى لو استخدم قاعدة : إنما الحرب خدعة، لأن الموضوع عندهم حرب، فإما أن تخرج منتصراً أو مهزوماً. ويظهر ذلك في مناقشة إعجاز القرآن الكلاسيكي من جهة، **والإعجاز العلمي** في القرآن من جهة أخرى. مع أن الموضوعين متصلان ببعضهما في النهاية إلا أن الجزء الأول منهما تراثي، والثاني من إنتاج العصر الحديث. وهذا يدخل في صميم النزاع الذي يتخذ من اللغة وسيلة لإثبات مطلق الحقيقة حسب ما يريدونها هم بناءً على فهمهم لا على صريح النص القرآني الذي لا يأتيه الباطل، فقد أتاه الباطل على يد هؤلاء جراء تصرفاتهم الرعناء، والحقيقة أنك إذا اطلعت على الإعجاز في القرآن بادئاً بالنّظام ومذهب الصَّرْفَة، والجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني والباقلاني إلى السيوطي إلى اليوم، فسوف تظفر بمعلومات لم يقصد إليها الإعجازيون سبيلا، وهي أنك ستتعرف على مواهب اللغة الجمالية، وطاقات اللغة العربية في التنويع السياقي والاستعمال التبادلي بين حروف المعاني من ناحية ، وستظفر بشيء مخيّب لأملك وهو"الاقتناع" بما أنت مقتنع به من قبل، وأخيرا ستكتشف صبر "العلماء" على التنقيب والبحث في تلك المسائل.

ولعلي ألخّص جوهر النزاع الذي أتحدث عنه في المناطق الجديدة بسؤال أضعه على النحو الآتي :

- هل تتجه حقائق هذا الوجود في تواليها وتتابعها من السماء إلى الأرض، أم من الأرض إلى السماء؟

أو لأصُغ النزاع البيولوجي اللاهوتي كمثال على مناطق النزاع كما يلي:

- **هل وُجدت الحياة لِتوفُّرِ ظروفٍ مناسبةٍ على الأرض؟ أم أنّ الله هيّأ الأرضَ كي يخلق الحياة عليها؟**

والفارقُ كبير بين الاتجاهين كما تلاحظ، حيث تبلغ زاوية انحراف أحدهما عن الآخرى ١٨٠ درجة بالتمام والكمال، ويترتب على إجابة السؤال المطروح شيء خطير.

أما على مستوى الفكر اللاهوتي، فإن الكثيرين يرون في بعض الشخصيات المرموقة مثالا حيّا عصرياً على نموذج "المفكر" العالمي، لتصديه للقضايا الكبرى كالقضية المُسمّاة بـ "حوار الأديان"، على أنه يخطر في بالي أن أضع عشرين خطّاً تحت هذا المصطلح. ولا تعجب ولا تتهمني بالمغالاة إذا أخبرتك أن حوار الأديان جاء ليوقف سفك الدماء باسم "الرب" أي هو دعوة للتصالح والتوافق بدلاً من الدعوة إلى "الحروب المقدسة" وحشد النفوس لها ، دعني ألفت نظرك إلى عدد الضحايا نتيجة هذه الحروب المقدسة، فبمعرفتك بالتاريخ سيكون بمقدورك تصور عدد البشر الذين ماتوا في سبيل ذلك، دع عنك الذين ماتوا بالخطأ أيضاً نتيجة هذه الحروب من المدنيين لاسيما الأطفال، وإذا أردت تقدير الدمار غير البشري الذي أحدثته هذه الحروب، فاستعرض في خاطرك كم من مدرسة هُدمت، وملجأ للعجزة واليتامى انهدم على رؤوس ساكنيه، وكم من بيت شُرّد أهله، وفلسطين شاهدٌ يتكلم عن ذلك بلا حاجة لرواية تاريخية أو سلسلة إسناد، فهذا الذي ترى عالم شهادة لا عالم غيب .... أُفرك عينيك مجدداً إذا شككت. وفلسطين ليست بعيدة عنك.

هذا يحدث في منطقة جغرافية محدودة، وباستطاعة خيالك وتلفازك البيتي الذهاب بعيداً إلى مناطق أخرى لترى أن الإجرام "باسم الرب" يقوم على قدم وساق، وليس المقصود هنا بالرب "الله"، إنما أي إله –أرضي أو غير ذلك- يعبده جماعة ويدعوهم إلى إجبار الآخرين على اتباعه بالقوة، وهو الأمر الذي يتحول إلى فعل، على أن هذا الرب قد يكون قَبَلياً أو عِرقيّا أو....

علينا أولا التفريق بين: المفكر ، والعالم، وحامل الفكرة المدافع عنها. هؤلاء ثلاثة مختلفون:

أما ما يتعلق بصريح اصطلاح "المفكر"، وأرجو هنا منك كقارئ ذكي ألا تجعل من كلامي رجلاً من القش ثم تقوم بحرقه، كما فعلت الكنيسة بالمرحوم (برونو) الذي احرقته حيّاً وكهنتها ينظرون إليه، فإن قلتُ إنّ شخصاً ما ليس مفكراً وهو عندك قدوةٌ للمفكرين فهذا لا يعني أنه جاهل. أرجو أن يكون ذلك مفهوماً عندك. فالقرضاوي مثلا عالم ، وهو على علمه الذي يشهد له القاصي والداني قبل شهادتي فإنه عالم في مجاله، ويُحترم لأنه لا يقحم نفسه وعلمه فيما لا يعرف على العكس من غيره ، أما سيد قطب فهو مثال جيد للنوع الثالث، أي :الذي يتبنى فكرةً أو اتجاهاً ما ويدافع عنه، فقد كان يدعو إلى تبني فكر سياسي من خلال أفكار دينية هشّة لا تصمد أمام القضايا الرئيسية، وهو بعيد عن أن يكون مفكرا، ومثله في ذلك عبد الوهاب المسيري، فهو يحمل أفكارا ويدافع عنها لكنها ليست سياسية بالدرجة الأولى، وغيرهم الكثير الكثير، ولا عتب لأن عالمنا الحزين خلوٌ من المفكرين، لذلك صار هؤلاء هم المتصدرين لمنابر الخطاب الموجه للناس أجمعين، فكيف يُعدّ أمثال هؤلاء مفكرين ؟ أنا في الحقيقة لا أعلم.

ربما لأني أجهل المعايير التي يُصنّفون بالرجوع إليها، وهذه المعايير بالتأكيد ليست تلك التي أعتمد عليها، ولا تحنق من كلامي هذا ؛ فهو رأي شخصي لا غير.

ومن حقّك الآن أن تسألني هذا السؤال: مادمتَ قد أخرجتَ هؤلاء من قائمة المفكرين، فمن هو المفكر إذن؟ وما هي المعايير التي تصنف الناس انطلاقا منها؟

إن الموضوع لا يخرج في الحقيقة عن واقع الاصطلاح، فالمفكر هو الفيلسوف لا غير. ولا أستطيع- شخصياً- أن أعدّ أحداً مفكراً إلا إذا كان فيلسوفاً، بمعنى: أنه ينطلق في تفكيره الذي يبنيه على القاعدة العريضة التي قامت عليها الفلسفة منذ أن بدأ الإنسان بالتفكير (الانفجار الإبداعي في عقل الإنسان عند البيولوجيين). وهي كالهدف الذهبي الذي لم يحرزه أحد : "**البحث عن الحقيقة**". مما أدى بالإنسان البدائي إلى أن يطرح الأسئلة الكبرى: من الذي جاء بنا إلى الدنيا؟ ولماذا؟ وأين سنذهب؟.... يضاف إلى ميزات المفكر أن لديه –عبر قواعد فلسفية منطقية- القدرة

على التنبؤ بالمستقبل على المستوى الاجتماعي وباقي المستويات المؤسسة على اجتماعية الإنسان كالسياسة والاقتصاد ....، وهي من أكثر أدوات المفكر فاعلية، إضافة أيضا لاستيعابه لمقولات الفلاسفة القديمة والحديثة، وقراءة نتائجها تاريخياً وتأثيرها في سير حضارة الإنسان، وإلا فليس بمفكر، فإذا فقد ميزة القدرة على التنبؤ فهو مُنظّر للواقع، أو مفسّر للتاريخ. وههنا يقع التمييز بين المفكر من جهة، وبين حاملٍ لفكرةٍ ما مدافعٍ عنها في المحافل المتاحة له ، وهؤلاء عادة ما يتميزون بكثرة الظهور في وسائل الإعلام وتكرار أفكارهم، وعرضعها بطرق متباينة.

وأعود لأقول أنني لا أتصور أن يكون فلاناً مفكراً وهو لا يعرف على الأقل شيئاً عن فلسفة الأخلاق في دينه العالِم به أولاً، و فلسفة الأخلاق عند كبار الفلاسفة لا جميعم على أقل تقدير، كروسو ووليم جيمس وكانت وديكارت وفرويد وهيوم وهيجل وإنجلز والأسماء أكثر من ذلك، إضافة إلى الأخلاق في الديانات الأخرى التي يتبعها عدد هائل من الناس في العالم اليوم، كالكنفوشية والبوذية والتاو الصينية عدا اليهودية والمسيحية. ولا أستطيع أن أعد شخصاً مفكراً إذا لم يعرف شيئاً عن أسباب قيام الحضارات القديمة كالرومانية والمصرية والفارسية - واترك السومرية وفروعها- وأسباب انهيارها، كذلك لا أستطيع أن أعد شخصاً مفكراً إذا لم يستوعب مناهج الدراسة العلمية عبر العصور، والاكتشافات التي أدت إلى تحولات خطيرة في الفكر الإنساني عامة، ويفهمها جيداً بخاصة إذا تعلّقت بالعلوم البحتة.

وأجد نفسي أميل كثيراً للتركيز بشدة على فهم نقاط التحول العلمي فهماً صحيحاً سليماً معافى من المغالطات المقصودة أو الآتية من جهل ، أو الاعتراف بعدم فهمه ، على الأقل من ناحية أخلاقية.

ويتحتم عليه (أي المفكر) أن يتعرف إلى العلوم الطبيعية و"علوم الإنسانيات"؛ كاللغة وعلم الاجتماع والنفس، المشهور جداً منها على الأقل، ويجمعها ويربط بين الأيدولوجيات والفلسفات الأخلاقية والعلوم ومصادرها حتى يستطيع أن ينظر في شؤون عصره عن تبصّر وبصيرة، بما يؤهله أن يفكّر للآخرين حتى يسمّى مفكراً، وإلا فلا يعدو أن يكون صاحب اتجاهٍ ما: سياسي، ديني، اجتماعي، أدبي، علمي، اشتراكي، رأسمالي ....سمِّهِ ما شئت .

المعيار الأخير في هذا الصدد هو ربط المعارف ببعضها ربطا سليماً، أقصد ربطاً قائماً على رؤية منظّمة خاضعة للسببية كقانون ثابت، دونما حاجة إلى إدخال افتراضات غير مُبرهَنة على المنظومة التي تتألف في ذهنه كمفكر بصير.

أخيراً فإني لا أقصد أنه يتوجب عليه أن يكون عالماً في شؤون الدنيا كلها، والعلوم ونتائجها في العالم كله، وفي الأزمان كلها، وهو ما لا طاقة للبشر عليه، إنما المراد معرفة الأصول والقواعد المؤثرة في تحوّلات الحراك الاجتماعي في المجتمعات حتى يستطيع التنبؤ بما يمكن أن يؤول إليها حاضرنا، على أساس من الفهم والخبرة لا على التخمين والافتراض من معرفةٍ بجانب واحد، ودعني أطبق ذلك عليك إذا قلت مثلا: "الحمد لله الذي جعلني من أهل اللغة العربية".

فأنت تحمد الله لأنك ولدت لأبوين عربيين ربيانك على لغتهم، وعلى أساس أن العربية أفضل لغة موجودة على الأرض، وإلا لما حمدت الله على ذلك. ولكن: هل خَبِرْتَ اللغات كلها وقارنت بينها جميعا، ثم اكتشفت أن العربية أفضلها ثم جوّزتْ لك نفسك أن تطلق هذه العبارة بارتياح؟

لا أظنك فعلت ذلك. على أن هذا لا يعني أن اللغة العربية ليست أفضلها، ولكنني قصدت إلى لفت نظرك إلى حكم أطلقتَه بلا بحث، ولا برهان. فإذا كان مفكرونا من هذا الطراز الذي يُلقي الأحكام جزافاً فأظنك توافقني على أن هذا ليس بتصرف حكيم من شخص تسميه "مفكراً".

فكر توماس[١] إكويناس* وفكرنا اللاهوتي:

لن أترجم لحياة توماس وسيرته الذاتية بأكثر مما وضعت في الحاشية، لأنك تستطيع التعرف إليه بأكثر من وسيلة. وسيرته الذاتية لم تكن موضع اهتمام بالنسبة لي، وإنما أنا معني أكثر العناية في فكره عن طريق قراءة الكتابات التي كانت تصدر كدفاع عن اللاهوت المسيحي وثوابته في السنين الاثنتي عشرة الأخيرة (أي منذ ١٩٩٨)، وهي لم تكن إلا إعادة لما كان يقال في أيامه من دفاع وتفسير للاهوت مقابل ما يطرأ من دوافع تشكك في النظرة إلى الكتاب المقدس، يضاف إلى ذلك أن التفسير مطلوب في حد ذاته حتى لو لم يشكك في النصوص أحد.

وأستطيع بثقة أن أقول لك إن اللاهوت المسيحي لم يكتمل ولم ينضج كفرع من فروع المعرفة الفلسفية الدينية الخاصة برهبانية المسيحية إلا على يد إكويناس بالدرجة الأولى[٢] ثم تبعه وليام بالي كلاهوتي لامع، هذان الاثنان هما المؤسسان الحقيقيان للفكر المسيحي. أضف إلى ذلك أن شهرة توماس كلاهوتي ومفكر- فيلسوف، حسب المعايير التي أشرت إليها سابقا. ومقارعته للعلماء، وتردد اسمه في أدبيات الفلسفة واللاهوت بشكل لافت للنظر ومثير للفضول، كانت وراء دوافع التعرف

---

١) توماس إكويناس عاش ومات في القرن الثالث عشر الميلادي.(١٢٢٥- ١٢٧٤.)

* ومن الأصول القارة عند كثير من أهل اللغة أن (الأَعْلام) يجب أن تُنطق كما ينطقها واضعوها، لأن لهذا الرجل اسما مُعرّباً له جذور آرامية ربما، وهو (توما الإكويني)، ونحن نعلم أن (تُوما) عَلَم عرفه المسيحيون منذ عصر المسيح عليه السلام وما بعده إلى الآن. لذلك أُفضّل كتابته كما ترى في العنوان باستخدام حرف السين في المقطعين لأنه مكتوب كذلك في الكتابات الإنجليزية. يضاف إلى ذلك على وجه الاستغراب أن أسماء عدد من تلاميذ المسيح الذين من المفترض أن يكونوا من بني إسرائيل تجد أسماءهم يونانية أصيلة مثل: بطرس، وتدّاوُس ، وبترولماوس، و تيموثاوس...

٢) في أواخر القرن الثالث عشر حصل التنازع بين رغبة اللاهوت في الاستحواذ على علومه القائمة على الحقائق المنزلة بترتيب ثابت: الله- الخلق- السقوط- الفداء- الخلاص. وبين الفلسفة التي أخذت تميل بالمنطق مستقلة عن اللاهوت استقلالا تاما.انظر : الله في فلسفة توماس الإكويني. ميلاد ذكي غالي.منشأة المعارف. الإسكندرية.١٩٧٧. ص٥ .

إلى فلسفته التي ما زالت محط اهتمام الفلاسفة المسيحيين واللاهوتيين على حد سواء، لأنهم يرون فيها حلا للمسائل الوجودية.

السؤال المطروح هنا هو: ما الذي يميز فكر توماس عن غيره من اللاهوتيين على كثرتهم، وهو موضوع هذه الصفحات القليلة من الكتاب، لأنني سأتناوله مختصرا فهو عندي رمز للاهوت في العالم الإسلامي، إذ إن غايتي تنتهي في هذا العالم، وأنني لست بصدد فتح باب النقاش في نزاع العلم واللاهوت على المستوى العالمي، فلا أستطيع مجاراة أؤلئك الذين كتبوا في الموضوع نفسه من الغربيين وهم من فلاسفة الغرب نفسه ومفكريه وأعلامه، فقد كانوا يتحدثون عمّا يدور في مجتمعاتهم، وتحوُّل القناعات لدى الناس وأسبابها، ودور هذا النزاع في هذه القناعات، وهم أدرى بها من غيرهم، يُضاف إلى ذلك أن خصوم اللاهوت أيضا كانت عبارة عن أفكار علمية وأخرى فلسفية ، تصدر عن علمائهم، ومفكريهم، لكنني أحذو حذو راسل في طرح مناطق النزاع - في لاهوتنا نحن العرب المسلمين في الشرق- من حيث النظر بحيادية، وشمول المنظور لا من حيث المنطقة الجغرافية التي كانت ساحة للنزاع،لأن راسل كان معنيا بالغرب وأنا معني بالشرق.

ولذلك كان إكويناس عندي رمزا لعودة الفكر اللاهوتي في عالمنا الإسلامي بقوة لا كديانة إنما كموقف من العلم الحديث ، ونزاعه هذا مع العلم يتسلّح في عصرنا الحديث بفكر إكويناس الذي عاند فيه أفكار العلم بما يواتي منهج العلم، ويحل المعضلات اللاهوتية التي يقدمها العلم على أنها تناقضات كفيلة بهدم الفكر اللاهوتي طرّا. إذ يعتنق لاهوتيو عصرنا في العالم الإسلامي فكر إكويناس بطريقتهم الشرقية، وبما يلائم جمهور مستمعيهم ومريديهم وقدراتهم العقلية على التمييز بين الخديعة والحقيقة، سواء كان ذلك عن علم منهم أو لا، ومعرفتهم هذا أو جهلهم به لا يهم الآن.

يتمتع إكويناس بذكاء حاد لم يسبقه فيه لاهوتي قبله، ولعل ذلك ظاهر من انفتاح فكره على دراسة الفلسفة دراسة حقيقية، إذ استطاع فهمها بدقة، وعرف جيدا المدارس الفلسفية ونقاط الضعف التي تعتري كل مذهب من مذاهبها، حتى أنه تأثر

بابن رشد على ما ذهب الدكتور محمود قاسم في "نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها عند توماس الإكويني"، إضافة إلى إيمان توماس العميق بمطلق الحقيقة في الكتاب المقدس بعهديه، وهو ما دفعه للتفكير بعمق أكثر فقد عرف من أين يأتي الطعن في مطلقات اللاهوت. فجمع إلى ذلك أصول البحث المادي القائم على "التجربة"، وربطَ نتائج التجربة بحركة "الزمن". كمخرج من الكرب العظيم، الذي هدد - وما زال- قواعد المسيحية من الأساس إلى السقف كما كان يظنّ.

لقد استثمر إكويناس ذكاءه في إقحام المفاهيم الفلسفية التجريدية المحضة إلى مضمار الصراع بطريقة أشبه بالاختلاس غير المدرك ذهنيا، ليسد الخلل الذي يعتري الحقائق المسطورة في الكتاب المقدس، وهذا يحتاج كثيرا من التوضيح وسيأتي مبسطاً.

والوقوف عند فلسفته ونقاشه فيها يحتاج كتابا مستقلا وإفرادا للبحث في المسيحية واليهودية، على أن ذلك قد تم على يد عدد من الباحثين بما يفي بالغرض، ولست أرمي إلى ذلك حرفا كما ذكرت، لأني معني بالفكر في عالمنا في الشرق، كما عُنوا هم بفكرهم في الغرب. لذا لا بد من الوقوف عند القواعد الأساسية لديه فقط، لأنها تشترك وتنطبق على لاهوتنا. وفهم آليات استثمارها للدفاع عن كتابه الذي يؤمن به الملايين من الناس هي عين آليات وطرق ومناهج الدفاع المستخدمة في اللاهوت الإسلامي، وعليه فإننا نتناول المشترك بين المجامع "المسكونية": المسيحية والإسلامية، التي تشكل التوراة عقدة الربط بينها.

إذن فالموقف ليس موقفا اجتماعيا أو شخصيا، فقد كان توماس من الأقلة التي تدرك وجوب أن تكون المعركة ضارية، وفي الوقت نفسه كان عليه أن يعارك بهدوء لا بعنف أو تهجمية تخرجه من المضمار مسبوقا لا سابقا، وكانت هذه أولى قواعده في المحاجّات في كبريات المسائل التي كادت تسوق اللاهوت كله- مسيحيا وغير مسيحي- إلى متحف الأنتيكا، أو ساقته إليه بالفعل وانتهى الأمر عند الكثيرين، وإن لم تصدق ذلك فانظر في دساتير عدد من الدول مثل: فرنسا والسويد والنروج والدنمارك وألمانيا وفنلندا وسويسرا.... فإنها لا تنص على دين رسمي للدولة، ولا كتاب مقدس معتمَد عندها بحيث يعدّ مرجعا لسياساتها الداخلية أو الخارجية، ولا تستنبط منه القوانين والتعليمات وقواعد الحكم،...ولا تعنّي نفسها بتعيين حرّاس على أية ديانة

يعتنقها مواطنوها. ويكفيك أن تعرف أن البابا يقبع معزولا عن العالم الدنيوي في الفاتيكان.

سألخص فيما يأتي فكر توماس ، وسأسوق لك فكره من أتباعه وممن تبنوا فلسفته بإخلاص، وهم على أية حال قساوسة ورهبانيون لاهوتيون مدافعون عن معتقداتهم، ولا أريد في الوقت نفسه أن أدع مجالا لفهمي الشخصي للتدخل في نصوصهم، وسأعلق عليها ولكن لن أطرح الأسئلة كي أشير إلى المآخذ عليهم.

سأمهد للدخول إلى الموضوع مع صعوبة شديدة جدا في تحويل المقولات الفلسفية "اللغة الميتافيزيقية" أو "ألعوبة اللغة" على حد تعبير فايتجن شتاين[١]، التي تصعد عاليا في طبقات الاصطلاح- الاصطلاحي... سأحاول على أية حال:

العدم لا يُنتج إلا العدم. ومادام هذا الكون بكل ما فيه موجودا كمسلّمة لا نقاش فيها، إذن؛ لا يمكن أن يكون قد جاء من عدم....قاعدة لا محيص عنها عند توماس و غيره[٢].

مفهوم القاعدة يقول باختصار : أن هناك خالقا للكون...حسنٌ، ولكن كيف تبرهن على ذلك؟

هنا علينا أن نثبت ذلك فلسفياً، لأنّ القاعدة السابقة قاعدةٌ منطقية كما تلاحظ وليست فلسفية.

كيف نعلم أن الله موجود؟ الجواب يحتاج إلى طرح سؤال آخر، وهو : هل تؤمن أن هناك فرقاً بينك وبين "الله" على فرض أنه سبب الوجود، مادمنا نتحدث عن وجود مُسلّم به؟ إذا كانت إجابتك بـ"نعم"، أي هناك فرق بيني وبين "الله" المفترض مبدئياً،

---

١) من روّاد الفلسفة اللغوية، نمساوي عاش في بريطانيا (١٨٨٩- ١٩٥١).

٢) انظر تفصيل قواعد توماس في ذلك وإفادته من حجج القديس إنسليم بشكل خاص في :الله في فلسفة توماس الإكويني والحجتين اللتين أضافهما إلى حجج إنسليم. ص ١٦ وما بعدها. وأنا هنا ألخص ما جاء في هذا الكتاب وفي غيره، ككتاب محمود قاسم فلسفة ابن رشد وتأويلها عند الإكويني، وما ورد في الكتابات اللاهوتية المسيحية بشكل مباشر وغير مباشر حول فلسفة الإكويني، وما يهم هنا هو رسالة الإكويني المسماة : "الخلاصة ضد الأمم." و " الخلاصة اللاهوتية". التي وصفهما ميلاد ذكي بأنها الأكثر تحدثا عن إثبات وجود الله من بين مؤلفات الإكويني وأكثرهما روعة وغنى، ومؤلفات كثيرة لم يتسنّ لي الاطلاع عليها جميعها.

فإن هذا الفرق يبدأ بـ"العلم". كيف يعلم الله الأشياء؟ وكيف تعلمها أنت؟ إذا عرفنا الإجابة عن هذا السؤال وصلنا إلى "وجود الله".

أما إذا كانت إجابتك بـ"لا" أي لا فرق بيني وبين الله، فمعناه أنك مساوٍ له، وأنت مثله وكل الناس مثله ، فمن منهم جاءنا بهذا الوجود؟ إذن؛ الإجابة بـ"لا" غير صالحة منطقيا. وعليه لا يمكن حملها والذهاب بها أبعد من ذلك، فلن تثبت فلسفيا عند سقوطها منطقيا.

وعليه؛ فالإجابة بـ"نعم" متحتمة. وعلينا هنا أن نعود إلى السؤال السابق؛ كيف يعلم الله وكيف تعلم أنت؟ من هنا... فلنبدأ.

لم أجد أبسط من قول الأب سرتيلانج في شرح هذه المسألة، وقد كفاني مؤونة التفكير في تبسيطها، وهذا نص كلامه حرفيا وهو يسوقه بدوره على لسان توماس نفسه : " إن القديس توماس يقول: إن مَثَل ذلك إلى الله كمثل مَن يوجد في أعلى برج من البروج، ويرى موكباً يمرّ أمامه، فالبنسبة لهذا الملاحظ لا نجد أي تأثير للترتيب المكاني من حيث التقدم والتأخر، ذلك الترتيب الذي يجعل هؤلاء القوم السائرين يرون من هو أمامهم، ولا يرون الآخرين، ذلك أن هذا الملاحظ يرى كل شيء بنظرة واحدة، ولا يمكن القول- بسبب ذلك- إن هذه النظرة تقضي على النظام، وتلك هي الحال بالنسبة إلينا نحن السائرين في موكب الزمن، فإننا نرى أنه مقياس لعلمنا، وأمن القضايا التي تعبر عن هذا العلم يحب أن تكون خاضعة لما يتطلبه الزمن، وأن تكون مرتبطة بوجودها بالزمن، وهذا هو مصدر تصريف الأفعال [إلى ماض وحاضر ومستقبل](1) ، أما الله فإنه يرى الزمن بنظرة واحدة، وهو يعبر عنها بأفعاله الخاصة دون قسمة زمنية. ودون قسمة شكلية ودون تعدد ودون أي شيء مما يعبر باللغة الإنسانية عن تجزئة الوجود."(2)

ومعنى هذا الكلام أزلية العلم، وأزلية العلم هي أزلية العالِم أي الله؟ كيف؟

---

1) الكلام بين المعقوفين توضيح من المؤلف: محمود قاسم. نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها عند توماس الإكويني. مطبعة الأنجلو المصرية. بلا طبعة. ص ٢٣٦ .

2) نقلا عن : نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها عند توما الإكويني. ص ٢٣٦ . وعنوان كتاب الأب سرتيلانج حسب محمود قاسم هو : .LA Philosophie de saint Thomas والنص مقتبس من صفحة ٢١٢ من الكتاب المذكور.

إن الله خلق كل شيء دفعة واحدة وفي لحظة واحدة هي لحظة حاضرة بالنسبة له وستبقى حاضرة، أي لا معنى للماضي والمستقبل بالنسبة إلى الله، لأن "الموكب" بكل أجزائه تم خلقه في اللحظة نفسها ولم يخلق في هذه اللحظة واقفا إنما خُلق متحركا، وهذه هي حركة الزمن التي يشعر فيها من يسير في الموكب، ولكن الناظر إلى هذا الموكب من الأعلى لا يتأثر بهذه الحركة ولا بترتيب الأشياء أو الأشخاص في الموكب، لكن الذي يشعر بالجزئية إنما هو الذي يسير في الموكب، ويرى هذا السائر الأحداث تحدث بتتابع ، ولكن يراها من هو في أعلى البرج "الله" تحدث مع غيرها في وقت واحد. أبسط من ذلك دعني أقول إن من يسير في أول الموكب يمر مثلا بحُفرة، هي بالنسبة له وقت حاضر، لكن الحفرة نفسها بالنسبة للسائر في آخر الموكب هي حدث مستقبلي سيقع له، لكن المرور بالحفرة للناظر من أعلى البرج حدث واحد يعلم أنها تقع في حاضر بالنسبة لأحد السائرين وأنها ستقع مستقبلا لواحد آخر من هؤلاء السائرين.

وهذا هو العلم الأزلي عند الله، فهو وجود واحد بالنسبة له، لكنه مجزّأ بالنسبة للإنسان، وسبب التجزئة هو سيرورة الزمن. فالزمن نفسه يعني للإنسان الكثير لكنه لا يعني لله شيئا. إذن الإنسان يعلم الأشياء بمرور الزمن، وعليه؛ فهو مرتبط بالزمن أشد الارتباط أما الله فليس مرتبطا به، وهذا يعني بعد أن نعلو بالتمثيل من شخص ينظر إلى موكب إلى ذات الله سبحانه، يعني أن الله خارج الزمن، والمكان أيضا لأن المكان لا يعني لله شيئا فقد خلقه دفعة واحدة والمخلوقات كذلك، وللتسهيل اِجعلها (أي المخلوقات)هي الموكب نفسه في مثال توماس الآنف الذكر، وطبق فكرة " الموكب والناظر من البرج" على الوجود كله، عندها ستنحل أمامك فكرة الأزلية، ويبقى الخلاف بين الإسلام والمسيحية في كينونة "من يقف في أعلى البرج" قائما، مع الاتفاق على أزلية وجوده وأزلية علمه اللذين يتّحِدان في الموضوع والمحمول في قولنا " الله موجود"[١] وهي الحجة الأولى التي أضافها توماس إلى حجج القديس إنسلم.

---

١) قال توماس ذلك في "الخلاصة ضد الأمم"، انظر: الله في فسلفة القديس توماس الإكويني. ميلاد ذكي غالي. دار المعارف.الإسكندرية.١٩٧٧.ص١٣

والحجة الثانية هي أن ما تُعرف به جميعُ الأشياء الأخرى يكون معلوماً بذاته، والله كذلك، لأنه نور إلهي ومبدأ كل معرفة : وإذا كان الله خارج الزمان والمكان فإن ما ينطبق عليك من نواميس الزمان والمكان لا ينطبق على الله، وعليك أن تتذكر أنك جزء من كل ولا تستطيع أن تتعرف إلى الأشياء أو أن "تعلم" إلا وأنت مقيد بقيد الزمن، وعندئذٍ فإن معرفتك بذات الله "ماهيته" غير متحصلة لك، ببساطة لأنك تقع داخل إطار مغلق وهو يقع خارج هذا الإطار.

هذا المذهب الذي ذهب إليه توماس يخالف تماما نظرية "الفيض"، وقد أشار إلى ذلك الدكتور محمود قاسم عندما ربط بين ابن رشد وتوماس، إذ يميل إلى أن توماس قد استوعب تماما فلسفة ابن رشد التي ترفض " الفيض" جملة وتفصيلا وأفاد منها في فلسفته اللاهوتية المسيحية[1].

والحقيقة أنا معجب بهذا التفسير للأزلية وإطلاق علم الله الذي يتّحد بوجوده، فيصير علمه هو وجوده، ووجوده هو علمه، من الناحية النظرية، إلا أن الاعتراض عليه سهل، لأنك ستفهم أن الزمن عبارة عن وهم لا حقيقة، ثم بإمكانك أن تقول للمتفرج من أعلى البرج: لماذا سيّرت هذا الموكب؟ ولمَ جعلتَ الموكب على الهيئة التي هو عليها ولم تختر له هيئة أخرى؟ أو قانونا آخر يحكم سيره وليس هذا القانون الذي يحكم سيره الآن؟...

على أية حال هو تفسير لا بأس به من الناحية النظرية لكنه في النهاية أقرب إلى أن يكون اقتراحا لحل مشكلة وليس حقيقة واقعة، و أنه يسوق المتبصر إلى معضلات أخرى، والمعضلة الأكثر إشكالية في الوجود هي جدلية التسيير والتخيير. هل أنت مسير أم مخير؟ أم مسيّر في أمور ومخير في أمور أخرى؟ لم يدع أحد من الفلاسفة أو اللاهوتيين هذه المسألة تمر كقطار سريع عابر، فقد توقفوا عندها كثيرا، ويعنيني منها هو موقف توماس أولا ثم لاهوتنا الإسلامي باختصار شديد.

---

١) انظر : نظرية المعرفة عند ابن رشد. محمود قاسم. ص٢٣٦ . تذهب نظرية الفيض إلى تتابع الخلق من العقل الأول إلى الثاني الفاعل، وهذا يعني بطريقة من الطرق أن الخلق من الفيض محكوم بتتابع زمني وترتيب.

خذ مثلا "ألعوبة" دوركايم، الذي ذهب وليفي شتراوس إلى أن الإنسان مسيّر في كل شي لأنه رهينة "ألعوبة" في يد الواقع الاجتماعي أو الطبيعة أو البيئة التي يعيش فيها وهي المسؤولة عن تشكيله من الداخل والخارج، ومعروف أيضا أن لفرويد رأيا في ذلك، وهو دور الغرائز في السلوك لا سيما الجنسية منها...ولكن ما علاقة هذا الكلام فيما مضى من الحديث حول وجود الخالق وأزليته؟

المشكلة هي تعارض علم الخالق الذي أوجده دفعة واحدة واختيار الإنسان في حياته. متى يكون حرا ومتى يكون مجبرا على شيء ما؟ لأن المسالة فيها إيحاء بظلم يلحق بالإنسان جراء قرار "الله"، ولكن بشكل خفي، لأن الله خلقه في بيئة ما(الموكب)، وحدده وقيده بزمن وبشكل وبفترة يعيشها وقدّر أفعاله منذ الأزل. فأين حريته الشخصية في الاختيار بناء على الفهم السابق؟ هنا تكمن عقدة الربط بين المسألتين.

الأب هنري اليسوعي كلاهوتي عتيد لا يقبل- بوحي من فلسفة توماس- بما ذهب إليه دوركايم وشتراوس، ويعاند بشدة لويس إيفيلي الذي قال مقالة في الحرية جديرة بأن تُعاد مع أني وضعتها في المرجعيات الرمزية في بداية الكتاب؛ لذلك اقرأها في الحاشية هنا[١]، والأب هنري يشرح الحرية بكلمات كثيرة تستطيع أن تختصرها بقولة : إن لم تستطع تحقيق ما تريد فاقبل بما لديك. بمعنى إن الحرية تكمن في "تقاطع الحتميات" على حد تعبيره، والشعور بالرضى عند فعل شيءٍ ما، وفيه يتجسد معنى الاختيار عنده[٢]. ويسوق قولاً حكيماً للرسول بولص، يقول بولص : " فالرغبة في الخير هي باستطاعتي أما فعله فلا، لأن الخير الذي أريده لا أفعله، والشر الذي لا أريده إيّاه أفعل، أشعرُ في أعضائي بشريعةٍ أخرى تحارب شريعة عقلي... ما أشقاني من إنسان!"[٣]. ويقصد بذلك - على ما يرى الأب بولاد اليسوعي- وجود "إنسانين" في

---

١) يقول إيفيلي: إن حريتي تبرز وتمارس بين عدد لا يحصى من التبعات فأنا محدود منذ البداية كما تحدد القاعدة الهرم، باستطاعة الهرم أن يرتفع ارتفاعا أعلى أو باستقامة أشد لكنه لا يستطيع أبدا أن يتخطى المربع الذي برز منه.

٢) انظر المصدر السابق ص ١٦ .

٣) "لا للقدر". ص ١٣ . بولص (رومة ٧/١٨- ٢٤) .

الإنسان الواحد، أي إن هناك قوى تتنازع الإنسان في فعله، وهنا تكمن حريته في الاختيار، وفي ذلك يرى الأب اليسوعي معنى الخيار الذي منحه الله للإنسان.

أما المفهوم الإسلامي فيضع الأمور موضعاً أكثر سعةً مما يرى الأب بولاد اليسوعي، ويتمثل بـ"النجدين"، في قوله تعالى ((وهديناه النجدين))[1]، أي سبيل الخير والطاعة من ناحية ، والشر والعصيان من ناحية أخرى. وفي الوقت ذاته لا مناص من كون الإنسان مجبراً على كثير من الأشياء، ولا أظن أن أحداً لا يقرّ بتلك الجبريات، ويجادل فيها كخلقك على هيئةٍ ما، وعدم اختيارك لأبويك، وجنسك، وإلخ...وعلى أية حال تبقى المسألة رهن الجدلية، فليس في فَهْم توماس ما يقنع ولا في فهم علماء المسلمين الذي عرفته عنهم ما يقنع أيضا- على المستوى الشخصي بالنسبة لي- فأحسن الأقوال أن الإنسان مسير ومخير، وعلم الله الأزلي لا يتناقض مع ذلك لأنه خيّرك فيما تفعل، وهو يعلم أنك ستفعل، فمسؤولية الفعل تقع عليك لا عليه.

على أن في هذه المسألة اعتراضات كثيرة، وإجابات كثيرة أيضاً وهي جدلية لن نخرج منها، فببساطة يمكن أن أقول أنني إذا فعلت فعلا ما بـ"اختياري" فلا شك أنه سيكون نابعاً من طبيعتي الشخصية، أو بيئتي أو محيطي الاجتماعي أو ظرفي الذي وُضعت فيه، وفي كل الأحوال هذه الأشياء أو بعضها هي التي أدت بي إلى هذا الفعل، فأين حريتي فيه واختياري له، إنها مسؤولية من وضعني في هذه الظروف، ومن ساقني إليها، حتى لو شعرت أنني مختاراً فإنه شعور ليس أكثر، تتلبسه نفسي وتتوهمه، أما الواقع فليس كذلك، فقد فعلت مجبراً لا مختاراً، فمثل ذلك كمثل من يكذب كذبة ويصدقها، وهي الحرية التي يعنيها ويرفضها إيفيلي في مقولته السابقة.

والمسالة التي ميّزت توماس بشكل كبير هي موقفه من العلم، فإذا كان الله قد خلق البشرية وأحبّها، فلا بد –منطقياً- من أنه يحبُّ لها الخير، فكل علمٍ وعملٍ يؤدّيان

---

١) الآية :

إلى نفع البشرية فهو "عقليا" مقبول عند الله ومرغوب فيه، وإنْ لم ينصّ على ذلك الكتاب المقدس، وجاء هذا على خلفية الفكر المسيحي اللاهوتي حيث كانت الكنيسة تحّرم التداوي مثلاً، لأن المرض –في نظرها- مشيئة الله والعلاج عناد، ومضاد لهذه المشيئة. والألمُ نوعٌ من الاختبار يجب على المرء أن ينصاع إلى اختبار الله له، وفيه تنقية من الخطايا، وقد تكون هذه التنقية هي الهدف الأسمى من وراء الأمراض، فكانت الكنيسة ترى في الأوبئة الفاتكة بآلاف البشر غضباً إلهياً نتيجة خطايا الناس، علاجُه تقديم القرابين والابتهالات والاعتذار لله عما جنت أيديهم، وأمّا تناول الدواء فهو زيادةٌ في المعصية، وهروبٌ من الاختبار والاعتذار. فجاء توماس بالنظر العقلاني-المنطقي- مستنتجاً من عبارة أن "الله محبة"[1]: أن الله لا يقبل لأحبابه المضرّة، ويمنع ويحرم عليهم التداوي. وسبيلُ التداوي هو العلم الذي جاء بالأمصال المضادّة للجدري الذي أودى بحياة الآلاف في أوروبا و التيفوئيد وغيرها. وصرنا بعد إكويناس نرى اللاهوت المسيحي ينحو هذا النحو، ويقول بقوله، فصار يدعو إلى العلم والأخذ بأسبابه فقد جاء في الدستور (فرح ورجاء) الصادر عن مجمع الآباء الفاتيكاني الثاني ما نصه:

"إنَّ للمخلوقات والجماعات نواميسها وقيمها الخاصة. فعلى الإنسان أن يتعرَّف إليها تدريجيًا ويستخدمها وينظمّها. فهذا النوع من الاستقلال المطلوب هو شرعيٌّ تمامًا. وإنْ طالب به المعاصرون، فهو أيضًا مطابقٌ لإرادة الخالق. فكلّ شيءٍ بوصفه مخلوقًا، له كيانُه وحقيقته وميزاته الخاصّة، وترتيبه ونواميسه المميّزة. **فعلى الإنسان أن يحترم كل ذلك ويعترف بالأساليب الخاصّة لكلٍّ من العلوم والتقنيات**"[٢]

إذن يمكنك الآن أن تقول انطلاقاً من إعلان المجمع الفاتيكاني الثاني إنه تمت المصالحة بين العلم والدين، ولكنها مشروطة بـ"مصلحة" البشرية طبقاً لما يرى توماس،

---

١) حياة الله فرح دائم لا حدّ له...ولكن " الله محبّة" ولذلك شاء أن يوجد كائنات يقيم معها علاقة حب فيشركها بحياته وفرحه...فأوجد هكذا البشر ليكونوا أحباء له متمتعين بخيراته، مساهمين فى سعادته...هذا هو مجد الله، أن يحيا الإنسان ويسعد: "مجد الله هو حياة الإنسان" كما يقول القدّيس " إيروناوس". مدخل إلى العقيدة المسيحية. كوستلي بندلي. وآخرون.كتاب إلكتروني. إسلاميات دوت كوم.

٢) "فرح ورجاء، رقم ٣٦". العناية الإلهية. الأب ليون عبد الصمد.ص١٠

وهو هدف نبيل وشرط جدير بالتقدير، لأنّ من العلم ما فيه مضرّة للبشرية، كتصنيع الأسلحة النووية مثلاً، والحقيقة أن على الكنيسة أن تفخر به كمجدد ولاهوتي مستنير في عصر الظلام، لكن الأمر لم يبق كذلك بعد تقدم العلم وصولا إلى القرن التاسع عشر، الذي جاء بكثير من الأفكار التي تتصادم مباشرة مع الكتاب المقدس أو ما يسمّى بالحقائق الكونية فيه، لأنّ نتائج العلم قلبتها رأساً على عقب، وصار مصدراً للأذى والقلق عند اللاهوت، فلم يتوقف العلم عند ما يندرج تحت قَولة : "الله محبة" كما اعتقد توماس الذي كان يظن بالعلم ظناً حسناً ولم يدرك - بطبيعة الحال لأنه لا يعلم بالغيب - ما الذي سيؤول إليه أمر العلم الذي تمادى في حقّ اللاهوت إلى أن جاهر بالعداوة والبغضاء منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى القرن الواحد والعشرين، فما لبثنا نسمع بنظرية بعد أخرى مما يهدد أحياناً، أو لا يتفق مع كتبنا المقدسة ويتصادم معها.

بتلك النظرة المتبصرة والمتسامحة من جانب توماس تصالح مع العلم باسم اللاهوت إلى أن انتهى عصره وانقضى وميضه، وتوقفت الفلسفة الكَنَسّية عنده إلى اليوم، وفقد اللاهوت المسيحي طاقته على الإنتاج الفكري، فالآباء اليوم شرقاً وغرباً يرددون مقولاته وأفكاره إضافة إلى أفكار وليام بالي- وريث إكويناس- الذي أبلى بلاءً حسنا هو الآخر في اللاهوت.

في عالمنا الإسلامي يحاول المتخصصون في العلوم الدينية الإسلامية من عقيدة وفقه وتفسير وسيرة وحديث وإعجاز وتاريخ يحاولون جاهدين المصالحة مع العلوم على تفرعها واختلافها الصريح أحياناً مع ظاهر النص القرآني والحديث النبوي الشريف، وكثيراً ما نسمع بضرورة "تجديد" فهم النص، لأنه ثابت ومحفوظ، تكفل الله بحفظه كما هو، فلا يُزاد فيه ولا يُنقص منه.

فمادامت الحالة هذه، وفلا بد من التفكير في النص من جديد أو حول النص، فمعلوم لدى الجميع أن القرآن الكريم نزل على مجتمع عربي في فترة تاريخية محددة،

ولهذا المجتمع- كغيره- ميزات وثقافة وعادات يرضخ لها، ومعلوم أيضا أن المجتمع يتغير والعصر في حراك مستمر، لهذا بدأ كثير من أهل الاختصاص في العلوم الشرعية وبعض المفكرين بـ "قراءة" جديدة للنص الثابت وفقاً لما قد تغيّر عند الناس في هذا العصر، وهؤلاء والناس أجمعين يعرفون كما كان يعرف توماس أن الله يريد بهم خيراً، ولا مانع من النظر في النص المقدس من جديد، ولكن لذلك عند العلماء شروطاً، ولا يتم الأمر جزافا، ولا يُقبل تفسير القرآن من أيّ شخص، فـ"المجدد" يجب أن يكون عالماً حتى يستطيع نقل النص من الحالة التاريخية التي نراها في جموع تفاسير القرآن إلى واقع اليوم الجديد.

سأمرّ على هذه المحاولات وأحاول عرضها وتقديم نماذج من الجهود التي تبذل في ذلك، ثم نرى مدى صلاحيتها في تحقيق المنفعة للعباد. ولن يخلو الأمر من نقد بطبيعة الحال.

الفصل الثانـي

تقنيات سيميائية و"أسلوبية الفكر " في النزاع.

تقنيات سيميائية و"أسلوبية الفكر" في النزاع:

يتداخل هنا كل ما يمت للغة بصلة ببعضه بعضا، وكل ما يتصل باللغة هو في الواقع كل شيء، فطالما أن الإنسان لا يفكر إلا بلغة ، أو "إن اللغة تتحدث من خلالي" على قول شتراوس، ونحن نكتب ما نفكر فيه بلغة ، فهذا يعني أننا لا بد من أن نبدأ باللغة التي تنقل الفكر والاعتقاد والإحساس .... ولكن ما سأكون حذرا فيه هو أن لا أتحدث باللغة عن اللغة التي تعني الفكر. انصياعا لتوصية (فاينتيجن شتاين) للنقاد واللغويين، وسبب هذا الانصياع هو تحاشي الانزلاق في الفكر الدائري، أو التحليق في اللغة الميتافيزيقية؛ لأن الدائرة ستصبح مغلقة على الكاتب والقارئ معا، بمعنى أنك لا تستطيع تعريف كلمة معينة باستخدامها في نص تعريفك لها. لأن هذا التعريف سيحتاج منك إلى تعريفٍ آخر.

عندما أتحدث عن "التقنيات" اللغوية، والأسلوبية، ثم أضيف ذلك إلى "الفكر"، في هذه اللحظة لا بد من أن يدخل الأدب إلى هذه الساحة، لأنك تعلم أن هذه التقنيات والأسلوبية هي لعبة "التعبير" ، ولا ضير فهو شكل من أشكال اللغة مع كثير من القواعد الفنية التي تلزم هذه الأشكال حتى يطلق عليها اصطلاحات الفنون القولية كالقصيدة والقصة والخطبة وغيرها. ولا أُخفي عليك أنني أهدف إلى كسر الجدار الفاصل بين الأدب كإنتاج فني لا تتعدى قيمته متعة القراءة والنقد والإحساس الوجداني، من جهة ، وبين اعتباره مكوّناً هامشياً من مكونات الفكر، ولو أردت أن أكون أكثر مقاربة إلى فهمي فإني أقول إنما هو نتيجة عَرَضِيّة من نتائج الفكر الملموسة، ليس صانعاً للفكر ولا مشاركاً في صناعته كما يتصور الكثيرون، وهذا ليس حطّاً من قيمة الأدب، لكنني أزعم أن هذا هو مكانه الصحيح، لأن أهل الاحتراف فيه –كما يفعل غيرهم- يضخّمون حقل احترافهم حتى يكاد يصبح مهنة، وإذا اعترضتَ على ذلك كونك ناقداً متخصصاً مثلاً أو شاعراً مفوّهاً أن خطيباً بارعا، فإن لاعتراضك على هذه المقولة وجهَ حقّ، لأنها غير مبرهنة من

جهتي أو غير مقنعة ، وبرهانها أبسط مما تتصور، فما عليك إلا أن تنظر إلى الأدب من خارجه على أنه نص أعني لغة، وانظر إلى الغرض منه، وانظر إلى موقع الإنسان عامةً منه أيضاً، فسوف يتضح لك أن الإنسان في الدراسات النقدية واللسانية عموماً يُنظر إليه على أنه مستهلك للأدب أو منتج له فقط.

والحقيقة الواقعة ليست كذلك، فالإنسان ليس مُنتجاً للأدب أو متلقياً ناقداً له وحسب، فالأدب كما تعرف ومعه نقده لا يحقق للإنسان شيئاً ضرورياً، هذا الذي يتحقق جراء الأدب ونقده لا يتعدى حاجةً عارضة على أحوال الإنسان، فلا شك في أن له حاجاته الملحّة التي تقوم عليها حياته، وفقدانه هذه الحاجات وحرمانه منها يسبب ما يسمّى بـ"التجربة" التي بدورها تنتج الأدب/ النص، وعليه فالأدب/النص هو نتيجة معاناة (فقدان، حرمان)، وتعبير فني عن حاجة، إذن فالأدب تعبير وتوصيف فني خاص للمعاناة، ولو كان غير ذلك لما قرأت بيتا من الشعر عن الانتفاضة في فلسطين، لأن الإنسان فقد الأمن ووقع عليه ظلم، ولولا الحاجة لما سمعنا شعراً في مدح الخلفاء، ولولا هذه الحاجة أيضاً لما قرأنا قصة تشكو ألم الفراق بين عاشقين، ولولا الشعور بالذنب لما وجدت خطيباً يحذر الناس من عذاب القبر ، ودراسة ذلك كله بالنقد هي دراسة مُمَنهجة لمشكلة الإنسان المعيشية وتنظير فيها، وليس حلا لها أو بحثا عن مخرج منها.

والنقد بمنظورٍ شاملٍ له يدور بالإنسان في ثلاثة أفلاك لا غير؛ التأويل والرمزية و الظاهرية، وتستطيع من هذه المحاور الكبرى اشتقاق المناهج التي رأيناها عند السيميائيين كـ"المحايثة" و"التاويل" و"المعنى"، مع بقاء الحَيرة التي رسّختها سيمياء النص من حيث: أين نضع مؤلف النص عند قراءته؟ هل نبقيه حياً أم نرسله إلى الفناء؟(فيما يعرف بموت المؤلف)، فالمحايثة منهج قراءة يقوم بالحجر على النص وعزله. والتأويل يقحم كل ما يمكن أن يخطر للقارئ على بال في قراءة النص.

و"المعنى"، و"معنى المعنى" كذلك دراسة نحوية دلالية في نصٍّ ما، لا تبتعد كثيرا في منتجها عن النقد الفني الخالص للنص، وتقع في إشكالية جدلية ليست بالهيّنة وهي إشكالية التفريق بين المعنى من ناحية والدلالة من ناحية أخرى ، ومَن هو أصل الآخر؟ من هنا أستطيع أن أقول أيضا إن مناهج النقد صارت تخلق مشاكل من نوع جدلي، إضافة إلى المشاكل التي تعاني منها من ناحية منطقية، وهذا كتفسير أو نقد للنصوص لا يعني

شيئا سوى ترتيب الكلام على حسب قواعد اللغة من منظور ذوقي أو نفسي أو ثقافي أو اجتماعي ...أنا أسوق هذا الكلام هنا عن الأدب كي أوضح العلاقة الكامنة في ذهن الناقد التي نمت نموا سوياً أو غير سوي في ثقافته، وشكلت في عقله نوعا من الفكر المزدوج الخادع ، أو المزدوج الانتقائي، أو المفرد الضيق؛ لأنه قبل أن يصبح ناقداً للفنون القولية- في عالمنا العربي الإسلامي- كان قد تخرج من مدرسة اللاهوت التي شحنته بجرعات غير عادية من الثقافة التي صارت "ثقافةً" بعد أن اختلطت فيها مناهج النظر، دون معرفة الأسس الذهنية لكل منها، خذ مثلا السؤال الآتي: مِن أي وجه يفترق الإغراق في النص الأدبي عن الإغراق في الفقه حتى صار لدينا أربعة مذاهب فقهية (الحنفي- الشافعي- المالكي- الحنبلي)، دع عنك مذاهب الشيعة المتعددة هي الأخرى، والعاقل يعرف أن الرسول صلوات الله عليه جاء بمذهب واحد، فمن أين جاءت هذه الأربعة أو العشرة؟ ثم من أي وجه تفترق الأساطير عن روايات كعب الأحبار وتلك المنسوبة لابن عباس التي تملأ كتب التفسير؟ ورواياتهما لا يمكن أن يصدّقها عاقل، وهي في تصنيفي الشخصي نتائج متحصّلة من النظر النقدي المشوّه للنص بتداخل غير مبرر للذوق الشخصي والفهم المنطقي، والاستعانة بمصادر شتى كالتوراة وغيرها، ومناهج دراسة النصوص المختلطة ببعضها، ولا مشكلة إذا عرفنا ذلك على حقيقته، ولكن المشكلة الكبرى إذا كان مثل هذا التراكم الميتافيزيقي مؤسِّساً رئيسياً لفكرنا اللاهوتي في حقل نقد النصي الديني وفهمه، ثم إدخاله هذا الفهم المختلط في صميم الدين لا سيما أن كثيراً من الأشخاص الذين ترد على ألسنتهم الروايات يتمتعون بهيبة كبيرة.

ولا يفترق اللاهوت المسيحي عن غيره في ذلك، وستنظر في أقوال لاهوتي- لاهوتي، وآخر لاهوتي فيزيائي –فيما سيأتي لاحقا- لترى الأساس الفكري الذي ينطلق منه كل فكر لاهوتي فيما بين قطبي الكرة الأرضية.

ولعل خير فائدة نجنيها من الانفكاك من عقدة الأشكال اللغوية، وتحليلها مرة، وتركيبها أخرى، بالمناهج النقدية أو اللغوية أو بهما معاً، هي معرفة مكمن المشكلة في التفكير غير المنتج، الذي يعيش الحاضر بروح الماضي المثالي المفترض، فكما يسعى لاهوتنا بكل ما أوتي من قوة إلى الانفكاك من "التاريخانية **Historicisme**"، فإن الأمر نفسه يحدث على صعيد اللغة، تماماً كما يحدث من محاولات للتحرر من التاريخانية على

الصعيد اللاهوتي، فإن اللغة ليست مكتفية بذاتها لتفسير النص المقدس أو نقد النص الأدبي، لذلك فإننا نسعى إلى تغيير التركيبة الفكرية في عقل إنساننا المسلم من خلال اللغة التي لا شك في أنها ليست مقصورة على مفهوم التواصل عند سوسير، أو عند السيميائيين الباريسيين. إذ نتعدى - من خلال فهمنا لأسباب النزاع اللاهوتي والعلمي، ومناطقه، وأسسه- ما يطلق عليه "جلد الذات" إلى المصالحة مع الذات، بانسجام فكرها مع نفسه ، وذلك بتحويل فكرة **"معنى المعنى"** إلى فكرة **"تفعيل المعنى"**، أي أن نجعل للمعنى قيمةً أكبر في الفكر لا في الوجدان، ثم نطرح الجدل الفلسفي جانباً، ونتوجه إلى الفكر السليم والمستقم، ولربما نحن في هذه البلاد (العربية والإسلامية) أحوج إلى الانتفاع بالنص - المقدس والنص الأدبي- ومناهج قراءته كل منهما (النقد والتحليل وأدواتهما ومناهجهما، ومن ضمنها تحليل الخطاب، ومناهج التفسير مع أن مصطلح "التفسير" يجرّنا إلى فلسفة التاريخ) ، في تحقيق تنمية فكرية، نأمل أن يُفضي تراكمها إلى تحقيق تغيّر جذري في الحراك الفكري الاجتماعي، وهذا بدوره يفضي إلى تكريس الحرية في بلاد تعاني الحرية فيها من قيود شتى.

ولا أعتقد شخصياً أنّ لِلّغةِ - مُمثلة بالنصوص المقدسة والنصوص الأدبية- ومعالجتها منهجياً قيمةً إنْ لم تحقق هذه التنميةَ التي تُغيّر من سلوك الإنسان على الأرض بشكلٍ مستمرٍ استمرارَ الزمن، متواصلٍ تواصلَ المكان.

فإن كانت البحوث الأكاديمية واللاهوتية حبيسة دوائر التنظير الذي يعالج الاصطلاحات كمُسلّمات لا تقبل النقاش فإن هذه الجهود عديمة القيمة على مستوى التنمية الفكرية، فالأمر لا يعدو تعدد زوايا النظر إلى قضية ما، أو تكرار تفسير الظاهرة من نص لنجد نصاً آخر يعيد تفسيرها أو يجدده داخل إطار تفسير النص الأول لها، خذ مثلاً على ذلك مفهوم الخير والشر، وتفسيره في اللاهوت المسيحي، وتفسيره في اللاهوت الإسلامي، والنور والظلمة في "التاو" الصينية، ستجد نفسك تقرأ الأفكار نفسها، ولكن قد تجد اختلافاً في الألفاظ والاصطلاحات فقط. وعلى صعيد الدراسة اللغوية فإن سوسير مثلا عدّ اللسانيات جزءً من السيميائية في حين عَكَسَ هذا التصور رولان بارت، إذ عد السيميائية جزءً من اللسانيات، وقس على ذلك في قضايا لا حصر لها، لا تفيدنا إلا العلم

بنظرة (س) من العلماء والخلاف بينه وبين نظرة (ص). إذن نحن في الأدب وفي الفلسفة وفي اللاهوت ما زالنا داخل صندوق (ديبونو).

فإذا تحول الأمر إلى جمع للمعلومات وتبويب لها، فدعني أبشرك بشارة سوء؛ هي أن القرص الصلب The Hard Disk في الكمبيوتر أفضل منك؛ لأنه أقدر من دماغك على جمع المعلومات، والاحتفاظ بها سنين عديدة قد تمتد إلى أكثر من عمر أفضل دماغ بشري.

والسؤال الذي لا بد أن أطرحه هنا: ماذا بعد التنظير والتحليل والتفكيك والتركيب بشتى الوسائل والأدوات والمناهج التي توصّل إليها فلاسفة النص، دعني أردد هنا مقولة البيولوجي البريطاني دوكنز: إن الكلمات خَدَمٌ لنا وليست ساداتنا.

ولعل الدراسات اللغوية، وتحليل النصوص بأدواته ومناهجه المختلفة الراهنة، تعزز هذا التوجه اللاعقلاني، لأنها نوع من الممارسة العقلية/التفكيرية الماورائية - أقول هذا وأشعر بدافع قوي يدفعني لأن أسوق شيئاً مما قاله (فايتجن شتاين) في اللغة الطبيعية واللغة الميتافيزيقية إلا أن لقوله موقعاً أنفع سيأتي عند الحديث عن إعجاز القرآن- واللغة عامة، ابتداءً من معالجة النص الجاهلي بالبحث في رمزيّته، وتفسيره بالمنهج الأسطوي مرة، وبالنفسي مرة أخرى وهكذا[1]، مروراً بالأعصار وتقسيمها على أساس تطور الفنون القولية فيها، إلى العبث الدلالي بألفاظ القران الكريم كي تتوافق وما يُسمى "بالإعجاز العلمي"- ويحتاج العابث بطبيعة الحال إلى أدوات لغوية وغير لغوية لاختراع دلالات عصرية جديدة لموافقة المُعطى العلمي الطبيعي، الذي انبنت عليه الحضارة الغربية كحضارة مُنتجة. (دع عنك الانحلال الأخلاقي في الغرب الذي نسمع عنه في الخطابات لتبشيع صورة القوم).

---

١) وإني لأعجب كيف للأعرابي الذي يعيش ظروفا غاية في القحط تدفع به الحاجة إلى قتل مجموعة من الرجال من أجل أن يحصل على شاة أو بعير أو سبية يقضي فيها مآربه الشتى، كيف لهذا أن يطّلع على الأساطير ويفهمها ، أو كيف يتم تحويل مقالاته الشعرية الفخرية وما سمي بشعر.(أيام العرب) الدموية إلى رموز ذات بعد أكثر من المسافة الفاصلة بين القطبين.

ومثل ذلك انشغال نقادنا العرب بفك شيفرة أدونيس وألغاز شعراء العصر، وعلى منوال ذلك الاختلاف في تمثّلات الشخصيات القصصية أو الروائية أو الشعرية وغير ذلك ورمزيتها...إلى آخر هذه الفنون ونقودها، وهذه الممارسة لا تختلف كثيراً أو قليلاً عن انشغال المفسرين والفقهاء بعصا موسى، ومن أي شجرة هي، ومآربه فيها[1]. وإذا كانت مثل هذه الممارسات تقوم في الغرب على قدم وساق فلهم ذلك؛ لأن حاجات الإنسان الأساسية متوفرة، وفي متناوله، فحُقَّ لهم أن يُغرِقوا في "ترف" النص ومعالجاته المختلفة، بخلاف واقع حياة الإنسان في بلادنا.

يقوم النظر في مناطق النزاع الجديدة على أن النزاع نفسه اختبار للفكر، ومدى صموده أمام الأسئلة التي تصدمه من حين لآخر، وغريمه طبعاً العلم، فالنزاع وسيط إدراكي بين الحقيقة العلمية والحقيقة المطلقة في فكر اللاهوتيين.

سأمثل لك فيما يأتي بمثال أناقش فيه اتجاه الفكر اللاهوتي مقابل العلمي في كتاب "الانتخاب الطبيعي" أو **"صانع الساعات الأعمى"** (وهو عنوان آخر للكتاب نفسه) للدكتور ريدشارد دوكنز، وبين الفكرة الكامنة وراء الحقيقة العلمية التي يسعى المؤلف من ورائها إلى إقناع القارئ بوجهة نظره وهي دور الانتخاب الطبيعي في تكوين الكائنات الحية، وهو كتاب مُؤلَّف باللغة الإنجليزية، ومترجم إلى العربية. وسآتيك بعد ذلك بفيزيائيين متناقضين، وعدد من علماء المسلمين في عصرنا، ثم أعرض وجهات نظرهم فيما يحدث للإنسان، وفيما يُحدِثونه هم أنفسُهم في فكر الإنسان، من مؤلفاتهم ومحاضراتهم ومقالاتهم.
وقد قرّ في نفسي أن أسوق عدداً من النصوص اقتباساً حرفياً حتى لا يكون الحكم منطلقاً من فهمي وحدي لهذه النصوص، بل أدع مجالاً لك لعلك ترى فيها غير ما أرى، وتفهم أكثر مما أفهم منها، ومن أجل الاستزادة والتدقيق فالمراجع مذكورة جرياً على العادة في التأليف من أجل الرجوع إليها .

---

١) اقرأ مثلا : قصص الأنبياء المسمّى بعرائس المجالس: لأبي إسحق الثعلبي. دار المنار، القاهرة، ص١٩٠ وما بعدها.

ولو قُدِّر لنا فتح الباب أمام هذا النوع من الدراسة أي بفهم لغة الإنساني وجدانياً وفهم لغة العلمي علمياً فإنني على يقين أن كثيراً من قناعاتنا سوف تتغير إلى الأفضل، وننحو بالمجتمع من إنتاج الأسطورة اللاهوتية، وإعادة إنتاجها وتحديث مضمونها الخرافي من حين إلى آخر، إلى الانشغال بما ينفع الناس في معيشتهم.

وللتمثيل على الفارق الفكري الذي يظهر أيضا في المعالجة اللغوية للمسائل أمثل لك باصطلاحين فقط تعامل معهما اللاهوت وتعامل معهما علم البيولوجيا، وسآخذهما عند البيولوجي رتشارد دوكنز في كتاب "صانع الساعات الأعمى"، استمراراً للبحث الذي أشرت إليه قبل قليل.

لاحظ أن المفارقة تبدأ باسم الكتاب ، فعند سماعك بعبارة: صانع الساعات الأعمى، يتمالكك الضحك، وقد تظن أن من قال هذا الكلام قد هرب من مشفى للمجانين، ولكن لن يخطر ببالك كيف هرب هذا المجنون من مشفى المجانين؟ ألا يملك نوعاً من الذكاء الذي أهّله للهروب من أعين الحرّاس؟! لا شك؛ فإنه يجب إن ظننت الظن الأول أن تظن الظن الثاني إذا كنت من أصحاب الفكر المستقيم.

أما عن "عماء" صانع الساعات فهو أعجوبة بلا شك، كيف يكون صانع الساعات أعمى ... هذا مستحيل.!!

لكن اللغز ينفك أمام خواطرك التي ستذهب بك كل مذهب عندما تعلم أن صانع الساعات كان ردّاً على وليام بالي اللاهوتي العتيد الذي أخذ ما توصل إليه الفرنسي لابلاس في الفلك وتوصل منه إلى مقولات تدعم لاهوتيته خاصه به، ودمغها بخاتم : "صُنع في السماء". من قبل ما سماه بالي "المهندس الأعظم" ويقصد به "الله" عز وجل. لأن الكون تحول إلى ساعة في شدة الانتظام والدقة والهندسة المهيبة، كبرهان عملاني على فلسفة توماس إكويناس.

أما العماء فهو قادم من "عشوائية الطبيعة" ، وهو الانتخاب الطبيعي الذي لا غرض له في الطبيعة، إلا أن له مع ذلك دورا عظيما في تشكيل الكائنات، فصار الأمر بين الهندسة والعشوائية، إلا أن من يعرف دوكنز سيفهم ما يقول ، فالرجل تطوري ملتزم بحرفية الانتخاب الطبيعي إلى حد أنه صار عنده عقيدة.

"الصُّوْرَة - الهندسة الإلهيّة":

تقرأ في الكتاب المقدس ما يلي : (وقال الله :" لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا، وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع وحوش الأرض وكل ما يدب على الأرض" ، فخلق الإنسان على صورته، على صورة الله خلق البشر.)[1]

وجاء في القرآن الكريم :

(وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات)[2]، وقال الله أيضا :(وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير)[3] وقال الله تعالى في موطن آخر من القرآن الكريم: (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)[4]، وفي آية أخرى: (وهو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء)[5] ، وفي آية أخرى (في أي صورة ما شاء ركّبك)[6]. ومن أسماء الله تعالى : المصور إذ يقول الله تعالى: (هو الله الخالق البارئ المصور)[7].

---

١) سفر التكوين ١- ٢.

٢) (غافر: ٦٤)

٣) (التغابن:٣) لم يفرق ابن كثير في تفسيره بين مفهومي :"المصور" و"الخالق" ، فقال في تفسير هذه الآية قولاً مقتضبا: "أي أحسن أشكالكم". تفسير القرآن العظيم. ابن كثير ، دار الجيل- بيروت ، ج٤ ، ص ٣٧٤ .

٤) (الأعراف : ١١)

٥) (آل عمران : ٦) وقال ابن كثير أيضا في هذه الآية : " أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى وحسن وقبيح وسعيد وشقي". تفسير القرآن العظيم. ج٢، ص ٣٢٥ . ويقول محمد متولي الشعراوي في هذه الآية: " والتصوير في الرحم هو إيجاد المادة التي سيوجد منها الإنسان على هيئة خاصة، هذه الهيئة تختلف نوعيتها ذكورة وأنوثة، والذكورة والأنوثة تختلف أشكالاً". تفسير الشعراوي ج٢ ..... ، ولكن يبدو تفسير الشعراوي غير دقيق أبدا ذلك أن المادة التي يوجد منها الإنسان موجودة أصلا في ماء الرجل وبيوضة الأنثى عندما تتحدان لتشكيل (الزايجوت) الذي يحمل الصفات الموروثة من الأب والأم وليس الله هو الذي يتدخل في إخراج الأنسان على هيئة خاصة كما ذكر، فالتصوير هنا لا يفهم منه عملية إيجاد لهذه المادة، ولو قال إن الله سبحانه يخلق الإنسان في الرحم بشكل وأوصفات فيزيائية وسيكولوجية محددة بصفات موروثة لكان أدق بمرات عديدة.

٦) (الانفطار: ٨)

٧) (الحشر: ٢٤)

لقد ذهب أفلاطون (٤٢٧- ٣٤٧ ق. م) ومن بعده أرسطو[١] إلى أن الكون بدأ بطريقة "الصور الكامنة"[٢] في "عقل" مهندس الكون/الإله، أو "أشكال" عامة أراد بها أن تكون معادلا موضوعيا (للصورة)[٣]، وهذا يعني أن الكون كان في وقت ما مُهَنْدَساً جاهزاً في ذات الخالق - لا خارجه - على هيئة أشكال/ "صور"، حيث كان هذا الإله المهندس لازم الوجود في هذا الفكر الفلسفي، الذي اتخذ طابعا دينيا وفلسفيا[٤] من ناحية،

---

١) انظر بتفصيل أكثر حول فكرة"الصورة" عند أرسطو من حيث ثباتها في المجرد الذهني و " نموها في الجوهر" في حال وجودها وتحققها الفعلي. كتاب "جوامع الكون والفساد"، ابن رشد. تحقيق د. أبو الوفا التفتازاني و أ. سعيد زايد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١،ص ١٢- ١٣ .

٢) يقول بول ديفز معلّقاً على النظرة الأفلاطونية: " ولكن هذه المحاولة الساذجة لإيجاد وفاق بين المتغيّير وغير المتغيّر والكامل وغير الكامل لا يخدم إلا في تأكيد خطورة التناقض الفكري الذي يعتري كل تفسيرات الجوازية" .ص ١٩١ .

أقول: وسذاجة فكرة أفلاطون متأتية من انعدام قدرتها على تفسير كيفية تصوير وصناعة كون كان له أشكال لانهائية ممكن أن يكون عليها، فلماذا فرض علينا هذه الطبيعة التي تقوم على مبدأ اختيار الإله لها دون غيرها من الهيئات الممكنة، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن سذاجة الفكرة تؤكد وجود الإله في حيّز زماني كأنه لا قدرة لهذا الإله التحكم فيه وهو يقع داخله بالفعل، فهو محكوم به كغيره من"جوازيات الكون" المتغيرة فكيف تكون له صفة الديمومة والكمال الذي يغنيه عن خلق الكون بعد تصويريه في ذهنه؟! وهو متأثر بحركة الزمن. ولكن للأسف استمرت فكرة أفلاطون حتى شكلت قاعدة انطلقت منها المذاهب الفلسفية بعده واللاهوتية بشكل خاص، إلا أن اللاهوتية تخلصت من ورطة "الزمن" بأن جعلت الإله يسكن خارجه في ما يعرف بالأزلية أوالسرمدية. أما لماذا شكل الكون على هذه الهيئة المحسوسة من تعداد لا نهائي من الهيئات فالجواب عندهم أن ذلك تم بحكمة لا يعلمها إلا الله أو الإله أو الآلهة وحدها عند أصحاب فكرة تعدد الآلهة. و"الخوض فيها ضرب من الضلال والإضلال"، انظر تفسير الشعراوي ، قطاع المعرفة، مصر ،المجلد٧ ص ٤٠٥٧ وما بعدها. وجاء في كتاب "أفلاطون" . آر فالترز ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون. كتب دائرة المعارف الإسلامية . دار الكتاب اللبناني – بيروت. ص ٢٨. : ""والعقل والحس وأطلق المتصوفة على هذين العالمين أسماء مختلفة، فالفارابي على وجه خاص يسميها عالم الخلق وعالم الأمر. وترد أمثل أفلاطون في الفلسفة العربية بـ"الصورة" أو " أو "المعقول: "المثال".

٣) انظر : كتاب "أفلاطون". ديف روبنسوت و جودي جروفز. ترجمة : إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١، ص ٦٣ وما بعدها.

٤) يقول فراس السواح في علاقة الأسطورة بالدين.:" هي مكوِّن أساسي من مكوِّنات الدين. فإن أردتُ أن أحلِّل الدين إلى مكوِّناته الرئيسية لقلتُ إنه يتكون من معتقد، ومن أسطورة، ومن طقس. فإذا غاب أحد هذه العناصر الثلاثة صرنا في شك: هل هذه الظاهرة التي ندرسها هي دين أم لا؟ يعني: لا يوجد دين من دون معتقد؛ دين من دون أسطورة يوجد أحيانًا؛ دين من دون طقس يستحيل أن يوجد: لا يوجد دين من دون طقس، وإلا تحوَّل من دين إلى فلسفة." نص من حوار تلفزيوني أجري مع فراس السواح، موثّق كتابةً في عشرين صفحة، والاقتباس السابق من ص٤. عنوان الحوار :"الأسطورة مكون أساسي من مكونات الدين". ملف هذا الحوار مأخوذ من موقع على الإنترنت وهو : WWW.4SHARED.COM . واقرأ أيضا كلامه عن نشأة المسيحية واليهودية والبوذية وتأثير البيئات الثقافية في نشوء هذه الأديان وغيرها في ص٥ وما بعدها. ولكن السواح هنا

وكان أيضا لازم الوجود كنقطة بداية لفرضية الفلسفة التي تبحث عن طريقة لإثبات صحة هذه الفرضية التي ولّدتها منطقية العقل البشري من ناحية أخرى، وهي ما سُمّي بـ" البحث عن الحقيقة"، التي عدّ اللاهوت فيما بعد نتائجها الفلسفية (وجود مهندس للكون) مُسلّمات، فتجاوز البحث فيها، وصار اللاهوت يبحث في ماهية الخالق نفسه وصفاته بعد أن استقر وجوده - المثبت فلسفيا استدلاليا وغير المثبت ماديا- في أصول اللاهوت ، ثم تمثلت هذه الصور في الكون المألوف، وتجسدت كما نراها ونعهدها بما لدينا من قوى مرتبطة مباشرة بالقنوات الحسية الموصلة إلى الدماغ.

أما الطريقة التي يُخرج فيها الخالق الصور من عالم الهندسة المرسومة بتصميم كامن مُعدّ إلى واقع الوجود فإننا نرى أن التوراة قد صرحت بأن ذلك لم يَعْدُ حدود "الإرادة الإلهية" اللفظية "اللغوية"، التي لا يمكن تفسير سبب اختيار هذه الإرادة الإلهية زمنا ما لنقل المصممات من حالة الكمون الذهني المجرد إلى حيزّ كوني مادي- اتسع لها ويتسع لغيرها- في الزمن الذي ظهرت فيه بالفعل، أي لماذا اختار الخالق[1] هذا الزمن دون غيره ليطلق الخليقة من قيد الصورة إلى فعلية الوجود ذي الأبعاد الثلاثية؟ سؤال يبقى البحث فيه إحدى معضلات الفلسفة والعلم واللاهوت جميعا، وسبب دهشة لا تتوقف. أم هل كان الزمن(البعد الكوني الرابع) أحد هذه الصور التي أخذت شكلاً متميزاً عن غيرها لا يمكن إدراك ماهيتها، لكن يُستطاع الإحساسُ بها فطرياً أو قياسها آلياً كصورة نحسّ بها ولا نعرف كُنْهَها؟ أم "خُلق" الزمن قبل تحقيق الكوامن الصُّوَرية الذهنية ليكون وعاءً لها أو "ظرفا"؟ وهي أسئلة موجّهة للفكر اللاهوتي لتفسيرها، لأن

=

يعمم فكرته على جميع الأديان في حين أن لدينا في الإسلام ما ينقض كلامه ويبرّئ مصادر الإسلام:القرآن الكريم والسنة النبوية من دخول الأساطير إليها.

تسربت الفلسفة الأفلاطونية إلى الفلسفة الإسلامية وتأثرت بها أيما تأثير، انظر "جمهورية أفلاطون" : أميرة حلمي مطر- القراءة للجميع، مكتبة الأسرة ١٩٩٤ . إذ تقول في ص ١١ - ١٢ ، "وفي العالم الإسلامي عرف الفارابي جمهورية أفلاطون وتأثر بها في مدينته الفاضلة ، كما تأثر بها القديس أوغسطين في مدينة "الله".

١) كلمة "خالق" هنا تعني مصمم لصور ذهنية كامنة ومحقق لها في الكون ككينونة ذات صفات فيزيائية يمكن قياسها. أي بدمج المشروع الهندسي الكامن بالمشروع الوجودي الفعلي.

علم الفيزياء توصل إلى شيء ما في هذه المسألة. سَمِّها فرضيات أو نظريات أو ما شئت. سنأتي على ذكر ذلك في حينه.

أقول: الطريقة تتلخص في التوراة والقرآن الكريم أيضاً بأفعال الأمر الموجهة لهذه الأشياء غير العاقلة التي مُنحت وعياً لغوياً لتفهم الأمر الإلهي الذي يخاطبها بلغة ما (فعل أمر، أو مضارع اتصلت به لام الأمر) ثم نُزع منها هذا الوعي عندما تحققت كينونتها، إذ تنسب التوراة والقرآن الكريم أيضا إلى الله فعل (القول) مخاطبا تلك الأشياء غير العاقلة والعاقلة على حدّ سواء: "وقال الله..."، فنقرأ مثلا في التوراة:

((**وقال الله**: لتفض المياه خلائق حية، ولتطر طيور فوق الأرض على وجه السماء"، فخلق الله الحيتان الضخمة وكل ما دب من أصناف الخلائق الحية التي فاضت بها المياه، وكل طائر مجنح من كل صنف. ورأى الله أن هذا حسن وباركها **الله قال** : إنمي وأكثري واملإي المياه في البحار ولتكثر الطيور على الأرض. وكان مساء وكان صباح: يومٌ خامس.)[1] : لتفض ، لتطر ، إنمي ، وأكثري، واملإي ....

ويأتي مثيل ذلك في القرآن الكريم بتعبير أكثر صراحة عن "الكينونة" في قوله تعالى: (خلقه من تراب ثم **قال له كن فيكون**)[2] ، وفي موطن آخر يقول تعالى: (إذا قضى أمراً فإنما **يقول له كن فيكون**)[3]، ويقتضي الضمير المتصل (الهاء) في قوله (له) وجود مسبق للمخاطب كي يستجيب للأمر، فإن الإله يخرج الأشياء الموجودة في الكينونة الذهنية ("المشيئة /الإرداة" من وجهة نظر إسلامية) عن طريق أمر مباشر لها، سواء كانت عاقلة أوغير عاقلة ، ذلك أنها أشياء أو مخلوقات مقرر وجودها الصوري (الشكلاني) مسبقاً في "العقل"/الإله[4].

---

١) سفر التكوين، الخليقة ، ١ .

٢) (آل عمران :٥٩)

٣) (آل عمران : ٤٧).

٤) والتعبير باستخدام كلمة "الصورة الكامنة" أو "الشكلانية" يأتي من زاوية النظر إلى الهيئة العامة لا إلى " التركيب" أي تعقيد الكون أو الماهية، وحكمه في نظام هندسي مؤسس من مجموعة عناصر تشكل نظاما صارما محكوما - بالنظر اللاهوتي- بالإرادة الإلهية، في حين أنه محكوم- طبيعيا- بقوانين الفيزياء الكامنة في المادة نفسها . ويسلم ابن سينا بمبدأ "البداية والبادئ" ، ويجعل العلم في المنطق وهو أقرب ما يكون إلى منطق أرسطو(التسلسل في الإدراك) إذ يقول في "النجاة في المنطق والإلهيّات": "كل معرفة وعلم فإما

لقد ظلت "الصورة" تتردد في تلك المعتقدات ، وهي التي حلت في نظر الإنسان آنذاك بعض الألغاز التي دارت في ذهنه عندما امتلك الوعي لطرح مثل هذه التساؤلات، كأن يسأل: من الذي خلقنا؟ وكيف؟ لماذا خلقنا؟ ولِمَ جُعلت الأشياء والمخلوقات على هذه الهيئة التي نراها عليها إلخ- وتم ذلك فيما نعرف بما فُتح على أفلاطون كمفكر كوسمولوجي من استقراء للأساطير التي انتشرت حوله في الحضارت القديمة [١]، وحاول مغامرا الإجابة عنها[٢] بفلسفة الصورة الهندسية المصممة في ذهن الخالق أو في الخالق نفسه- واتخذ الإنسان من تعاليم المفكرين الفلاسفة في وقتهم الإجابات عليها مع أنها قدمت إجابات ذات طابع ميتافيزيقي محض، إذ كان العقل الإنساني قابلا ومولدا للأفكار الأسطورية الميتافيزيقية نتيجة جهله بحقيقة الطبيعة والكون، وهو ما

=

تصور، وإما تصديق، والتصور هو العلم الأول ويكتسب بالحد وما يجري مجراه مثل تصورنا ماهية الإنسان، والتصديق إنما يكتسب بالقياس أو ما يجرى مجراه (ربما يريد العلم التجريبي- الباحث) مثل تصديقنا بأن للكل مبدأ فالحد والقياس آلتان بهما تكتسب المعلومات التي تكون مجهولة فتصير معلومة بالرؤية وكل واحد منهما- منه ما هو حقيقي - ومنه ما هو دون الحقيقي ولكنه نافع منفعة ما بحسبه - ومنه ما هو باطل مشبه بالحقيقي، والفطرة الإنسانية في الأكثر غير كافية في التمييز بين هذه الأصناف ولولا ذلك لما وقع بين العقلاء اختلاف ولا وقع لواحد منهم في رأيه تناقض وكل واحد من القياس والحد فإنه معمول ومؤلف من معان معقولة بتأليف محدود فيكون لكل واحد منهما مادة منها أُلف وصورة بها يتم التأليف".ص٢. فهل يريد ابن سينا سبق المادة على التصوير أم وقع ذلك منه بلا قصد؟ وانظر تتمة الاقتباس وما بعد هذه الصفحة. واقرأ في الكتاب نفسه فصلا بعنوان "فصل في التصور والتصديق". ص٣٥ .

وانظر كيف ينقض أول كلام ابن سينا آخره عندما تحدث عن الطبيعة والقوى الموجودة في المادة بالقوة ثم تحول في نهاية الأمر إلى غائية الطبيعة وتصميمها في العلم الإلهي وهو خلط منهجي يبرر باستماتة دافاعه عن المنطق الذي يفرض على الموجودات وجود مسبق في "الهيولى"، ونحن نعلم أن "الهيولى" حل التفافي حول مادة الكون وطبيعتها الغامضة، إذ يقول ابن سينا في نهاية فصل بعنوان" فصل في المبادئ التي يتقلدها الطبيعي" :" وجميع الأشياء الطبيعية تنساق في الكون إلى غاية وخير وليس يكون شيء منها جزافاً ولا اتفاقاً إلا في الندرة بل لها ترتيب حكمي وليس فيها شيء معطل لا فائدة فيه وليس يكون عن المبدأ الأول المباين فيها فعل قسري ولا خلاف لما توجبه القوة الهيولية فيها منه إلا على سبيل التأدي والتولد - فهذه هي الأصول الموضوعة الكلية في علم الطبيعيين ويتكفل بتصحيح ما ينبغي أن يصحح منها العلم الآلهي. "النجاة في النطق والإلهيات". ص ٥٦ . . واقرأ أيضا ما قاله تحت فصل بعنوان "في الطبيعيات".ص ٥٩ .إذ يرجع إلى مفهوم وجود القوة (خواص المادة) فيها بالقوة. خلافا لما انتهى به في الفصل السابق إلى إقحام خواص المادة الفيزيائية فيها من خارجها.

١) يذهب باخنر في مقالته الخامسة إلى أن تمدن اليونان سبقه فكر فلسفي مادي لم ينتبه إليه أحد من الباحثين، هو تلك المادية التي وضعها بوذا أو "جوطامي" ابن ملك الهند (٦٠٠- ٥٤٣ ق.م)، وتقوم على الفضيلة، وهي دين بلا إله، ثم تلا ذلك على يد سكنجاه وجود "الطبيعة" و"النفس"..." اقرأ المزيد في ذلك في كتاب "فلسفة النشوء والارتقاء". شبيلي الشميل. دار مارون عبود، ١٨٨٤ . والمقالة الخامسة لباخنز مضمّنة في هذا الكتاب، ص ١٩٥- ٢١٨ .

٢) انظر : مغامرة العقل الأولى، فراس السواح. دار...، ط ، ص

أدّى إلى ظهور مفكرين وفلاسفة آخرين لاحقا لم يروا في فلسفة "الصورة الكامنة" حلاً اللغز، وكان على رأس هؤلاء أبيقورس وديمقريتس ومؤسس الرواقية زينون (٣٢٢ ق.م) . الذين فكروا بطريقة غاية في البساطة إذ عكسوا اتجاه الفكر السائد مئة وثمانين درجة تماما، إذ افترضوا وجود "المادة" قبل "الروح/ العقل/الإله".

وبذلك انعكست المفاهيم في حين تسنّى لفلسفتهم تقديم إجابات عن الأسئلة الكبرى بدت أكثر إقناعا لأنها كانت ألصق بالواقع الفيزيائي الملحوظ وأنأى عن الميتافيزيقا، ولم تستطع الاستدلالية ضحد مقولات المادية، واللافت للنظر أن الفلسفتين كانتا تنتهيان إلى طريق مسدود، وهو مفهوم "الأزلية"، حيث لامانع إذا كان عند الكوسمولوجيين الأوائل امتياز "الإله /العقل/ الروح" بالأزلية، لم يكن عند زينون ورفاقه الرواقيين مانع من نسبة الأولية "الأزلية" للمادة لا للروح، طالما أن المسألة مسألة ميتافيزيقية محضة، ولا يمكن تقديم دليل مادي على صدقية إحداهما، فتتساوى هنا الفلسفة التجريدية الاستدلالية والفلسفة المادية في الإجابة عن السؤال المتعلق في البداية الأولى، كذلك انتهت اللاهوتية - للمتبصر خَلْفا - والتي جاءت على شكل تعاليم سماوية إلى النقطة التي انتهت إليها الفلسفتان اللتان سبقتاها في وعي الإنسان فيما وصلنا من تاريخ مكتوب وموثق بيد الإنسان، إذ تشارك اللاهوتية الفلسفتين السابقتين بالنهاية الضبابية، وهي مفهوم "الأزلية" ، التي لا يملك أحدٌ لها شرحاً، أو فهماً واضحاً[1]، إلا أنها حالة من شلل في حركة الزمن النسبي والكوني المطلق، وهو ما يعني أن الإله خلق الزمن وهو يقع خارجه، وهو ما يفيد أن الزمن حبيسُ

---

١) يقع ابن سينا في تناقض يُعرف بـ"المنطق الدائري"، إذ يضرب مثالاً ينقض فكرته التي وضع مصنّفه من أجلها وبغائية مسبقة تناقض مبدأ البحث في كتابه المسمى" النجاة في المنطق الإلهيات"، حيث يقول : واعلم أن في الكائنات أموراً بعضها علل لبعض في الدور - فكذلك القياسات التي تكون منها تدور دوراً مثل إنه لم كانت السحابة فقيل لأنه كان بخار فقيل لم كان بخار فقيل لأن الأرض كانت ندية وفعل فيها الحر فقيل لم كانت الأرض ندية فقيل لأنه كان مطر .ثم قيل لم كان مطر فقيل لأنه كان سحاب فينتج من هذا أنه كان سحاب لأنه كان سحاب ومن أوساطه أنه كان سحاب وإن كان هناك وسائط أخرى ولكن لا فرق في البرهان الدوري بين أن يكون حد قد وقع مكرراً بلا واسطة بين طرفي تكراره - أوقع مكرراً بين طرفي تكراره وسائط ولكن المثال الذي أوردناه ليس في الحقيقة دوراً لأن السحاب الواقع حد أكبر والسحاب الواقع حداً أوسط ليس واحداً بالذات بل بالنوع وليس هذا مما يجعل القياس دوراً لأن الدوري هو أن يؤخذ الشيء في بيان نفسه لا أن يؤخذ مساويه في النوع في بيانه وهو غيره بالذات. ص٥١

إطارٍ له حدود كونية ينتهي عندها. وتبقى مثل هذه الأقوال سواء عند الاستدلالية التجريدية أو اللاهوتية مجرد كلمات لا تدل على مفهوم واضح[١]، ولا يستطيع الخيال الإنساني تصوّره، ربما لحكمة أرادها الخالق نفسه كما يتردد على ألسنة اللاهوتيين، أو أن العقل الإنساني قاصر عن فهمها[٢]. في حين يطلب رجال اللاهوت على اختلاف انتماءاتهم الدينية فهم "إطلاق" صفات الخالق، فهو مطلق القدرة والرحمة والعلم وغيرها، وهذا الإطلاق في الواقع هو تجاوز لحدود العقل الإنساني الذين يدرك الأشياء ضمن حدود نسبية معينة، ثم هو تجاوز أيضاً لمفهوم الزمن إذ إن "الأطلاق " يعني التحرر من قيد الزمن والنسبية الزمنية. وهنا تقع سيمياء الصورة في ارتباك بين المحدودية وللامحدودية من جهة، وتقع أيضا سيمياء" الأزلية" في ارتباك بين الفهم النسبي للعقل البشري ومطالبته بفهم معنى الإطلاق- رديف الأزلية من جهة الزمن- الذي يتخطى الحدود الإدراكية لأن العقل مصمم على هيئة ما ليفهم الأمور بنسبيةٍ مقارِنة، أو يدرك الأشياء بأضادها، ومن هذه النقطة تكتسب "الأزلية" سيرورتها السيميائية. ثم يقال إن مفهوم الإطلاق فوق قدرة العقل نفسه، بل ويطلب

---

١) يقع ابن سينا في المحظور من حيث أراد التاكيد عن سلامة المنطق التسلسي الأرسطي، فيقول في عبارة تحتمل أن يكون الإله ضربا من الحقيقة الواقعة واجبة التصديق، وتحتمل العبارة نفسها أن يكون ذلك الإله نوعا من الظن الذي تميل إليه النفس من هواها وليس بحقيقة، في حين أنه يريد تأكيد أن النجاة في الإلهيات على حد عنونة مصنّفه ، وذلك في قوله : "والمظنونات هي آراء يقع التصديق بها لا على الثبات بل يخطر إمكان نقيضها بالبال ولكن الذهن يكون إليها أميل. فإن لم يخطر إمكان نقيضها بالبال وكان إذا عرض نقيضه على الذهن لم يقبله الذهن، ولم يمكنه فليس بمظنون صرف بل هو معتقد، فإن قيل له مظنون فباشتراك الاسم وكأنه إنما يقال ذلك لمعتقد غير حق أو غير واجب الحقية وماكان من المعتقدات غير حق أو غير واجب القبول وكان لا يخطر نقيضه بالبال لكنه إذا تكلف اخطاره بالبال لم يجب حينئذ أن يحمد ويقبل وعاد شنعاً أو مشكوكاً فيه بحسب الشهرة فهو الذائع في البادي وبذلك ينفصل عن المظنون. النجاة في المنطق والإلهيات". ص ٣٧- ٣٨ .

٢) لقد شدد الغزالي النكير على المدارس الفلسفية جميعها في كتابه المعروف" تهافت الفلاسفة" لا سيما في مقدمة كتابه، وحاكم الفلسفات التي قال إنها أخذت صيتا قويا ورسوخا عند قليلي الأفهام نتجة صدورها عن أسماء لامعة مثل أفلاطون وأبيقراط وأرسطو وغيرهم، وقد حاكم الغزالي الفلسفات على منهاجها بالمنطق الإسلامي المحض الذي يسلم بوجود الخالق "اللّه" سبحانه، وشدد عليهم أنهم أنكروا الإيمان باللّه واليوم الآخر، وهو بطبيعة الحال منطق مغلوط بلا جدال لأنه يحكم من منطقه الذي هو أولى بالبرهنة عليه قبل أن يطبقه على المناهج الأخرى، وقد ردّ عليه ابن رشد(٥٩٥ هـ) في كتابه " تهافت التهافت"، وضحد مقولات الغزالي، وأنكر عليه اتجاهه لتجهيل الخاصة والعامة واستخدام الألفاظ التي تعد في باب السباب بدلا من مقارعة الحجج. انظر "تهافت التهافت" . ابن رشد.تحقيق د. سليمان دنيا، دار المعارف، الطبعة الأولى. ص ٢٣ وما بعدها.

منه التصديق بذلك بيقين تام[1]؟! هذه الإشكالية وقعت لأن اللاهوتيين حاولوا الخوض في الكونيات في حين أن القرآن الكريم مثلا يلخص هذه النقطة بالآية الكريمة التي تريحنا من الدخول في هذه المتاهة وهي قوله تعالى: ((هو الأول والآخر والظاهر والباطن)). ولو توقفنا عند حدود هذه الآية لأمكننا الإطمئنان إلى البداية الأولى دون الاعتراك مع العلم والانفجار العظيم وفلسفة الصورة التي جاءت بها الفلسفة.

وهذا مما يثير حالة من فوضى الفهم، الذي تذهب العامة إلى الخوف من الخوض فيه لأنه قد يُدخل المتحدث فيه في "الكفر" من حيث يدري أو لا يدري، وهكذا يقع المفكر المتبصر في ريبة تفقده الثقة في قدرته على الفهم إذا كان ذا ميل إيماني، وبالتالي يفقد الثقة فيما أوتي من قدرة عقلية، أو تؤدي به إلى الشك في هذه المفاهيم ومخترعيها، ولأي سبب تم ذلك؟

في هذه المسألة تحديداً تظهر لعبة اللغة ودلالاتها المباشرة أو الرمزية، ويتحول الجدال اللاهوتي الفلسفي إلى جدال في المصطلحات، ورموزيتها كالصورة والأزلية والسرمدية والقعل والروح والإله والخالق والعقل الفاعل والعقل الهيولي والمادة[2] والطبيعة واللزوم.... وهي دائرة مازال الفكر الإنساني على تطاول الأزمان وتقدمه في مجالات شتى غير قادر على تخطي محيطها الإسمنتي الصلب[3]. وهو ما جعل

---

١) ويُلحظ أن التوراة قد أضافت للإله حسّا إنسانياً وهو أنه يقف موقف الناقد مما يصنع (ورأى الله أن ذلك حسن) .

٢) يجعل ابن سينا مرد العلوم كلها إلى العلم الإلهي المطلق، ولا جدال عنده في اصطلاحات اللغة وفهم مدلولاتها أو سيمياء الطبيعة، ويقرر ذلك ناسبا إياه إلى " أن الآراء كلها اتفقت على ذلك". حيث يقول في "النجاة في المنطق والإلهيات" ،ص١١٢ ما نصه : "المقالة الأولى من آلهيات كتاب النجاة:

نريد أن نحصر جوامع العلم الآلهي فنقول إن كل واحد من علوم الطبيعيات وعلوم الرياضيات فإنما يفحص عن حال بعض الموجودات وكذلك سائر العلوم الجزئية وليس لشيء منها النظر في أحوال الموجود المطلق ولواحقه ومباديه فظاهر أن ههنا علماً باحثاً من أمر الموجود المطلق التي له بذاته ومباديه ولأن الآله تعالى على ما اتفقت عليه الآراء كلها ليس مبدأ لموجود معلول دون وجود معلول آخر بل هو مبدأ للوجود المعلول على الاطلاق فلا محالة أن العلم الآلهي هو هذا العلم فهذا العلم يبحث عن الموجود المطلق وينتهي في التفصيل إلى حيث تبتدئ منه سائر العلوم فيكون في هذا العلم بيان مبادئ سائر العلوم الجزئية".ص١١٢ .

٣) يذهب هنا ابن سينا إلى القول : "اشتراك العلوم في المسائل تارة يقع على ما قلناه وتارة يقع بين علم عال وبين علم سافل وكل واحد منهما يعطي برهان مثل أن يكون بعض العلل في العلم العالي مثل العلل المفارقة للأجسام الطبيعية، وبعضها في العلم السافل مثل العلل المقارنة لها كالهيولى والصورة فإذا أعطى البرهان من العلل المقارنة

الفلاسفة الكوسمولوجيين ومن جاء بعدهم في اليونان يفتحون باب البحث في اللغة على مصراعيه على أنه مخرج إدراكي لحقائق ما خلف هذا الجدار الصلب، وتحميل الألفاظ رمزية خاصة لعلها تمثل خلاصاً للعقل الذي يدور في مجال ضيق، وهو الجدار الذي يحول بين أسرار الإله وفهم الإنسان لها، فكان عدد من هؤلاء الفلاسفة لغويين إضافة إلى أنهم أصحاب مدارس فلسفية لا تقف عند حد الأرض بل تتعداها للبحث في ما فوق السماء.

ولا شك أنهم عندما بدؤوا البحوث اللغوية وظهرت مصطلحات النحو والتحليل الدلالي، كانوا متأثرين بفكرة الصورة الكامنة في الذهن ، هذه الصورة التي كانت تختلط في علم اللغة لديهم بـ"العقل" والـ"جسمية"، فهو مرتبط بالثنائية الفلسفية الأفلاطونية –وديكارت أيضا- في التفريق بين "العقل" المرادف لـ"الروح" وكلمة "النفس" تعني الاثنين معاً من جهة ، و"الجسمانية" أي الطبيعة المحسوسة من جهة أخرى، والعقل عندهم يختلف عن "المادة "، وهو جهاز النطق ومراكزه في الدماغ وآلية عمله في توليد اللغة ، فالعقل غير مادي- في الأفلاطونية و المسيحية[1]- ولكن الأمر كان مختلفا تماما في منطق الماديين الطبيعيين(البيولوجيين وليس الفلاسفة)؛ أي إن الصورة تتشكل في الدماغ من وجودها في الطبيعة الكونية أي أنها تنشأ في الطبيعة، وتنطبع في الذهن على شكل تجريدي محض آخذة معها صفاتها الفيزيائية المشتركة والموجودة في جنسها جميعا، كـ "الشجرة" مثلا على أنها مفهوم تجريدي لا مادي؛ فنحن نعلم أن هناك أنواعاً كثيرة وأشكالاً مختلفة للشجر، ولكنها تتوحد من حيث الماهية في صفات جامعة، ثم يعطيها المجتمع اللغوي بالتواضع الاعتباطي "دالاً" لغوياً

=

كان من العلم السافل، وإن أعطى من المفارقة كان من العلم العالي". وترى خلطه بين المنهجين المنطقي الاستدلالي والمادي ص ٦٢ وما بعدها: حيث قسمة الأجسام إلى متحركة بذاتها وأجسام متحركة بقوى مفروضة عليها من "الهيولى". وبمؤثرات غائية تقف وارءها حكمة ما. وإن أحسنا الظن في ابن سينا فإننا نقول أنه يقف بين المنهجين الفلسفيين تدفعه الرغبة إلى إثبات وحدة الطبيعة المنشأة "بالصورة" في مفهومها الأفلاطوني الأرسطي بعده ، لكن ابن سينا تجنّب ذكرها في "ذهن الإله" لأنه يعلم لمن يكتب، ونسبها إلى قوة البداية الأولى التي هي "اللّه"، وإن استعان باصطلاحات الفلاسفة اليونانيين، وتقلد عباءاتهم من حيث الحديث في العلوم شتى كما كان يفعل أغلبهم.

١) انظر" **اللغة واللغويات**". جون لوينز. ترجمة محمد العناني. دار جرير. الطبعة الأولى.٢٠٠٩. ص ٢٢٠

محددا، حيث اللغة عندهم تعبر عن صور كامنة في ذهن الإنسان وفكرة عنده[١] تشكلت في الطبيعة ، فالجهاز العصبي المركزي والدماغ والرابط بينهما (خلايا ملتفة دائريا على شكل كعكة سميكة في نهاية النخاع الشوكي في أعلى رقبة الإنسان، وهي منطقة اللاوعي الأولى، وينبثق عنها في الأجزاء الأعلى منها في الدماغ ما يسمّى بالدماغ الواعي حتى القشرة الدماغية) هي التي تأخذ الانطباعات عن الصور في الطبيعة ثم تربط بين أجزاء النوع المختلف بصفات جامعة كأنواع النبات مثلا وأنواع الحيوان والقدرة على تمييز النبات من الحيوان من غيره في الطبيعة، من هنا يأتي دور التواضع اللغوي في إطلاق الرموز الصوتية المؤلفة (كلمات) على المشاهد الطبيعية، ويأتي دور العقل أيضاً في مرحلة متطورة بعد انطباع الصورة الذهنية في الدماغ يأتي دوره في التصوّر والخيال ومناقشة التجريديات وصوغ الجمل المفيدة حسب نظام اللغة المكتسب في منطق النظرية البيولوجية، وفي منطقها أيضا ليس هناك تفريق بين الروح والنفس كما ذهب اللاهوتيون على اختلاف عصورهم، بل إن النفس عند البيولوجيين التطوريين ليست إلا نتاج هذا التفاعل المادي الذي يحدث في الدماغ(وهو مادة بحتة) ولا فصل بينهما، فكل ما يدعى روحياً أو نفسياً من الأمراض التي يعاني منها البشر لها في المادة حل وعلاج (الدواء)، وذلك دليل أنها من أصل المادة ليس إلا.

---

١) يقول ر. هـ . روبنز : "وقد أحرز علم اللغة في ظل الرواقية منزلة واضحة داخل الإطار العام للفلسفة فقد عولجت مسائل اللغوية بشكل واضح في أعمال مستقلة خصصت للجوانب اللغوية كما عولجت بطريقة منظمة . ووضع اللغة في اليونان نظام الرواقي كان إجماله في ثلاثة شواهد« :في البداية يأتي الانطباع وبعد ذلك يعبر العقل بالكلمات مستفيدا من الكلام عن التجربة الناشئة عن الانطباع » « وكل الأشياء كن إدراكها من خلال الدراسة الجدلية«» ومعظم الناس متفقون على أنه من الصحيح أن نبدأ دراسة الجدل من جزئه ذاك الذي يبحث في الكلام ١٠.(»(لقد صاغ الرواقيون ثنائية الصيغة وا(عنىt يزين في اللغة ب« \ الدالّ» و« اا(دلول »H اللذين يذكراننا بشكل لافت للنظر باصطلاحي دي سوسير«الدال signifiant وا(دلول . signifie» أما النصوص اا(رتبطة با(وضوع فيصعب تفسيرها H ولكن يبدو أن اا(دلول لم يكن صورة ذهنية بشكل كامل Hبل كان شيئا ما في ذهن اا(تكلم وا(ستمع يقابل نطقا معينا في اللغة H وهذا يشبه إلى حد ما توحيد سوسير للصوت والفكرة عن طريق اللغة ١١.(la langue(لقد قدموا معالجات مستقلة لكل من الصوتيات والقواعد والإ الجيا التي أعطوها اهتماما كبيرا H ولكن مساهمتهم الأكثر بروزا H كما هو الشأن في علم اللغة الغربي كله في العصور القدv ة H كانت في مجال القواعد الذيv كننا أن نتتبع فيه تطورا متصاعدا في أكثر من مرحلة من مراحل النظرية وا(صطلح.وعلى الرغم من أن علم اللغة H أي ( ) grammatiké. "موجز تاريخ علم اللغة في الغرب". ترجمة د. أحمد عوض.عالم المعرفة، نوفمبر ١٩٩٧ ، ص ٣٧ .

واللافت للنظر أن تقدم المادية/الطبيعية أدى إلى تقدم الدراسة اللغوية عندما عُكس مفهوم الصورة الذهنية الكامنة التي طلع بها سوسير[١]- كما فعل الطبيعيون قبله بقرون- كفتح لغوي عظيم في بداية القرن العشرين الذي سبقه القرن التاسع عشر الذي تميز بسيطرة المذهب الطبيعي والفلسفة المادية إجمالا، وتقزّمت وقت ذاك الفلسفة التي قامت على التصورات غير المبرهنة، والتنظيرية الميتافيزيقية التي هي نتاج الخيال الإنساني المحض، والتي استبعدت العقل الإنساني نهائياً عن استنباط نتائجها واستقراء المظهر الطبيعي، بل فرضتها عليه من الخيال.

وحديثاً لم يعجب المفكر محمد أركون ما حدث في القرن التاسع عشر، إذ يقول في ذلك: " **...وإنما نلاحظ أن العلوم الإنسانية تميل إلى الاشتباه بالخيال واعتباره مصدرا خطرا للعواطف الهائجة والشعرية الغنائية والتجريدية التي تسبح في متاهات صرفة لا نهاية لها. وترى بأنه ينبغي على العقل أن يستأصلها كلياً ويرميها في ساحة التصورات الأسطورية والأيدولوجية التي لا تستحق الاهتمام. وهذا ما فعلته الفلسفة الوضعية المتطرفة والتكنوقراطية التي سادت في الغرب منذ القرن التاسع عشر[٢].**"

ليس هذا مكان مناقشة أركون وبيان الخلط الذي وقع فيه، والتجني الكبير على العلوم التي نهضت من بين الأموات في هذا القرن، ويؤيد كما نلحط خلط العقل بالخيال، وهذا صحيح إذا كان مِراساً يومياً في حياة الإنسان لأنه لا انفكاك في ذات الإنسان- بين "الخيال" والظن والهواجس وتلوين الوقائع بالواقع النفسي للإنسان من ناحية، والتفكير المنطقي العقلاني من ناحية أخرى عند الإنسان نفسه، فهما اتجاهان موجودان في دماغ الإنسان وهو مادة ، ولكن على صعيد العلم والوصول إلى الحقيقة

---

١) يأخذ سوسير على فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد - أي ما قبل انتشارالمادية الطبيعية- ما أسماها بالمغالطة التاريخية etymological fallacy ، ويقول:" أي دراسة أصل الكلمة ونشأتها ، وقد نشأت هذه الدراسة فيما يتعلق بالمنهج الغربي في دراسة القواعد وفي تكهنات بعض الفلاسفة اليونانيين ..." . اللغة واللغويات. جون لوينز.ص ٧١. واقرأ المزيد في ذلك حول فهم طبيعة اللغة المتعلقة بالكلمة في الصفحة ٧١ وما بعدها. من المصدر نفسه.

٢) "قضايا في نقد العقل الديني". محمد أركون. ترجمة هاشم صالح. دار الطليعة –بيروت. ط١. ١٩٩٨ . ص٢٠٠ .

التي ينبني عليها الحق فإن الفصل التام بين العقل والأسطرة (الخيال والظنون) واجب، بل فرض عين على كل من يشتغل في حقل العلوم.[١]

أن من يدقق النظر يجد رابطاً قوياً بين انتشار المادية/الطبيعية قبل الميلاد من جانب ونمو العلوم اللغوية والطبيعية وتطورها من جانب آخر، وسيلاحظ التشابه في الفكر اللغوي قديما وحديثاً. فعلى صعيد العلوم اللغوية نجد أن مسألة "الدال" و"المدلول" وسيمياء العلامة ومفهومهما السوسيري قد ظهرا قبل سوسير بأكثر من ألفي عام تقريباً ، ولكن بمسمّيات متقاربة، أما المفاهيم فواحدة بلا جدال. ولعل هذا من ثمرة قلب مفهوم الصورة الكامنة الميتافيزيقية إلى صورة ولّدتها الفلسفة الطبيعية، يدركها الدماغ ثم يعطيها دالاً لغوياً محدداً كما مرّ آنفاً، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى توجّهت المادية بقيادة زينون ولغوييه ومدرسة الإسكندرية المعاصرة للرواقية إلى استثمار عملي تطبيقي لإشارات أفلاطون إلى تعدد لهجات الشعوب (حتى داخل اليونانية نفسها)، فذهبت إلى دراسة هذه اللهجات وصفياً تماماً كما دعا سوسير في

---

١) هذا غير خلط أركون بين الفلسفة الطبيعية وهي منهج العلم حتى هذه اللحظة، الذي يتعامل مع واقع الأشياء كما هي ما أمكن لا كما يتمناها الإنسان ، وهذه الفلسفة "العلمية" التي ينكر عليها استبعادها الخيال من استخلاص نتائجها وإرساء قواعدها سماها "الوضعية"، ولا نعلم لِمَ اختار هذا الاصطلاح، أهو مقابل الفلسفة اللاهوتية الإلهامية؟ وهل هو مؤمن بالأخيرة ونابذ للأولى؟ ثم جمع بين فلسفة العلم الطبيعية من ناحية والتكنوقراطية من ناحية أخرى. ثم إننا لا ننسى أن العلماء الطبيعين وغيرهم إنما هم بشر أولا وأخيرا، ولا نعجب إذا مال أحدهم إلى الوجدانيات في حياته العامة وممارساته الاجتماعية، فهل يَحرُم على العاالم أن يحزن أو يفرح أو يخاف أو يظن أو يحب أو يكره، بما أن هذه الأشياء ليست مقيسة فيزيائياً؟! والأعجب من ذلك أنه يسوق قولا للعالم الفيزيائي فريمان دايسون الذي يقول:"..ينبغي أن ننظر إلى العلم من ثلاث وجهات نظر...وثالثا وأخيرا أن ننظر إليه بمثابة الاستكشاف التدريجي الذي يقوم به الإنسان للمكان والزمان وللمادة بحد ذاتها ولجسده الخاص وجسد جميع الكائنات الأخرى ثم وهذا هو الأهم: من أجل إزالة الظلامية والشر من الروح أو طمسهما". المصدر السابق.ص ١٩٩ . وقد اغتر أركون بقول دايسون (الظلامية، والروح) على أنهما من اصطلاحات اللاهوتيين والميتافيزيقين، فظن أن الفيزياء - التي يتخصص فيها دايسون- تعترف على لسان هذا العالم بوجود هذه الأشياء، ناسيا أن دايسون يتحدث عن السلوك الفيزيائي للمادة (الإنسان في جسده وفكره النابع من دماغه وهو مادة أيضا) الذي يضر بالآخرين أو يؤذيهم وهو ما أطلق عليه دايسون "الظلامية"، أما "الروح" التي ذكرها دايسون إنما قصد بها فكر الإنسان الذي يؤدي إلى الإضرار بالآخرين ، بمعنى أن الروح هنا هي ميول الإنسان النابعة من نفسه، والنفس كما ذكرنا إنما هي نتائج حركات وتفاعلات هرمونية في الجهاز العصبي المركزي والدماغ. وهو مادة، فلماذا لم يفهم أركون قول دايسون على أنه دعوة إنسانية للتسامح والتوادّ، وهو هنا إنسان عادي صاحب دعوة أخلاقية لا فيزيائي يتحدث باسم العلم.

العصر الحديث، فلا شك أن مادية القرن التاسع عشر الذي عاش سوسير و الأمريكي بيرس جل حياتهما فيه قد أوحى لهما بمثل هذا الفكر اللغوي[1]، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، وتأثيرها في مجالات العلوم جميعها، واللغوية منها حتى أنا قرأنا عن وجود كتاب بعنوان " علم اللغات ومذهب دارون"، لمؤلف اسمه شلايخر .صدر سنة ١٨٦٤م، ونقرأ عند اللغويين المحدثين، الذي يميل بعضهم إلى الإيمان بالعلاقة بين الإنسان وتطوره عبر الزمن كما تذهب نظرية دارون ، إذ يقول جون ليونز:".. فقد ظهر مؤخرا أن بعض أنواع الشمبانزي الصغيرة قادرة أيضا على الاستجابة لنفس الفوارق الصوتية، وبما أن الشمبانزي لا يتطور لديه النطق وأن الأطفال لا يستفيدون من هذه الاختلافات الصوتية حتى الثانية من العمر، فإن هذا ليس فارقا خاصا ببعض الأنواع بل هو فطري."[2].

هذه النظرة للعلوم ومنها اللغوية ما زلنا نحصد ثمارها حتى هذا اليوم من تقدم تكنولوجي بشكل خاص، ودراسات إنسانية ألقت بظلالها على مجتمعات العالم كافة، وأثرت في فكرها وفنونها أيّما تأثير.

على أية حال ظلت الفلسفة المادية وتعليمها في الأروقة تنمو في اتجاه معاكس لأفكار مجموعة الكوسمولوجيين الأوائل والثلاثي: سقراط[3]- أفلاطون –أرسطو، حتى سيطرت على الفكر الإغريقي والروماني ردحاً من الزمن قارب الخمسمائة عام، فقبلها كنا نرى هذه الصور تتحول إلى منحوتات في المعابد والقصور تجسيداً واقعياً وفهماً لما أحدثه الإله أو الآلهة في الكون، وكانت الصورة الكامنة في ذوات آلهتهم لها

---

١) يقول ليونز على لسان سوسير:"وقد وضعت دراسة نشأة الكلمات وتطورها على أسس سليمة في القرن التاسع عشر ..". المصدر السابق، ص ٧٢ .

٢) اللغة واللغويات. جون لوينز. ص ٢٣١- ٢٣٢ .

٣) يعد سقراط من الفلاسفة المعلمين الذين استقرؤوا الطبيعة (ما يحيط بالإنسان)، وجعل العلم أساسا للفضيلة، والفضيلة كامنة في النفس يمكن أن يتعلمها الإنسان، ومما يلفت النظر في فلسفته الخاصة أنه كان يدعو لعبادة إله واحد خلافا لما شاع في اليونان من تعدد للآلهة، وكان ينهى عن عبادة الأصنام. انظر "سقراط" ، مايكل يوسف. ص٩.

قدسية تلك الآلهة أو الإله (مارس) اليوناني، حيث ترمز إلى فكرته العبقرية وبراعته غير المحدودة ، وتُتّخذ رمزاً للإله المهندس الذي صممها، ولكن عندما بدأت الرواقية بقيادة زينون وديقريتس وأبيقورس تحل شيئاً فشيئاً محل المعتقد المتجذّر في المدارس الفلسفية الأولى - (فلسفة الصورة/الهندسة) وهو ما كان غالباً معتقد الإمبراطور والقيصر- صارت هذه الصور/ المنحوتات تأخذ شكل الزينة ، وغلب عليها أن تكون فنّاً وتأريخاً للبطولات من أن تكون ديانة، فصار للإمبراطور وأبطال الحروب والفلاسفة منحوتات تخلّد ذكراهم ولم تعد المنحوتات مقصورة على الترميز للقدرة الإلهية، ذلك أن الماديين وإن لم يحاربوا الصورة صراحة إلا أنهم حاربوا مهندس الصورة وصانعها الأول/ الإله بشكل خفي مُبطّن كي لا يُرموا بأبشع الصفات ويُنسبوا إلى كل ما من شأنه تحقيرهم من جرائم وانحرافات أخلاقية[1] كما حدث لسابقيهم من الماديين الأوائل، حتى إن أبيقورس وهو رأس المادية بعد ٣٠٠ ق. م، لم يستطع إلغاء فكرة الإله المهندس علناً، إنما قال إن الإله وأعوانه يتمتعون في النعيم، ويسبحون بين نجوم السماء متغافلين عمّا يجري على الأرض، ولا دخل لهم بما هندسوا وصنعوا ، بل تركونا وشأننا، فلنتركهم وشأنهم، تمهيداً منه لإلغاء فكرة وجود "روح" قبل "المادة" خلافاً لقسمة أرسطو الذي جلّى فيها القسمة الأفلاطونية التي ذاعت بشكل أكثر صرامة ووضوحاً في زمانه[2] (أي أرسطو)، إلى أن أعلن تلاميذ أبيقورس فيما بعد صراحةً بسبق

---

١) لقد كان معظم الفلاسفة يتحدثون عن الأخلاق والفضيلة ومحاوراتهم في ذلك كثيرة. اقرأ مثلا : "محاورات أفلاطون": ترجمة زكي نجيب محفوظ. مكتبة الأسرة.٢٠٠١ . وقد تراكمت جهودهم في ذلك حتى بلغت مبلغا عظيما ونقلت إلى العربية ، ومن الطريف الذي يُذكر في هذا الصدد تدليلا على ذلك الطرفة الآتية: " نظر أعرابي إلى مكتبة عامرة بالكتب القديمة فقال: إني أعرف جميع ما في هذه الكتب، كلها تقول : أيها الإنسان كن خيّرا". وقد أصاب هذا الأعربي كبد الحقيقة. فكتب القدماء كلها تنصح الإنسان بأن يأخذ جانب الخير ويترك جانب الشر ، وهي منهم فكرة رائعة حقا ، ولكنهم مع الأسف لم يبينوا لنا كيف يستطيع الإنسان أن يصل إلى هذه النتيجة". "مهزلة العقل البشري". علي الوردي. دار كوفان للنشر- بيروت.ط٢ . ١٩٩٤ . ص٧٣- ٧٤

٢) وانظر اتفاق ابن سينا مع هذا المفهوم وهو فناء المادة وسبق النفس عليها وأنها لا تفنى كما تفنى المادة ، "النجاة في المنطق والإلهيات". ابن سينا ص ١٠٨ . وما قالوا به من فناء المادة منقوض بعلم الفيزياء الحديث ، لا سيما ما صرح به آينشاين وهو : إن المادة لا تفنى ولكن تتحول من شكل لآخر" وهو مثبت ولا جدال فيه. ولكن لفلاسفة العصور المتقدمة العذر في فهمهم لإتعدام معرفتهم في فيزياء المادة حق المعرفة. ثم يجعل ابن سينا في الصفحة المشار إليها انفصالا تاما بين النفس والجسد ، وأن الجسد مملكة للنفس تسكن فيها ثم

"المادة" على كل شيء وأزليتها كما مرّ آنفاً، وبذلك تخلّص الفكر لديهم من عبء ميتافيزيقي ثقيل أشبه بالكوابيس.

لقد صار القيصر بعد ذلك هو ولي أمر الأرض الأول والأخير بعد تغييب الإله أو الآلهة تماماً عما يجري، ووجدت الرومانية بشكل خاص طريقاً عريضاً معبّداً في المادية حيث كانت تنطوي على إطلاق يد القياصرة في الأرض والناس.

على الجانب الجغرافي المقابل من جهة الشرق كانت الأمور مختلفة تماما عند الفارسيين والسومريين قبلهم وفروعهم القَبَلِيّة[١]، حيث إن الآلهة/الإله يصنع كل شيء بيديه، ويشكّل الأشياء، ويغيّر فيها ويعدّل عليها، ولا يكمن في ذاته شيء منها، وتميل "صورته" إلى الشخصنة، فيتزوج وينجب ويقتل..إلخ، همّه الأول صلاح البشرية برؤية شرقية قائمة على مصلحة الملك (مندوب الإله) والتقابل الكلاسيكي بين الخير والشر والنور والظلمة، والتراتيل خاصة في الكتاب المسمي (ريج فيدا Rid Vida) الأقدم تشير إلى دور الإله في الحرب [٢]. فهو يشارك في الحروب ويأمر مندوبيه - وهم عادة الملوك- وينهى عند السومريين وذراريهم ، ويتدخل في كل شيء[٣]، بل يقود المعارك شخصياً[١]

=

تنفصل عنها عند فناء الجسد، وهذا مخالف تماما لمقولات البيولوجيين في أن النفس هي عبارة عن نتاج الجهاز العصبي المركزي والدماغ والتفاعلات الهرمونية فيهما، ففي حال موت الإنسان فإن النفس تفنى لأنها قائمة تلك الأجهزة العضوية في جسم الإنسان ومنبثقة عنها.

١) انظر "مغامرة العقل الأولى". فراس السواح. دار علاء الدين. دمشق.ط ١١ . ص ٣١- ٤٥ .

٢) انظر : المعتقدات الدينية لدى الشعوب. جفري بارندر. ترجمة إمام أحمد إمام. مايو ١٩٩٣. سلسلة عالم المعرفة . ص١١٠ . و"الريج فيدا" كتبت بأثر من الغزو الآري لإيران أولا ثم انتقلت إلى الهند وأصبحت كتابا مقدسا لدى الهندوس. انظر ص ١١٠ وما بعدها. المصدر نفسه.

٣) يقول الخور أسقف ليُون عَبد الصّمد: وكلّ ما ورد في الكتاب المقدّس من حوادث تاريخيّة يدلّ على أنّ يد الله تقود الأمور لصالح مختاريه، وأنَّ اهتمامه بهم دائم، وعنايته بهم متّصلة، يؤدّبهم ويكافئهم، ولا ينفكّ يرعاهم؛ حتّى جاء في أشعيا قول الرب : " أتنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ ولكن ولو هؤلاء نسين لا أنساك أنا " (مزمور ٤٦: ٥). العناية الإلهية- العقيدة. موسوعة المعرفة المسيحية. دار المشرق بيروت.ط٢ .

ولذلك نظير في الفلسفة الإسلامية، فقد جاء في "خلق أفعال العباد" ما نصه: " قال أبو عبد الله بن محمد إسماعيل: سمعت عبد الله بن سعيد يقول سمعت يحيى بن سعيد يقول ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون "إن أفعال العباد مخلوقة" قال أبو عبد الله "حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب فهو كلام الله ليس بخلق قال الله {بَلْ هُوَ

ويسحق الأعداء دائماً لسبب واحد هو خروجهم عن التعاليم الأخلاقية، الذي يؤدي إلى الإفساد في الأرض، أي التقليل من شأن الآلهة أو الإله ورفض طاعته صراحة.

لم تكن مشكلة السومريين والآكديين والآشوريين والفرس في وجود إله واحد أو أكثر، ولكن هذه الآلهة - على تعددها- كانت واقعة ضمن ثنائية: **الرضى- الغضب،**[٢] كلٌّ منها حسب تخصصه ، لذلك كانت "الصورة المهندسة" تعاني من قلق يعتري المهندس، لذلك استُبعد هذا المفهوم من نظرة هؤلاء لآلهتهم فيما أحسب، وتلك الآلهة لها من الهيبة في نفوس عبادها ما يجعلها تحتقر الإنسان[٣]- في نظر الإنسان نفسه طبعا- فهو أدنى من أن تصوّره الآلهة على صورتها، في حين عينها باستمرار على الجنس البشري فقط - خلافاً للفكر الروماني الإغريقي الذي نحّى الآلهة جانباً، ومن خلال دراسة ميثولوجيا المنطقة الشرقية تجد أن الآلهة كانت مشغولة في إنزال البركات على المرضيّ عنهم، أو سحق المغضوب عليهم حتى لو اضطر الأمر لأن يقود المعركة الدموية الإله شخصياً كما شاع في أساطير الممالك التي قامت فيما بين النهرين، التي انتهت باجتياح الفرس لها.

وإذا ما قابلنا بين الحضارتين العظميين اللتين كانتا في نزاع مستمر: الفرس والروم، فإننا نخلص إلى أن الفارسية كانت تتخذ السماء وما فيها من مديرين للأرض ومشرفين على شؤونها لا علاقة لهم بـ"الهندسة" مرجعية لها، مما أهلها لاحتضان وتنمية كثير من الخرافات والأساطير والخزعبلات على يد مندوبي هذه الآلهة على الأرض، إذ كانت حضارة مغرقة في الميتافيزيقية بامتياز، إذ تعرف الفارسية عملية

=

آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾". خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل". أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري. الناشر: أبو خالد بن عبد الوكيل. الطبعة الأولى. ص ١٨.

٢) انظر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ص١٢ وما بعدها.

٣) انظر كتاب: "هكذا تكلم زرادشت". فريدرك نيتشه . ترجمة : فيلكس فارس . مكتبة محمد حسنين هيكل. نشر سنة ٢٠٠٠ . ص٥- ٦ . وانظر نعي زردشت على الكهنة المتأثرين بالأساطير الفارسية القديمة : ص ٧٦- ٧٨ من هذا الكتاب.

الصعود إلى السماء والرجوع منها إلى الأرض مثلا دون أي برهان ؛ لتلقّي التعليمات من آلهة أو إله مختبئ في مكان ما في السماء، قد يضطره الأمر للهبوط إلى الأرض لتسوية بعض الأمور، أما الرومانية والإغريقية فكانتا تتخذان الأرض / المادة/الطبيعة مرجعية لهما (فيزياء الواقع)، وعلى صعيد آخر فإن متتبع تاريخ تطور الدولة الإسلامية سياسياً ودينياً في العصور العباسية يجدها تأثرت بشكل كبير بالفارسية[١] (التي قامت على تاريخ ما بعد زرادشت) بعد أن تراجعت الرومانية إلى أقصى الحدود الشمالية الغربية لبلاد الشام وما والاها من الحدود التركية اليوم، وذلك في أواخر العهد الأموي، ولعل قرب الفارسية جغرافيا من مولد الحضارة الإسلامية، وعدد الداخلين من الفرس في الإسلام الذي كان أكبر بكثير من الروم، كان هو سبب هذا التأثر[٢].

فيما يخص سيمياء الصورة في الفلسفة الإسلامية فلقد وقف الإسلام موقفاً وسطاً بين مادية/طبيعية روما[٣] ، ومذهب الفارسيين الذي كان أشبه عندهم بحقائق لا يدركها إلا الأولياء الذين تعيّنهم الآلهة شخصياً ليكونوا مندوبين عنهم، حيث ألغى الإسلام تماماً الفكرة التوراتية وهي أن الإله صور الإنسان على هيئته (أي هيئة الإله

---

١) وقد جاءت المعتقدات الفارسية بمبدأ المدد الإلهي(الفيض النوراني) على يد زرادشت ، أو ما شابهه من اصطلاح وذلك لتأييد أتباعه ومريديه انطلاقا من "الوحي" الذي أخذ شكلا مبالغا فيه نحا به إلى عدم الانقطاع عن الأرض لأشخاص مخصوصين، أو ما سمي فيما بعد بنظرية "الفيض الإلهي"، فيض العقل الأول الذي أدى إلى "العقل الثاني" ، ثم نما ذلك المفهوم عند الفلاسفة المسلمين قبل ابن رشد ، وصار فيما بعد أساسا لما يعرف بالصوفية، حتى جاء ابن رشد ليدعّم الفلسفة الأرسطية ويشكلها بطريقة موافقة للمبدأ الإسلامي والفلسفة الأرسطية في "المعرفة" و"العقل الفعّال" والعقل الهيولاني" بشكل خاص" ، و"النفس" و"الأخلاق" و"الإله" و"الصورة.". انظر في ذلك: "نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الإكويني". محمود قاسم، مكتبة الأنجلو المصرية. ص٦ وما بعدها. ويذهب محمود قاسم أيضاً إلى أن ابن رشد مخالف تماما لابن سينا في هذه المسائل، وقد ألحق فلاسفة المسلمين بابن رشد ظلما عظيما جرّاء فهم مذهبه بشكل مقلوب . انظر المرجع السابق ص١٣ .

٢) اقرأ حول هذا التأثر بالأساطير ونقلها إلى التراث الإسلامي في :" تاريخ الفرس الأسطوري عند الطبري والفردوسي" . سميرة عبد السلام عاشور- كلية الآداب /جامعة الإسكندرية.

www.KOTOBARABIA.COM . ص ٤٣- ٤٧ .

٣) حتى بعد دخول الرومانية في المسيحية ، كانت ما تزال متأثرة بشكل قوي جدا بالفلسفة المادية ، وفي ظلها ظهر ما يسمى بالهراطقة المكذبين بالمسيح والألوهية ، والفيلسوف القس آريوس الذي كذب بأولهية المسيح.

نفسه)، وأقرّ الإسلام في الوقت ذاته الاشتراك بين صفات الخالق وصفات المخلوق كالسمع والبصر والنسيان والغضب وغيرها[1]، مع "تنزيه" الله عز وجل عن أن تشابه صفاتُه صفاتِ المخلوق " أي إطلاق صفات الخالق من حيث الكيف والهيئة"[2]، فصارت المشابه في المعنى الوظيفي للعضو الحسي الذي لا يمكن تحديد شكله عند الله تعالى أو تشبيهه، إذ إنه: ((ليس كمثله شيء))[3]، في حين نجد القرآن الكريم يذكر بأن الله "مُصوّر" ، أي مصمم لصور ومحقق لها بقدرة لا نهائية ، وفي الوقت نفسه أيضاً وقف الإسلام موقفاً صارماً تجاه المنحوتات والصور (الأوثان)، وحاربها وحطمها كما حطمها إبراهيم صلوات الله عليه من قبل، وقد أوصى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام بـ"توقير" الحجر الأسود، مع أنه حجر، كنوع من اختبار الإيمان، مع أنه المادة الخام للمنحوتات ، وقبّله عليه الصلاة والسلام وأمر المسلمين بتقبيله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فإن لم يستطيعوا أمرهم بإلقاء التحية عليه بأيديهم من بعيد، لأنه حجر من أحجار الجنة كما جاء في الروايات والأحاديث الشريفة[4]، فالحجر الأسود لم يكن

---

١) ولقد نسب القرآن الكريم لله "النفس" ، إذ جاء في القرآن الكريم على لسان عيسى بن مريم عليه السلام مخاطبا الله سبحانه ((وتعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك)) (المائدة: ١١٦) . فإذا كان البيولوجيون يجعلون النفس نتيجة مترتبة على وجود الجهاز العصبي المركزي عند الإنسان وهي تفنى عند موته لتحوّل مادة الأعصاب إلى تراب فإن تطبيق ذلك على" نفس" الله يسبب إشكالية كبيرة، ويعني أن الله يمتلك الجهاز العصبي المركزي- تعالى عن ذلك علوا كبيرا- الذي من خلال تفاعلات المادة في خلاياه يظهر الغضب والرضى والرحمة والمغفرة وغيرها من صفات نتيجة لعمل هذا الجهاز، والحقيقة أن ذلك كان مجرد قياس من وجهة نظر آدمية المسيح تجاه الله عز وجل.

٢) يقول مصطفى عبد الغني ملخصا مذهب الرواقية : " يلاحظ هنا الأصل المادي لكل من الفلسفتين الرواقية والأبيقورية، على تطرف الأبيقورية وذهابها إلى نهاية الشوط، إذ ذهبت- فيما يقرر شيشرون- إلى إن الروح واللاجسمية محض استحالة. فالجسم والروح في الكائن الحي لا انفصام لهما إلا بالموت. وعلى ذلك فإن للآلهة جسما لكن ليس كجسم البشر ودما يجري في عروقها لكنه مختلف عن الدم البشري. Cicero,De Nat. Deor". " فلسفة الطبيعة عند الرواقيين" : د. مصطفى لبيب عبد الغني . جامعة القاهرة- دار الثقافة للنشر والتوزيع.ص٢٠

٣) (الشورى: ١١).

٤) " حدثنا حماد بن سلمة عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير بلفظ : " الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة ، و إنما سودته خطايا المشركين ، يبعث يوم القيامة مثل أحد ، يشهد لمن استلمه و قبله من أهل الدنيا " . " السلسلة الصحيحة " . ناصر الدين الألباني .ص ١٥٥ . موقع الألباني على الإنترنت www.alalbany.net. وانظر كذلك : :" السلسلة الصحيحة " مجلد٦ /ص ٢٣٠ : أخرجه الترمذي (١ / ١٦٦) و ابن خزيمة في " صحيحه " (١ / ٢٧١ / ١) و قال الترمذي : " حديث حسن صحيح " . و قال : " اللبن " مكان

منحوتاً كالوثن على هيئة شخصانية محددة؛ لذلك قَبِل به الإسلام حجراً موقّراً خلافاً لأحجار قريش التي كانت تحيط بالكعبة وغيرها من الأماكن في شبه الجزيرة العربية، ثم كانت شعيرة رمي تمثال أو رمز إبليس في فريضة الحج من طراز التصوير التشبيهي كتعبر إيماني وجداني عن اتخاذه عدوّاً لأنه بدأ العداوة مع الله في السماء. فلا شك أن على أولياء الله أن يعادوا من عادى الله. ولا يكفي إضمار ذلك في النفس بل يجب إعلانه على الملأ.

وتواجه التوراة من جهة أخرى سؤالاً في غاية الأهمية حول سيمياء الصورة، وهو أن الإله كان ذا صورة ما، وقرر كما مر في الاقتباس السابق منها أنه يصور الإنسان على هيئته (هيئة الإله)، والسؤال الموجه للتوراة ليس ببعيد عن سؤال الملحد للمؤمن: من أين للإله هذه الصورة التي كان عليها؟ وإذا صدقنا بمقولة التوراة فإن الإله مشابه لنا نحن بني البشر من حيث الصورة، وهو ما ينفيه الإسلام ، ولا تحول أزلية الإله بشكل من الأشكال دون طرح هذا السؤال على الفكر الاستدلالي التجريدي واللاهوتي معا، أما المادية فتواجه السؤال حول أزلية المادة بدلا من أزلية الإله والصورة التي كان عليها، والجواب المقطوع فيه عندنا على الأقل من وجهة نظر علمية واضحة هو : لا أحد يعرف، والجميع مشتركون في جهل البداية الأولى.

وعلى صعيد "الصورة" مرة أخرى فإنها تقريباً متشاكلة في مختلف الفلسفات، ومفهومها يدور بين الأسطورة والفلسفة ، ولكننا في موقف لا نستطيع الجزم فيه بسبق أحد هذه الفروع الفكرية المعرفية الميتافيزيقية على الآخر من ناحية "اختراع الفكرة" وترويجها في الفلسفات الأخرى، ثم لا نملك دليلاً مادياً يثبت اشتقاق معنى إحداهما من الأخرى غير مجرد التشابه في مضمون الفكرة في حد ذاتها، وهذا التشابه يدفع

=

" الثلج " ... والطبراني في " المعجم الكبير " (٣ / ١٥٥ / ١ - ٢) و كذا أحمد (١ / ٣٠٧ و ٣٢٩ و ٣٧٣) و الخطيب في " التاريخ " (٧ / ٣٦٢) من طرق عن عطاء بن السائب عن سعيد. في الموقع المذكور.

باتجاه محاولة تفسر الأشياء بوجه من الوجوه **لا** يعدو مفهوم النظرية التي تحتمل الصحة أو الخطأ، ولايمكن الركون إليها على أنها حقيقة واقعة. وفي الوقت نفسه لا نملك ما يؤيد واقعية وحتمية فلسفة الصورة الكامنة- سواء في الفلسفة أو الفكر اللاهوتي- ويضعها في مصاف الحقائق الكونية التي تجيب عن الأسئلة الحائرة، إلا أننا أَمْيَل إلى الاعتقاد أن يكون الفكر اللاهوتي قد استعار فلسفة الصورة كما هي دون إجراء أي تعديل عليها أو تغيير من أي نوع من الأنواع من الفلسفة التجريدية الاستدلالية، إذ تم تحويل مقولات الفلاسفة اليونانيين وخلطها بمفاهيم استُعيرت من أساطير الحضارات الشرقية تم تحويلها إلى أفكار عامة مؤسسة للفكر.

وعلى صعيد الفلسفة الصينية القديمة، يقرّ **لاوتسه** في **"التاو"** أن **"الصورة"** تقع في "الخيال أولاً، ثم تتحول إلى شيء عضوي يتدخل "التاو" في منح هذا الشيء العضوي نَفَس الحياة، فيقر بذلك بسبق الصورة على تجسيدها موافقا لغيره، لاحظ كلامه الآتي:" **النور جاء من الظلمة، والنظام من اللاصورة..التاو ينتج الطاقة الحية التي تعطي النفس للصورة العضوية"**[1].

بقي أن نقول في سيمياء الصورة أنها أقرب مأخذاً واعتدالا وفهماً في الفلسفة المادية/الطبيعية منها في غيرها من الفلسفات ، وإذا ما تجاوزنا معضلة الأزلية التي تواجه الجميع ، فإن الصورة في الفلسفة المادية هي المادة نفسها وصفاتها الفيزيائية الكامنة فيها، وإذا كانت هذه المادة حيّة فإنها ابنة شرعية "مركّبة/ معقّدة" للطبيعة، أي إن الطبيعة هي هي التي تحتوي هذه الصور كوجود فعلي ، وتمتاز بميزات حسية ذات وجود يتصف باللزوم، وكل شيء كانت هذه صفته فمحال أن يُوجد شيئاً لا محسوساً أو ميتافيزيقيا، و"الصورة" بناء على هذه الفهم ليست "مصممة" في مكان ما

---

١) "كتاب التاو". لاوتسه، و تشوانغ تسه. ترجمة هادي العلوي. دار الكنوز الأدبية. بيروت –لبنان. ط١. ١٩٩٥ . ص١٦ .

في السماء ثم تحولت إلى مادة هبطت مُجسّدة إلى الطبيعة الكونية المقيسة آلياً بقوانين كشف علم الفيزياء عن كثير منها، وعبّر عنها ببنيات رياضياتية ذات طابع تجريدي تأتي لاحقة لوجود المادة ، لا سابقة عليها[١]. فلا نستطيع فهم "التصوير" في القرآن الكريم بالفهم نفسه الذي تقدمه الفلسفة، وانعدام علمنا بالله تعالى من هذه الناحية يجعلنا نتوقف حول كيفية حدوث الخلق الذي يرتبط أشد الارتباط بمشيئة الله سبحانه عبر أمر إذا أراده فهو بين الكاف والنون لا غير.

فإذا أردنا الخوض في الفلسفة فقط فإننا نستطيع أن نقول كانت المادية/الطبيعية أنجح في التعامل مع موجودات الكون بعد نزع ستار الهيبة عن الصور المُهَندَسة إلهياً في الفلسفة، ومكّنها من التحكم في كثير منها واختراع ما نراه اليوم من تقنية فاقت بالتأكيد تصورات اللاهوتيين القدماء والمحدثين[٢]، في حين كانت الاستدلالية المنطقية واللاهوتية أنجح بمرات عديدة في التعامل مع الغيبيات ووصفها وتأويل ما هو غير مفهوم طبيعياً، وقدمت اللاهوتية بشكل خاص تفسيرات - لم تكن المادية المحكومة بالطبيعة معنية بها- للمعجزات التي تفهم على أنها خوارق للطبيعة المألوفة، ومدّت القول في ذلك إلى أن أصبحت هذه الخوارق تجري على أيدي بشر مخصوصين بعناية ربانية- ربما بتأثير من الفارسية- هم "أولياء الله الصالحون"، وربما ترتب على ذلك ظهور الطرق الصوفية(٣) و"المعرفة بالله"، ذلك كله دخل في

---

١) وذلك في دراسة الهندسة الكونية وحركة الأجسام والتفريق بين السرعة والتسارع وعامل الزمن الذي يلعب دورا في ذلك يعرفه الرياضيون، من هذه البنى التجريدية التي صرنا نسمع بها في الرياضيات في العصر الحديث وهي فروع للتفاضل والتكامل : الأنظمة الأحداثية ذات البعدين، الاقترانات وتركيبها، والاقترانات المتعاكسة، ونظرية النهايات، وقاعدة السلسلة، والمشتقّة، والاقتران اللوغارتمي الطبيعي، والتقارب المطلق، وغيرها.

٢) في" فلسفة الطبيعة عند الرواقيين" : د. مصطفى لبيب عبد الغني . ص.١٩ . يقول المؤلف: "في نهاية القرن الرابع قبل الميلاد رُسم للمشروع الفلسفي برنامج جديد، وأصبحت السيادة في الفلسفة للمذهب الطبيعي والمذهب المادي، ولم يكن هذا المشروع مختلفاً في أساسه عما قدّمه (بيكون) في مطلع العصر الحديث من حيث تأكيده على الخبرة والحياة الراهنة و" الهُنا" و "الآن" أكثر من تأكيده على الماوراء".

٣) انظر : التصوّف عند الفرس. أبراهيم الدسوقي شتا. دار المعارف.القاهرة.١٩٧٨. بلا طبعة.ص٣ . وانظر كذلك : المعتقدات الدينية لدى الشعوب: ص ١٠٥ .

الإسلام مع دخول الفرس فيه، وتأثير الفارسية ومعتقداتها[١]، حتى إن أولياء الله الصالحين" من المتصوّفة يفعلون ما لا يستطيع فعله إلا الله تعالى من المعجزات ، فنقرأ عن طي الأرض للصالحين (تقصير المسافات الشاسعة)، وقطف التفاح من الهواء، وطيران هؤلاء في الهواء، والحوادث المنسوبة إليهم - المشابهة لتلك- أكثر من أن تحصر[٢].

****

١) انظر:"التصوّف عند الفرس" : إبراهيم دسوقي شتا. دار المعارف.القاهرة. الصفحات : ٢- ٨. كذلك انظر الفحات ١٠ - ١١ حول التأثير الشيعي في التصوف والفلسفة الإسلامية عامة ، وحول دور ابن عربي في إنشاء مدرسته الفلسفية الصوفية. اقرأ ص ١١- ١٣ .

٢) اقرأ حول المعجزات في العصر الحديث مثلاً " آيات الرحمن في جهاد الأفغان"، د. عبدالله عزّام. ط٢ ، ص ١٥ وما بعدها.

"الســاعــة" [١] :

لم يكن **توماس إكويناس** يعتقد بضعفٍ يعتري الفكر اللاهوتي المسيحي من عدة جوانب، والذي رسخه في الكنيسة الكاثوليكية- وذلك لقيامه على أسس فلسفية- لشدّة إيمانه به[٢]، وهذا الفكر- على اختلاف منابعه وأصوله- في حقيقته يتأسس على "غير الموجود" حسيّاً، في مقابل المادية/الطبيعية التي انطلقت من الموجود الحسي، وفسّرته، وعادت إليه- بعد تراكم الأعمال والبحوث الطبيعية- بثورة صناعية عرفتها أوروبا بعدما تركت الحديث والبحث في: النفس والروح والعقل الفاعل والهيولي وغير ذلك، ثم هجرت تعليمات الكهنوت، على مستوى الأنظمة السياسية الحاكمة وجمهور عريض من شعوب أوروبا، وحصرت الكنسية داخل مخ القس المسجون في الكنيسة نفسها بعدما ثارت عليه عقول كبيرة مثل: نيوتن وجاليليو وديكارت وهيوم وغيرهم وبمساعدة فهم تلك الشعوب أن الحروب الأهلية في أوروبا كانت بتحريض من القائمين على الفكر اللاهوتي والطائفية؛ لذلك نبذوا أسباب هذه الحروب التي أسفرت عن ملايين القتلى، إلى أن جاء لاهوتي عنيد كان أشد اعتقاداً بقوة فكره ليقارع بحججه - التي صارت مرجعاً يفخر به اللاهوتيون الآن- ليقارع بها العلم الذي قام على مبادئ المادية الطبيعية (تميّز القرن التاسع عشر بها بامتياز)، سواء كان ذلك من حيث هي فلسفة، أو من حيث هي منهج علمي، وجد ضالته في البحث في الموجود الفعلي، وانصرف في الوقت نفسه عن البحث في المظنون بوجوده، وقد رأى اليونانيون - كما مرّ سابقاً- أن الآلهة أوالإله صوّر الكون ثم جسّده، والصورة التي اختارها لهذا الكون ذي الكواكب والنجوم تبدو لمن على الأرض أشبه بكرات أو دوائر أو قطوع

---

١) ليس المقصود هنا بحث سيمياء الساعة في المنظور الإسلامي الذي يشير إلى يوم القيامة وأحداثه، كذلك تجاوز البحث الحديث في نسبية الزمن بين اليوم عند الإنسان واليوم عند الله الذي ذكره القرآن الكريم أنه :"كألف سنة مما تعدون" ، وفي آية أخرى " في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة".

٢) انظر سبب تبجيل توماس إكويناس في أوروبا في كتاب: " الدين والعقل". بتراند راسل. ترجمة رمسيس عوض. دار الهلال ص ٦- ٧ . ويسمّى هذا الكتاب أحيانا:" مناطق النزاع بين العلم والدين". وهما عنوانان للكتاب نفسه.

مخروطية (مذنبات سابحة في الفضاء) على اختلاف أشكالها(**الهندسة الإقليدية)**[١]، وهي تتخذ مواقع محددة في السماء، وتغيّر مواقعها من حين إلى آخر بعملية محسوبة زمنياً برؤية إلهية مقصودة، وغاية في الدقة والتناغم، حيث التغير دائم ومؤقت ومحدد يمكن التنبؤ به، ويمكن حسابه، ولم يشكّوا أن الإله أو الآلهة قد فعلت ذلك، وفي أواخر القرن السابع عشر (**منذ نيوتن وما تلاه من الزمن**)، اختلفت الأمور مع التطور في العقل البشري، وإشباع المذاهب الفلسفية القديمة بحثاً واتفاقاً واختلافاً حول مفاهيمها، وعدم جدوى ترديد مقولاتها.

ولقد كان للفرنسي بيير **لابلاس**[٢] أثر عميق للغاية في التحول المشهود في أوروبا والغرب عموماً، وبعد جهود لابلاس "**حلت محل موسيقى الكرات اليونانية صورة الساعة الكونية. لقد أنجزت هذه الصورة أكثر أشكالها تطوراً في عمل لابلاس في أواخر القرن الثامن عشر. فقد رأى لابلاس أن كل ذرة في الكون هي مركبة من مركباتِ آليةِ ساعةٍ كونيةٍ لا تعرف الكلل، وهكذا تحوّل الإله من رياضي مهندس إلى صانع للساعات.**"[٣]

دفع لابلاس بما توصل إليه في الرياضيات بشكل خاص(إضافاته في حساب التفاضل والتكامل)[٤] بالعلم نحو تطوّر سريع جداً في مضمار الفيزياء التي كانت

---

١) انظر : "حساب التفاضل والتكامل والهندسة التحليلية" . ايرل و سووكوفسكي . الطبعة الثانية . ١٩٨١ أشرف على ترجمته مجمع اللغة العربية الأردني: ص ٤٢٨ .

٢) بيير لابلاس (٢٤ مارس ١٧٤٩ - ٥ ابريل ١٨٢٧) ، رياضي وفلكي فرنسي، لأعماله حول تطوّر الرياضيات الفلكيّة فضل يستحقّ الثناء. لخّصَ ووسّعَ أعمال سابقيه في هذا المجال في مؤلّفه المكوّن من خمسة مجلّدات (ميكانيكا الأجرام السماوية (Mécanique Céleste)(بالانجليزية (Celestial Mechanics) 1799-1825)) ، هذا العمل الجوهري حوّلَ دراسة الهندسة من الطريقة التقليديّة إلى طريقة تعتمد على التفاضل والتكامل، فاتحاً المجال أمام المزيد من التحدّي. وبدأ بتطوير الفرضية السديمية في نشأة النظام الشمسي وكان أحد الأوائل الذي افترضَ وجود الثقوب السوداء وفكرة الانهيار الجاذبي.

٣) "الله، العقل ، الكون" : بول ديفز .ترجمة د.سعد الدين خرفان، وائل بشير الأتاسي. منشورات دار علاء الدين، ط٥ ٢٠٠٧. ص ١٠٤ .

٤) اكتشف العلاقة بين "المشتقّة" و"التكامل" نيوتن وذلك في القرن السابع عشر ، كذلك أسهم جتفرد ليبنتز في القرن نفسه في تطوير هذه العلاقة، انظر : حساب التفاضل والتكامل والهندسة التحليلية . ايرل و

الرياضيات لها بمنزلة الحياة للإنسان، حتى سُمّي علم الرياضيات فيما بعد بـ"لُغة العلوم".

لقد كان ذاك اللاهوتي الأشد عناداً من إكويناس هو البريطاني ويليام بالي (١٧٤٣/١٨٠٥). الذي استوحى دوكنز عنوان كتابه" صانع الساعات الأعمى" من رسالة لبالي عنوانها: "في اللاهوت الطبيعي"[(١)] ، وقد ذهب في مطلعها إلى التفريق بين ما هو "بسيط"، وما هو "مركب"[(٢)] (الساعة)، وجعل الكون مركباً مُفيداً من فكرة لابلاس في حساب حركة الأجرام السماوية، أي إن الكون ليس من النمط البسيط بالطبيعة،

=

سووكوفسكي . الطبعة الثانية .ص= (ك) من تمهيد الكتاب. ويذكر أن للمشتقّة تطبيقات في جميع العلوم على الإطلاق لأنها تمكّن الباحث/العالم الفيزيائي والفلكي والبيولوجي وغيرهم من الوصول إلى نتائج غاية في الدقة في حسابات التجارب التي يجرونها، فعلى سبيل المثال تساعد المشتقة في حساب تسارع التكاثر البكتيري عند البيولوجي، وحركة الأجسام السماوية والتنبّؤ بمواقعها بدقة بعد فترة زمنية محددة عند الفلكي. وقس على ذلك العلوم الأخرى طرّا جميعا. ثم أضاف لابلاس "معامله" المشهور إلى المعادلات التفاضلية والتكاملية، الذي سمي بـ"معامل لابلاس" وقد حل به لغزا رياضيا كان عائقا في معضلة رياضية. وقرأ أيضا حول بدايات علم الرياضيات وأثرها في تقدم العلوم وروادها الأوائل:"Calculus and Analytic Geometry". What is ". XV صفحة .Addison-Wesley Publishing Company. 8Edetion. Thomas, FINNEY: ."Calculus?

١) نشرت هذه الرسالة سنة ١٨٠٢ .

٢) لاحظ هنا التحول الخطير بين المذاهب القديمة والحديثة من حيث ترك الحديث عن الصورة، والتوجه نحو الحديث والبحث في دواخل الأشياء وفيزيائها وأجزائها من حيث البساطة والتعقيد، وهو ما لم يقف عنده أغلب الفلاسفة القدماء والمسلمين كذلك إلا لماما خلال حديثهم عن صفات الله تعالى ولم يدفعهم في ذلك رغبتهم في العلم إنما كان الدافع وجود هذه الأعضاء منسوبة إلى الله تعالى في القرآن كالساق واليد، والحواس الأخرى كالسمع والبصر وغيرها مع تنزيهه سبحانه. وليس ببعيد عن ذلك مفهوم "التاو" الصيني وقد اتخذ طابع فلسفي في البداية ثم تحول إلى ديانة بعد اختلاطه بمفاهيم جاءت بها السياسة الصينية وكان آخرها عبث ماوتسي تونغ في هذا المفهوم، والتاو يتصف بصفات "الروح" فاعلة مرة وغير فاعلة أخرى، ومرة فياضة(موحية)، وأخرى ليست كذلك، وهو يعني في أصل اللغة الصينية (الصراط المستقيم) على حد قول مؤلف الكتاب،أما التاو في الفكر الديني إن جاز إقحام التاو في "الدين": " التاو إذن هو البسيط الذي هو مبدأ كل الأسياء، إذا استخدمنا لغة الفلاسفة المسلمين، وهو بهذا التحديد يمكن أن يكون مقابلا لـ(الباري)، المحرك الأول، مع فارق أساسي هو أن الفيلسوف التاوي لا يميل إلى تحميل مطلقه بعدا مفارقا لأنه لا يتعامل مع الألوهية". "كتاب التاو". تأليف : لاوتسه، و تشوانغ تسه. ترجمة هادي العلوي. دار الكنزو الأدبية. بيروت –لبنان. ط١. ١٩٩٥ . ص١٦ . ويسبق ذلك بقوله:" وينمو التاوعند لاوتسه وتلاميذه فيصبح هوالمبدأ والمآل. المبدا الذي تأتي منه كل الأشياء، والمآل الذي ترتد إليه كل الأشياء. ويقول "محيط الكلمات الصينية"(مرجع صيني معجمي-الباحث) إن التاو هو القانون الطبيعي أوالكيان الذاتي للأشياء." المرجع السابق .ص ١٥ . قارن ذلك بقوله تعالى ((هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم))[الحديد :٣].

لذلك يفرض المنطق - فرضاً لا نقاش فيه عند بالي- أن كل مركب (كالكون) لا بد له من صانع، واتخذ بالي من "الساعة" رمزاً لكل ما هو مركب آلي مصنوع لأداء غرض غائي[١]، وقصد به الكون، وقد ساق دوكنز جزءً من قول بالي وأبدى إعجابه[٢] به مع مخالفته إياه –فيما سيظهر لاحقا- ولا بد هنا من الانتباه إلى قول دوكنز في رسالة بالي: "وأنا معجب به"، وهو مظهر من مظاهر الإعراب عن الود الذي يكنّه لعدوّه في العلم والحوار، ولعل دوكنز بذلك يكسب ودّ قارئه عندما يقرأ التصريح بالإعجاب بالخصم، وهو ما يفضي إلى الشعور بحيادية المؤلف وموضوعيته، وهذا التصريح بالإعجاب- لا شك- دافع من دوافع الثقة التي سيكنّها القارئ للمؤلف فيما سيأتي من كلام ولو كان مخالفاً لمعتقده الديني، وكلام دوكنز كذلك، أي يذهب لتحطيم فكرة "الهندسة" بلطف وهدوء ، وينسب الصناعة/الخلق إلى الطبيعة بأسلوب خاص به ستظهر براعته في الحجّة والبرهان والحوار والمثال وهي المصادر الأساسية لأسلوبية دوكنز في لغته ، وسنقف عندهما بشيء من التعليق الذي ننسبه إلى سيمياء العلامة في الأسلوب والسياق.

لم تكن محاجة بالي بوجود خالق للكون مسيحية فقط، بل هي محاجة الصانع المهندس البارع، وكل مؤمن بإله له المواصفات التي يتحدث عنها بالي، وهي محاجّة معلومة لدى الصغير والكبير ولا داعي هنا لاقتباسها حرفيا[٣]

---

١) ولا زالت "الساعة" إلى اليوم تُتّخذ رمزا للتصميم الدقيق الغائي الذي يقف وراءه صانع ماهر، انظر في الاقتباس الآتي : "فالأجرام السماويَّة مثلاً تؤلِّف تصميم ساعة عظيمة توقِّت جميع ساعاتنا. ولها هذه الميزة بالنسبة إلى ساعاتنا بأنَّها لا تتعطب ولا تتوقَّف. فإذا كانت الساعة تفترض وجود ساعاتي ماهر قام بعملها فكم بالحري يفترض الكون خالقًا أوجده بهذا النظام الدقيق. وهذا الخالق حتمًا عظيم الذكاء نظرًا لأعماله، فهل من المعقول أنْ يعمل عبثًا ويتخلَّى عن مخلوقاته فلا يهمّه مصيرهم؟". **العناية الإلهية**.الخور أسقف ليون عبد الصمد. موسوعة المعرفة المسيحية. مصدر سابق.

٢) بقول دوكنز :" وصانع الساعات في عنوان كتابي قد اقترضته من رسالة مشهورة لوليم بالي عالم اللاهوت في القرن الثامن عشر ... وأنا معجب بهذا الكتاب أشد الإعجاب لأن الكاتب قد نجح في أن يفعل في عصره ما أنا أكافح لفعله". صانع الساعات الأعمى. ردشارد دوكنز. ص ٢٥

٣) اقرأها حرفيا في "صانع الساعات الأعمى": ص٢٥.

تتخذ "الساعة" بعدَين في اللاهوت؛ الأول: بمعنى "أزلية" الخالق وفناء المخلوق. والثاني: مفهوم "التركيب"، أي؛ تركيب "الساعة" من "أجزاء"، وهو ما يضاهي تركيب العين عند المخلوقات لا سيما الإنسان، أو الأعضاء والأجهزة الفيزيولوجية عند الكائن الحي. والمفهوم الثاني هو ما يعنينا هنا أكثر، مع أننا نلخص مفهوم الساعة/الزمن، الأول في اللاهوت بالرسم الآتي :

- **الساعة/الزمن بالنسبة للخالق :**

...... ⟵———————⟶ ......

تشير النقاط المتقطعة في البداية والنهاية إلى لانهائية الزمن من حيث المبدأ والمنتهى.

- الساعة/ الزمن بالنسبة للكون.

. ⟵——————— .

تشير النقطة في البداية إلى بداية معلومة للكون لدى الخالق، والنقطة في النهاية تشير إلى انتهاء الزمن وتوقف مسيره بالنسبة للكون الذي سينتهي عند زمن لا يعلمه إلا الله سبحانه (انهيار الكون- قيام الساعة).

وعلى مستوى "التركيب/التعقيد" المضاد "للبساطة"؛ فإن للبيولوجيين مفهوماً مناقضاً تماما لنظرة بالي، وأكثر من ذلك - كما أشرنا سابقا- فإن مفهوم المخلوق في الفلسفة القديمة تعارضه النظرية البيولوجية بشدّة فالمخلوق صورة تحققت، وفي البيولوجيا الكائن الحي (صورته وكنهه) ليس إلا مجموعة من الأعضاء الظاهرة للعيان، وأخرى غير ظاهرة أي مختفية في أحشائه، أوجدها التطور عبر ما يسمّى "بالانتخاب الطبيعي"، وهو إحد ميكانيكيات تغيير (تطور) الكائن الحي بما يتلاءم و الطبيعة التي يحيا فيها كما تذهب نظرية دارون، ولكن بشكل معكوس، أي إن الانتخاب الطبيعي يعمل في الأجيال عمله - عبر زمن طويل- تغييراً وتحسينا أو تقبيحا بلا وعي ولا هدف غائي مرسوم، بقصد تحسين أداء الكائن الحي في الطبيعة

وزيادة عمره أو تكثير جنسه في حين يعمل الصانع من حين لآخر لتحسين صناعته ورفع كفاءتها.

بل إن هذا كله في الطبيعة يحدث بلا تخطيط ولا إرادة، أي بعماء كامل. من هنا كان "صانع الساعات" **أعمى**، أي ليس له بصيرة فيما سيحدث لمصنوعاته لذلك تجد أن الانتخاب الطبيعي أحيانا يأخذ بالكائن الحي إلى الوراء لا إلى التقدم، بحيث لا يملك تبصّرا للأمام فيما يفعل خلافاً لمن يصنع الساعة حيث لديه تبصّر للأمام، بمعنى أنه يخطط أجزاء الساعة، ويوكل لكل ترس فيها وظيفة محددة، تفضي عمل تروسها جميعا لأداء وظيفة وهي حساب الوقت مثلا، وقس على ذلك صانع الطائرة والسيارة وغيرهما مما يوصف بـ"المركب" الذي ضاهاه اللاهوتيون بالكون، واستنتجوا أنه لا بد من صانع يقف من وراء هذه الأشياء، والكون ليس ببعيد عن الطائرة والساعة مثلاً.

"حِجاج" بيولوجي لاهوتي- إقناع:

يُؤْثِر - أولاً - دوكنز استعمال كلمة (حِجاج)، ولا يخفى على القارئ ما فيها من مقارعة الحُجة بالحجة، وهو منهج علمي بحت، إذ لا يعترف العلم إلا بالحجة القاطعة[1]، في حين لا يستطيع أن يتهرب منه بالي واللاهوتيون لأنهم لو فعلوا- لكان ذلك منهم اعتراف بالضعف وقلة الحيلة وهشاشة الفكر، وإعلان عن عدم قدرتهم على رد الحجج، وبالتالي استسلامهم للمنهج العلمي الطبيعي، وهو يمثل بالنسبة لهم ساحة للعراك منذ عصور، نتيجتها محسومة مسبقا لصالح العلم، لأنه لا يتأيّد إلا بالدليل المحسوس، وليس هذا من شأن الفلسفة- العلم- اللاهوتي.

---

١) وهو ما ندعو إليه ليكون ممارسة يومية ومدرسية وجامعية في شؤون الحياة كلها.

وبذلك فقد جرّ دوكنز خصومه إلى محاجّة لا باع لهم فيها، فإذا سألوه عن دليل أتى به أمام أعينهم، وإذا سألهم عن دليل قالوا: هي هندسة الرب.

البساطة والتركيب:

– **القمر "بسيط"، والكائن الحي "مركب". فما هو معيار البساطة والتركيب؟**[1]

سؤال يوجّهه دوكنز إلى بالي وغيره من اللاهوتيين بشكل غير مباشر. ويجيب عليه بقوله: " إن أول نقطة هامة تعنُّ لنا كصفة رئيسية للشيء "المركب" هي أن له بنية غير متجانسة، إن **المهلبية واللبن الوردي** بسيط، بمعنى أننا إذا قسمناها إلى جزأين، فإن الجزأين سيكون لهما نفس التركيب الداخلي، **فالمهلبية** متجانسة أما **السيارة** فغير متجانسة"[2].

والغرض من التوصل إلى فصل في هذه المسألة غاية في الأهمية؛ و ذلك لأنه يمكّننا من معرفة أو فهم كيف تم تركيب المركب؟ وهل –فعلا– له مُركِّب/صانع/ من جنس ما كما يذهب وليم بالي؟ أم **تدخلت الطبيعة في تركيبه؟** وهو الهدف الذي يسعى دوكنز إلى الوصول إليه بهدوء في **الحجاج**. ويلحظ هنا في لغة دوكنز أنه يميل إلى أبسط الأمثلة وأقربها فهما، فعندما يناقش قضية العشوائية التي لا يمكن أن تثمر عن طائرة مثلا أو ساعة يسير بها مع اللاهوتيين منطقيا، أي يقرّ بإنه لا بد لها من صانع، ليصل إلى ضحد الفكرة في الكائنات الحية في النهاية، ولا أشك في أن موافقة دوكنز للمبادئ اللاهوتية في هذا الشأن له قصد غاية في الذكاء، أسلوبه هذا في الحقيقة يأتي لمسايرته هو لا لمسايرة خصومه، ويقول مثلا تجاه "ساعة" بالي:"...وسأشرح هذا كله، وأمور كثيرة إلى جانب ذلك،**على أن شيءً واحدا لن أفعله هو الاستخفاف بروعة "الساعات الحية"** التي ألهمت **بالي** على هذا النحو"[3]. ويندرج قوله هذا تحت ما قيل قبل قليل، حيث يوظف **عدم الاستخفاف** في رمزية القيمة

---

١) انظر صانع الساعات الأعمى: ص ٢٨ .

٢) المرجع السابق. ص ٢٨

٣) المرجع السابق .ص ٢٧

الأخلاقية في **الاحترام** الذي يبديه تجاه رأي عدوه بالي، وغنيٌّ عن القول إن هذه القيمة الأخلاقية(احترام الخصم ورأيه) لها منزلة رفيعة لدى البشرية جمعاء.

وفي معالجته لموضوع "العشوائية" في الطبيعة نراه يستخدم المثال الواقعي البسيط للغاية كاحتمالات كشف كلمة السر لفقل دراجته، وقلة احتمال ذلك بالعشوائية تماما كما يفرض منطق تركيب الشيء "المركب"، وتكوين جبل من رمي عشوائي للصخور والأتربة، مع أن الجبل مدرج في قائمة البسيط لا المركب.

ثم يحصر دوكنز المسألة في الكائنات الحية ويدخل خصومه إلى اختصاصه، وهو علم الحيوان، ويضع من خلال ذلك معيار التفريق بين البسيط والمركب، وبذلك يجر خصومه إلى المنطقة التي تقع تحت سيادته المطلقة في العلوم التي لا يستطيع خصومه مجاراته فيها، والسبب في ذلك المغالطة التي لم يدركها خصومه، وهذا يدخل القارئ -لاهوتيا كان أم غير ذلك- في سيمياء الخطاب والتخطيط الفكري، فهو يتحدث بمنطق المحسوس الذي يستطيع تقديم عشرات الأدلة عليه- وقد فعل - في حين لا يملك خصومه إلا الحديث عن غيبيات مُغيّبات عن المعقول، "فالدين الشخصي البحت يمكنه أن يعيش حتى في أكثر العصور علمية دون أن يعكر صفوه شيء طالما أنه يتجنّب التورط في أية تأكيدات يمكن للعلم أن يضحدها"[1]. لكن اللاهوتيين أصروا على الخوض في هذا التورط[2]، وذهبوا محاولين ضحد كثير من التأكيدات، وقد كابروا فيها حتى النهاية إذ ظلّوا يعدّون أمثلة دوكنز من قبيل النظرية (بسبب ما يدعون من فقدان "حلقة الوصل المفقودة" في مبدأ التطور). وفيما يخص عالمنا الإسلامي فإن سيمياء "المصطلح العلمي الطبيعي" غير معروفة ولا بأية طريق، وليس لها ملامح لأنها تقع خارج نطاق المعرفة العلمية البحتة. يقول أركون: " إن التجربة التي سنجريها الآن

---

١) الدين والعلم : بتراند راسل . ص ٤- ٥ .

٢) وفي العالم الإسلامي لاهوتيون أقحموا أنفسهم في الحجاج العلمي الديني فيما سمّوه"الإعجاز العلمي في القرآن الكريم". كأستاذ الجيولوجيا زغلول النجار ، ورئيس جامعة الإيمان في اليمن الشيخ عبدالمجيد الزنداني. وفي السعودية أنشأت السلطة الدينية هناك مؤسسة سمّتها"هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة".

تبدو غير ذات جدوى في نظر الوعي الإسلامي. ذلك أنه طبقا لهذا الوعي فإنه لا توجد معرفة (علمية) صحيحة لم تكن قد اكتشفت وعرفت من قِبل التراث الإسلامي. ثم إن أضاليل العلوم الحديثة لا تخدع إلا أولئك الذين انجرفوا في خط الغرب"[١].

وعلى صعيد التفريق بين البسيط والمركب وهذه هنا نقطة بداية الحِجاج الذي سيسفر عن نتائج محبطة للاهوتيين فيما بعد، فقد وضع دوكنز المعيار التالي: "على صعيد الكائن الحي فإن الصفة التي تتحدد مسبقا(على غرار صفة التصميم في الساعة /الباحث) هي بمعنى المهارة، أما المهارة فهي قدرة معينة مثل الطيران بالمعنى الذي قد يثير إعجاب مصمم للطائرات، أو المهارة في شيء أكثر عمومية مثل درء الموت، أو القدرة على نشر الجينات بالتكاثر. ودرء الموت، هو أمر يجب أن نعمل له، وعندما يترك الجسد وشأنه عند موته فإنه يرتد إلى حالة التوازن مع بيئته..."[٢]، ولا يمكن تجاهل هذا المعيار هنا- على الأقل من الناحية الشخصية لي- لأن جميع أعضاء الكائن الحي قد خلقت كي تمكنه من أداء هذه المهارة التي هي في الأصل سبب معاشه، لأنه الطائر بالطيران يلتقط رزقه، وسباحة السمكة في البحر من أجل ذلك أيضاً.

إن الأشياء الحية في الطبيعة لها عند البيولوجيين هدفان اثنان، الأول: البقاء حيا ما استطاع إلى ذلك سبيلا[٣].

---

١) "تاريخية الفكر العربي الإسلامي". محمد أركون. ترجمة: هاشم صالح. مركز الإنماء القومي- بيروت. ط٢. ١٩٩٦ . ص ١٣٢ . ويتابع أركون بعد ذلك بكلامٍ مفيد، ويقول :" ولكن نجد في الوقت ذاته أن الحقيقة الموضوعية تضطرنا إلى القول بأن الرفض الأكثر تعنتاً للثقافة الغربية يجيء عادة من أولئك الذين يجهلون كل شيء عن تقدم المعرفة وإنجازات العلوم الإنسانية الحديثة منذ ١٩٥٠ ، ثم الشروط الواقعية التي تحققت فيها إنجازات هذه العلوم. إن كتّاب المسلمين ومؤلفي الكتب المدرسية والجامعية يستمرون في نقد الاستشراق انطلاقا من بعض كتابات أرنست رينان ولابي ول، وغوتييه..". المصدر السابق. ص ١٣٢ . وأركون في السطور السابقة ينطق بلسان حالي تماماً، وآثرتُ إتمام كلامه الدّري في الحاشية لأنه لا يتعلق بالموضوع بشكل مباشر وواضح، مع أن له صلة في التوجيه الفكري الذي أدعو إليه و جاء ذكره في مهاد هذه الدراسة.(الباحث)

٢) صانع الساعات الأعمى: ص ٣٢ .

٣) من ذلك ظاهرة الافتراس ومهارة الحيوان في أدائها، عند الإنسان المكر والخداع والغش والتسلق في المناصب ليحقق لنفسه وجودا أرقى من وجود أقرانه كما يفعل الحيوان في الطبيعة خصوصا إذا تعلق الأمر بمسالة الرزق لأنها تعني استمرارية الحياة في العصر الحديث ،التي توفر له حياة أفضل، ثم إذا تعلق الأمر بعلاقته مع الإناث لأن الذكر يميل إلى نشر حيواناته المنوية على أكبر عدد من الإناث لو استطاع إلى ذلك سبيلا ، وتفوق الإنسان على الحيوان في مثل هذه الطرائق بسببه رقي دماغ الإنسان عنه في الحيوان.

والهدف الثاني هو: حفظ النوع، أي التكاثر، والهدفان غريزيان كما تلاحظ، لذلك كانت الطبيعة **عمياء** في تصميم كائناتها الحية عند التطوريين، وهذه الكائنات ليس لديها المعايير الأخلاقية "الجوازية/ الاختيارية مقابل الجبرية" التي يملكها الإنسان، ولو وجدنا مثلها لكان نوعا من الغريزة كاحتضان الأنثى لأبنائها وحمايتهم.

هنا يتأتي لدوكنز وجود هذه "المركبات" أي الكائنات الحية، ليس لأداء وظيفة مُعدّة مسبقاً كالساعة والطائرة والسيارة وغيرها. إذن الكائن الحي في الطبيعة يؤدي غرضاً لا وعي له فيه، وهو فقل دائرة الحياة واستقلابها (توازن الطبيعة)، وليس لدى الطبيعة وعي كوعي قبطان الطائرة بقدرة طائرته على التحليق مثلا. وإذ ذاك تجد الفرق واضحا في مسألة التركيب والبساطة، فالتركيب في الأشياء غير الحية فيه تبصر للأمام لأداء مهمة ما.

أما التركيب في الكائن الحي **إنما هو للبقاء ليس إلا**، وفقط للبقاء الذاتي والنوعي على السواء، وهي وظيفة تنسجم مع أزلية الطبيعة واستمرارها في الوجود الفعلي كما يذهب التطوريون الماديون، ثم إن تركيب الكائن الحي - لا سيما الإنسان- لا يوجد فيه ما يؤهله لأداء وظيفة غير البقاء (**تحصيل الرزق [المحافظة على الحياة] درء الأخطار - التوافق الاجتماعي مع الآخرين كي يكون مقبولاً بينهم من ناحية قطيعية - الإنجاب [حفظ النوع]**)، بعد نزع المعايير الأخلاقية التي وجدت لتخدم مجتمع الإنسان وتنظمه حسب رؤية ذلك المجتمع أو الدين أو بهما معاً.

ولا شك أن للأخلاق معايير مختلفة من مجتمع لآخر، وضوابط متنوعة انطلاقا من فهمهم لمعنى الأخلاق، الذي اختلف فيه منذ بوذا على ما نعرف، أي قبل الفلاسفة اليونانيين الذين كان عدد منهم صدى لتعاليم بوذا في الفضيلة التي هي سبب وجود الإنسان على الأرض في نظره.

ثم يناقش دوكنز علاقة الفيزياء بـ"التركيب"، وعمل كل جزء مركب بشكل متناغم مع الأجزاء الأخرى لأداء المهارة أو الوظيفة المعاشية للكائن الحي، ويحتاج كما يصرح إلى أن قوانين فيزياء لا تكتفي بالتعامل مع ما يمكن ملاحظته وقياسة، بل يحتاج فهماً أكثر لكل جزء مركب على حدة، وبالتفصيل، ومعرفةً حول مادته وسلوكه.

وما استغربه هنا هو عدم إشارته لجهود ماكس بلانك و"نظرية الكم" Quantum Theory ، ربما تجاهلها لأنه يكتب لمن لا يعرف شيئا في الفيزياء، وماكس بلانك[1]وضع سنة (١٩٠٠) ثابتا رياضيا سمّي فيما بعد بـ"ثابت بلانك"، الذي أدخل به الفيزياء إلى نطاق دراسة مكونات ما تحت الذرة، سلوك الإلكترون وطبيعته[2] بشكل خاص، وهل تنطبق قوانين الفيزياء المعروفة في الطبيعة التي يدركها عقل الإنسان في الأحجام المتوسطة تقريبا على هذه الأشياء، أي ما تحت مستوى الذرّة؟ وهنا نريد أن نسلك سبيل الفيزياء، وما اكتشف فيها فيما يخص البحث فيما تحت الذرة للوصول إلى تفسير بيولوجي باستخدام "الكم" لمعرفة ماهيّة الحياة التي ستفضي بنا إلى فهم طبيعة سيمياء " الصورة" في الكتب المقدسة ، "الروح" و"النفس" ، وما علاقة "الحركة الدائرية للإلكترون بشكل خاص "Electron spin في المستوى الكمي

---

١) انظر كتاب: "الله، العقل، الكون": بول ديفز: ص ٦٤. حيث كتلة بلانك من رتبة ميكروغرام (١٠-٣)، ومسافة بلانك (١٠- ٣٣ سم)، وزمن بلانك (١٠- ٤٤ ثانية).

٧٧) للمزيد حول ميكانيكا الكم انظر:====

: PRINCIPLES OF QUANTUM MECHANICS: as Applied to Chemistry and chemical Physics. Donald D. Fitts. CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS)..edition 2002. الفصل الأول ص١ ، والفصل السابع.ص ١٧٤. chapter1, chpter7. ===

يقول المؤلف لتوضيح المبادئ العامة للنظرية وتطبيقاتها في حقل الفيزياء، والبيولوجيا وهو ما يهمنا في هذه الدراسة:

"Applications of quantum behavior give us transistors, computer chips, lasers, and masers. The relatively new field of molecular biology, which leads to our better understanding of biological structures and life processes, derives from quantum considerations. Thus, quantum behavior encompasses a large fraction of modern science and technology". ص١

وانظر كذلك : مجلة العربي. وزارة الإعلام بدولة الكويت. العدد 547 /4/13 الثلاثاء 1 يونيو2004 . مقالة مترجمة إلى العربية بعنوان : ميكانيكا الكم ..عالم من الأسرار في قلب الطبيعة. كتبها : إرفين شرودنجر.

البيولوجي - لا الفيزيائي البحت- في بث نَفَس الحياة في الكائنات الحية. قد يبدو هذا بعيدا عن الموضوع إلا أنك لو تأملت المرامي والأهداف من سلوك هذا المسلك العلمي البحت سوف تتوصل إلى شيئين مهمين؛ **الأول**: أن سيمياء المصطلح العلمي ممزوجة بشكل غير ملحوظ بوضوح في البحث اللغوي –الذي هو أصل الفهم السيميائي له وسيضيف للبحث السيميائي بُعدا جديدا- وهذا البعد لا بد أن يسفر عن طرح فكري جديد كي يسمى بحثا حقيقيا.

والثاني وهو الأهم من الأول الذي يبدو شكليا: أن البحث في سيمياء المصطلح العلمي وفهم سيرورته ومتابعة تغيره- لأن العلم متغير ومتطور- سيفضي إلى تغيير دائم، بل تطوير دائم في الحراك الفكري. وبهذا لا تنفصم اللغة عن الفكر بمفهومه التقليدي الذي يعني التنظير في الاصطلاحات، ولا يفضي لسلوك إنساني، فمقولة : إن الفكر لا ينفصم عن اللغة، وأن اللغة أداة الفكر أو هي الفكر في حد ذاته ظلت حبيسة هذا الفهم التنظيري لأن الإنسان لا يفكّر إلا بلغة.

للأسف فإن الإنسان ظل يفكر ويتأمل ويتأرجح بين الأفكار التجريدية مستخدما اللغة بعيدا عن الفعل لأنه حبس اللغة في مجال "النظر" فقط، أو الموقف الاجتماعي: "لكل مقام مقال".وأقصى البحث اللغوي عن لغة العلوم.

إن علينا هنا أن نسأل دوكنز: ماذا لو طرح مثل هذا السؤال عالِمٌ فيزيائي أو بيولوجي على اللاهوتي وليم بالي، ومن سار مساره، وما علاقة العالِم البيولوجي بذلك، أن هذا كله يدخلنا في حقل الرموز بكل يسر، لأن دوكنز- مع أنه لم يطرح السؤال السابق- قد جعل هذه الأحاجي العلمية بسيطةً ومركبةً في الوقت نفسه، فهي **بسيطة** من حيث معرفة اللاهوتيين بأن **المركب** له أجزاء، وكل جزء منها له جزء أصغر منه، لا بد- عند العلماء وليس عند اللاهوتيين- من الكشف عن **"المركب"** ودور كل جزء فيه على حدة، وممَ يتكون أصل هذا الجزء ؛ هذا إذا أردنا معرفة "السر الإلهي" من هذا التركيب، والغاية المتواخاة منه مجاراةً لفكر اللاهوتيين، ولكننا في حاجة إلى عالِم آخر ليساعدنا على فهم دور كل جزء، وبالتالي نصل إلى اتفاق حول

"سر الخالق" في مخلوقاته وإتقان ما صنع حيث ركب كل جزء بطريقة تخدم الغرض النهائي للكائن الحي (الإنسان خاصة) وهي طاعة الخالق.

لم يغب عن ذهن دوكنز غاية اللاهوتي في التوصل إلى ضحد فكرة التطور وإلغاء "الانتخاب الطبيعي" من قاموس العلم ؛لأن الانتخاب الطبيعي قد فشل- في نظر اللاهوتي –في تبرير تركيب الكائن الحي/ **"الساعة"** لعدم قدرته على مُسلسلة الخلق من الخلية الأولى إلى الآن، وهو ما يسمونه "الحلقات المفقودة" في حجاجهم، وإذا دققنا في سيمياء اصطلاح (الحلقات المفقودة) في نظر اللاهوتيين؛ فإننا نجدهم يتوافقون والبيولوجيين من حيث يريدون العكس، إذ يعني قولهم (حلقات مفقودة): إن هناك حلقات موجودة بالفعل، ولكن لم يتم الكشف عنها حتى الآن، وهذه حقيقة بيولوجية تطورية لا ينكرها التطوريون.

لقد مهّد دوكنز إلى ما هو **"مركب"** في الطبيعة من كائنات حية لا تبدي غرضا من وجودها مطلقاً، وليست كالساعة والطائرة، ذلك أنها تحيا –على تركيبها- من أجل غرضين غريزيين لا خيار لها فيهما فلا تعيهما، وهما؛ بقاؤها الذاتي، وبقاء نوعها، ولا نراها في الطبيعة تمارس أي نشاط خلاف ذلك. ثم إن أمخاخنا قد صُمّمت للتعامل مع فترة زمنية تمتد إلى عشرات السنوات فقط في أحسن الأحول، أما الانتخاب الطبيعي فهو يعمل ضمن فترة طويلة بالنسبة لأعمارنا، تقع بين مئات آلاف السنين إلى الملايين منها، إلا إن هناك أمثلة على التطور يمكن أن يلحظها الإنسان خلال حياته، كتطور الفايروس في مدة لا تزيد عن جيل أو جيلين من أبنائه عند مقاومته داخل جسم الإنسان بمضاد حيوي، كذلك الآفات الزراعية تطور وسائل حماية لحياتها ضد المبيدات المستخدمة للقضاء عليها. وهناك أدلة كثيرة على ما يسمونه بـ"مُخَلّفات التطور"، كأجنحة الدجاجة التي لم يعد بإمكانها الطيران، وحلمات الثدي عند الرجال، والزائدة الدودية عند الإنسان، وعجب الذنب في نهاية العمود الفقري من الأسفل، و ما يسمّى بـ"طواحين العقل"، والأغشية التنفسية في أرجل البط، وغيرها الكثير، فهذه أمثلة يسوقها التطوريون لإثبات مرور هذه الكائنات بمرحلة من مراحل التطور.

الاصطلاح العلمي والسيرورة الرمزية للعلامة اللغوية :

لقد كان **لأدوين هابل** سنة (١٩٢٠ م) دور كوسمولوجي عظيم يرتبط بموضوعنا ارتباطا يحتاج إلى شيء من التوضيح، وفيما يلي ذلك: اكتشف هابل بملاحظة التغير في طيف اللون الأحمر - الذي يصل إلى الأرض من النجوم في السماء- أن هذه الأجرام تبتعد عند بعضها وتتوسع المسافة بينها كأنها شظايا قنبلة انفجرت[١] ، ويعكس صورة الابتعاد المستمر بين هذه الأجرام السماوية(**حاول تصوّر مقطع فيديو معكوس:من النهاية إلى البداية)**، وصل هابل إلى أن الكون بدأ بانفجار عظيم **Big Bang**، وغاب هابل بعدها عن الأحداث الجسام في العلم.

توصل الفلكيون بعده (القرن التاسع عشر بشكل خاص) إلى أن الكون بدأ بنقطة غاية في الكثافة ومنتاهية في الصغر(الحجم) في الوقت نفسه. هذا في مجمله أدى إلى مبدأ "**النقطة الكونية**"، وانفجرت في وقت من الأوقات، فأدّى هذا الانفجار إلى نشأة الكون، لم يشك اللاهوتيون لحظة بأن مَن بدأ هذا الانفجار هو (الله) سبحانه، ولم يعارض اللاهوتيون فكرة الانفجار العظيم لأنه منسجم مع فكرة وجود خالق، بل يقويها بلا شك لأن الله هو الذي أشعل فتيل هذا الانفجار الذي أدى إلى خلق الكون والكائنات من هذه النقطة المبدئية[٢].

ولكن **هاينزبيرغ** بعد دراسة مُعمّقة في فيزياء الكم توصّل إلى مبدأ فيها غاية في الأهمية سمّاه "**مبدأ الارتياب**"[٣] أو "الريبة" ، ويعني أن قوانين الفيزياء التي تجري بتوازن كبير في الطبيعة لا تنطبق بحال على مكونات ما تحت الذرة (الصورة المعكوسة لمبدأ الانفجار)، وهي النقطة الكونية، بمعنى آخر فإنه لا يمكننا التنبؤ بتصرف مادة الذرة المكونة لها (الإلكترون بشكل خاص)، أي إنها تتحرك بشكل عشوائي يمكن أن يُحدث انفجاراً ذاتياً بلا مؤثر خارجي نظرا لتناهي كثافة (النقطة الكونية الأولى) وتناهيها في الصغر بحيث يؤول حجمها إلى **الصفر، ولا يمكن لأي قانون ضبطه، فضلا عن عدم الدقة في تحديد ماهيته وغيره من**

---

١) كلما زاد بعد طيف ضوء النجم عن طيف اللون الأحمر، زاد بعده عن الأرض وعن غيره من الأجرام، وهذه قيم لا تتوقف عند حد.

٢ للمزيد في الخصومة بين اللاهوتية والعلم الحديث ، والمدارس اللاهوتية وتقسيمها منهجيا، والتي حاولت إيجاد موقف معتدل بين "اللاهوت" من جهة ، و"العلم البيولوجي التطوري" من جهة أخرى بحيث يصلوا إلى صيغة توافقية، انظر مقالة بالفرنسية بعنوان :Evolution et créationnismes . التطور و المدارس الخلقية. مؤلفها: Guillaume LECOINTRE . ترجمة: مختار فكري. وقد قسم الكاتب مقالته قسمين. انظرهما جميعاً، لا سيما ما قاله في حجاج بالي وأتباعه ، فهم عنده : "مخضعو العلم: "التصميم الذكي"، أو تيولوجية وليم بالي التي قدمت بوصفها نظرية علمية". وهو"الساعة" التي ترمز عندهم إلى تصميم الكون الذكي.- الباحث.

٣) للمزيد انظر الحاشية رقم ٧٧ ، الفرع : ١,٥ من الفصل الأول في الكتاب المذكور وعنوان الفرع هناك: . Heisenberg uncertainty principle

مكونات تلك النقطة (الذرة)، ذلك أنها أصبحت في نظرية الكم ليست هي الجزء الأصغر المكون للمادة كما كان يُظن.

وعلى مبدأ هايزنبيرغ (الارتياب) فقد يكون الانفجار حدث ذاتياً بلا مُحدث، لأننا لا نستطيع معرفة مدى قصور مكونات ما تحت الذرة على فعل شيء كالانفجار، أو كمون قدرة ذاتية فيها على فعل ذلك بناءً على التصرف العشوائي غير المحكوم بقانون.

هذا بطبيعة الحال قوّى بشكل لا مثيل له المبادئ البيولوجية لا سيما إثبات أن الكائنات الحية وليدة الطبيعة، ومنها الإنسان، إضافة إلى ما لدى البيولوجيين من أدلة حسية تؤكد ما ذهبوا إليه من تطور المخلوقات (الحيوان بأنواعه. والنبات كذلك) عن بعضها الذي فسّره دارون بالانتخاب الطبيعي، وهذه الأدلة الحسية لا يملكها اللاهوتيون، وعلى ذلك فالأقرب للحقيقة - طالما أن الاحتمالات متساوية بين الطرفين- تميل لمن يملك الدليل، ولقد كان لذلك ثمرة في مجال العلوم كلها أفادت منها بشكل كبير، وشاعت تلك الفائدة في هيئة تبنٍ كامل للفلسفة المادية الطبيعية في القرن التاسع عشر الذي أفضى- بعد الاطلاع على مناهج العلم في ذاك الزمن- إلى تقدم كبير لاسيما في الطب والصيدلة المعتمدين على البيلوجيا والتشريح والكيمياء، ومعالجة بعض التشوهات الخلقية أو تجنبها عن طريق فحص التلائم الجيني بين الزوجين، كذلك الفلك المعتمد على الفيزياء ونسبية آينشتاين بشكل خاص، الأجهزة التكنولوجية المعتمدة على الكهرباء والقوة الكهرومغناطيسية المعروفة كقوة طبيعية.

كذلك عرف البيولوجيون "الطفرة" ، لكنها عند بعضهم أقل تأثيرا في التطور كما يذهب دوكنز. وهكذا تحصّل للبيولجيين منطق فيزيائي يدعّم فلسفتهم في الطبيعة إضافة إلى ما لديهم من تصديق حسّي بالمادية الطبيعية القائمة على الملاحظة الحسية التشريحية كما أسلفنا، وكسبوا معركة ضارية لصالحهم، في حين لم تملك الفلسفة اللاهوتية زمام المبادرة في عمارة الأرض، التي أشار إليها القرآن الكريم: ((هو أنشأكم من الأرض **واستعمركم فيها** فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب))[1] ، بل ظلت رهينة الدفاع عن نفسها، والقتال من أجل البقاء لا غير، لذلك لا يملك اللاهوتيون إلا خطاب الدعوة إلى الحكمة المسطورة في الكتاب، والتمسك بالأخلاق وإخلاص العبادة، وعلى صعيد الاكتشاف والاختراع يمكن معرفة الفرق بين الفهم اللاهوتي وفلسفة العلوم الطبيعية بالمقارنة بين اكتشاف عشرات المزايا لعصا موسى من ناحية، وبين اختراع الكهرباء واختراع مواد التخدير

---

١) [هود : ٦١]

التي تلزم في غرف العمليات الجراحية التي لولاها لقضى كثير من بني البشر نحبهم جراء أمراض تحتاج إلى جراحة، أو أمراض تم اكتشاف علاج أو علاجات لها، وكفى بذلك شهيدا على طبيعة منتجات الاتجاهين في (عمارة الأرض) وخدمة الإنسانية، التي فضّلها الله على كثير من المخلوقات الأخرى، لذلك فإن العاقل يجد أنه من الظلم الرجوع بالمعنى الحقيقي لـ"العلم" إلى عصور الظلام الشرق أوسطية و محاربة اللاهوت للعلم وتحويل معناه إلى "العبث بخلق الله" - هي سيرورة سلبية للمدلول كما ترى- أو نسبة الخيرية المطلقة إلى اللاهوت، أوهضم منتجات العلم الطبيعي التجريبي - وهي اغتصاب سيمياء المدلول- لأن العالِم الحقيقي عند اللاهوتي هو العالِم في شؤون الديانة "لأن فيه صلاح البشر في الدنيا والآخرة" ، واقرأ مقدمة كتاب "مفاتيح الجِنان" مثلاً وهو كتاب بشري بامتياز كما يصرح ناشره، وانظر أوصاف "العلماء" عنده إذ يقول في العالِم الذي ألّف هذا السفر الذي يتوخّى من ورائه خدمة البشرية:

" لا شك بأن الأدعية والمناجيات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من أرقى وأعظم الدعوات، كيف لا! **وهي تحت كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، وإن كبار العلماء** قد ألّفوا في هذا الموضوع كتباً كثيرة، ولكن أحسنها تبويبا، وأجملها جمعا، ومطابقا لمتون الأحاديث هو هذا الكتاب (مفاتيح الجِنان) الذي ألّفه **المُحدّث الكبير، والعلامة الثقة، والحاج الشيخ،** عباس القمّي، **قدّس الله سرّه،** وهو من **أهم الكتب وأوسعها انتشارا بعد المصحف الشريف**"[1] . وقس على ذلك.

❖❖❖

1) "مفاتيح الجِنان" . عباس القمي. مؤسسة الأعلمي- بيروت ط٢ . ١٩٩٨ .ص٣ . وهذا جزء من كلمة الناشر الذي لا يخفى فيه الحس الدعائي للكتاب، وهالة التقديس التي يسبغها على المؤلف، القمي، وهو فعلا موقّر لدى أهل ملته إلى حد القداسة، ويشي الكاتب بأنه هو العالم الذي لا تخفى عنه خافية لا علمية طبيعية ولا لاهوتية إذ يعرف كيف تفتح الجنة أبوابها للناس، ومنحهم بعلمه مفاتيحها، وذلك من خلال الأوردة التي حواها الكتاب =المذكور. أقول: إذا كان هذا النوع من البشر هم العلماء عند اللاهوتين، فمن هم هؤلاء: كبلر وغاليليو وأديسون وباستور ونيوتن وبلانك ومندل ولامارك وولاس وداون وفرويد وماكسول وهارتل ولابلاس وكريس إشام وآينشتاين وديفد ميلز وديملر وكواسيكي وشارل باباج ووليم هارشل رتشارد فيمان وكارل ساغان وتوم توفولي و نورمان مارغولاس وكرس لانغون وفرد كِن . وشتاينهارد وهوكنغ. والأسماء أكثر من ذلك بكثير؟!!!

"المثال- البرهان": "تفعيل المعنى- الإقناع".

يمثل تقديم المثال الحسي أداة إقناعية فاعلة لمن ينظر إلى الطبيعة على أنها طبيعية دون التبصر وراءً بدافع من مؤثر نفسي ذي هيبة ، أو الوقوع تحت وطأة التربية الدينية على أحكام نابعة من فهم شخصي لهذه للكتب ، لأنه أقصر الطرق إلى الجنة حسب ما تُجمع عليه الكتب المنزلة من السماء جميعا، أو تلك "المقدسة" زيفاً والمدموغة بعبارة (صُنع في السماء)، ذلك كله يتم بلا تقديم دليل على وجود عقل أول مدبر أو خالق، من الناحية العلمية. أو لِنقُل: إن الطبيعة العقلية للإنسان- احترز من الطبيعة العاطفية أو التخيُّلية أو التخييل- يصعب إقناعها بشيء على أنه موجود، أو إن له أثراً بلا دليل، قد يكون هذا الدليل وَهْماً من النفس (كتخيّل الجن أو الأرواح التي تجوب المناطق المهجورة)، لكنه إذا كان حسيّاً كان أقوى في الإقناع وأضيق من أن يفر المرء من الاقتناع به إلا على سبيل المكابرة والإصرار على الخطأ، ونحن نقرأ في القرآن أن الله تعالى يطلب من الذين يشكّون في وجوده أدلة على ما يقولون: ((تلك أمانيهم قل هاتوا **برهانكم** إن كنتم صادقين))[1] وقال الله تعالى : ((أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا **برهانكم**))[2] وقال تعالى أيضا: ((أإله مع الله قل هاتوا **برهانكم** إن كنتم صادقين))[3] وقد أورد القرآن الكريم أيضا أنه كان يؤيد رسل الله **ببراهين أو أدلة- أو أمثلة محسوسة**[4] على صدق دعواهم أنهم مرسلون من إله واحد في السماء، فقال عز وجل مخاطبا موسى عليه السلام : ((فذانك **برهانان** من ربك إلى فرعون وملئه))[5]، لذلك علينا أن نتعلم من هذه الآيات البيّنات أن نطلب الأدلة ممن يدعون العلم على صدق دعواهم.

---

١) [البقرة:١١١].

٢) [الأنبياء: ٤].

٣) [النمل: ٦٤].

٤) ككلام المسيح في المهد و كإحيائه الموتى، وكبعث حمار العُزير من الموت، وإيقاظ أهل الكهف من نوم استغرق٣٠٠ أو ٣٠٩ سنين، وغير ذلك كثير.

٥) [القصص: ٣٢].

وطالما أن البرهنة على صدقية القرآن الكريم ككتاب مقدّيس قد تمت - وقد تمت بالبرهنة على ذلك بإعجاز القرآن الذي تحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله ولم يستطيعوا- فعلى العباد الاستبسال في الدفاع عن الدين الحقيقي الذي لا مراء فيه ، وهو نوع من اختبار العباد في طاعة ربهم، والتضحية من أجل مرضاته، أو بذل المال والامتناع عن أفعال محددة (الشرائع) إلخ...، على أنه يصعب- في الوقت نفسه- على الطبيعة الإنسانية الانسياق مع تشريعات الدين بشكل مطلق وتام صارم لا انحراف فيه قيد أنملة، وهذا مثبت بالتجربة اليومية في حياة الإنسان العادي، حتى إن بعض الظن إثم. ومَن فينا لا يظنّ ظنّاً ما من طراز الظنّ المأجور بالإثم - على الأقل- مرة واحدة! من هنا يأتي أمل الإنسان في رحمة الله الواسعة، ويطمع بالمغفرة، وباب التوبة مفتوح لا يغلقه أحد إلا الله سبحانه، فالإنسان- ولا شك - خطّاء.

أما المثال(البرهان) الحسي فهو **سيمياء فكرية، رمزية ثقافية**، أي يمكنها التأثير في الفكر وليست مجرد زيادة في المخزون الثقافي فقط، أو فك شيفرة ككشف لغز للتسلية في مجلة أو على شاشة تلفاز، أو ككشف ألغاز الشعراء المعاصرين، ورمزية الشخصية القصصية أو المسرحية أو الروائية، حيث لا داعي اليوم إلى الترميز من جهة الحظر الفكري الذي كانت تمارسة السلطات ذات الأحكام العرفية على رعاياها في القرن السابق على الصعيد العربي. إلا إذا كان الترميز مقصودا للتكثيف الصُّوري، أو التصوُّري أو الاختزالي أو الإحالي أو الإشاري أو التاريخي أو الأسطوري إلخ...، أو من أجل التفنن في القول ليس أبعد من ذلك، وفي كل هذه الحالات فالرمز يبقى رمزا لما خلفه من مضمون أو مضامين تتنوع الأفهام في الكشف عنها بالخبرة النقدية أو الحدسية أدبيا ونقديا (في الإنتاج الأدبي وما قاربه).

وينساق ذلك أيضا على الفهم المتجدد للقرآن الكريم، الذي لا يتجمد في عصر دون عصر إلى آخر- فإذا تم الكشف عنه، فإن هذه الحالة وتجميدها في زمن ما فهي حالة موت لرمزية الكلمة أو العلامة وفنائها بلا رجعة إلا على سبيل الاجترار والإعادة

ونظرة من زاوية أخرى[1] ولا تحمل رمزية العلامة بعد ذلك مضمونا فكريا ذا تأثير في **طريقة التفكير**، أو وعيا نحو **التنمية الفكرية**، وليس هذا ببعيد عن قدرة الأدب والنقد أيضا، والدراسات اللغوية الأكثر مقاربة لواقع الفكر من الأدب إذا جاز لنا التفريق بينهما، لو قُدّر لهما(الدراسات الأدبية واللغوية) أن يتوجّها إلى مناخٍ فكرية: كطلب الدليل على ظاهرة ما والبحث في صدقيّته[2]، أو تشكيل قناعة، أو تغيير قناعة، أو تبني فكر ، وهجر فكر آخر، أو توعية تاريخية[3]، بدلا من أن يبقى التفسير والأدب حبيسين لـ"التجربة"، أوتوصيفا لـ"مُعاناة" الأديب أو تأويلا جامدا لآي القرآن، التي هي فيما نحسب –بالنسبة إلى الأدب- نتيجة "فقدان" التنمية الفكرية في بيئته التي سبكت تجربته. ولا يبتعد الناقد البصير والأعمى - على حد سواء- عن خطيئة الأديب في الغالب، لأنهما يحاران في مناهج دراسة النص ومقاربة المؤلف نفسه أو نصه، ويتناقشان في هذه المسألة وفي أيهما أجدى للتعامل مع النص وما فيه من رموز. وفي هذه النقطة تحديدا إذا أتمّاها بإحسان أو بسوء ماتت ثقافتهما، وانتهى دور الثقافة نهائيا في الأدب، ثم تدور الدائرة على مؤلف آخر أو نص آخر لإخضاعه للأدوات النقدية وهكذا.

هذا العمل يقع في صميم فك الشيفرات مُقحمةً البحوث السيميائية فيها، التي تفقد كثيراً من قيمتها عند نقطة الوقوف والوصول إلى الدلالة الرمزية في نص أو غيره سواء تم الاتفاق عليها عند النقاد والمتلقين أم اختلفوا فيها "**سيرورة الرمز**". الذي

---

١) وهذا يحدث كثيرا حيث نشاهده على شكل دراسات منشورة أو رسائل جامعية أو كتب أو ندوات أو مؤتمرات إلخ..

٢) من ذلك مثلا في حقل الدراسات اللغوية المعاصرة مقرر جامعي يسمّى "اللغات السامية"، وهي مجموعة من اللغات والعربية واحدة منها، تنسب هذه المجموعة إلى (سام) بن نوح النبي عليه السلام، وليس هناك أي دليل على وجود شخص من أبناء هذا النبي يسمى سام، إنما جاء ذكره في التوراة، وعليه فتسمية المادة المقررة في كثير من الجامعات العربية ليس لها ما يؤيدها علميا ولا تاريخيا ثابتا، إنما اعتمادها في ذلك جاء انطلاقا من التوراة التي يقول المسلمون إنها محرفة، فكيف جاز لنا أن نسمي هذه المادة بهذا الاسم؟!

٣) انظر كمثال على الأدب والخيال الخلاق المؤثر في الوجدان والعقل المرجو تبنّيه قصيدة : "عابرون في كلام عابر". للمرحوم الشاعر محمود درويش. والرموز الفكرية والعقائدية والتاريخية والوطنية في قالب القصيدة الوجدانية التي تتوجه إلى العقل والقلب في آن معا. ومثيل ذلك "قصة بائعة الكبريت" الفرنسية التي كان لها صدى واسع في فرنسا.

لابد أن يفقد طاقته على السيرورة في لحظة تاريخية ما من إنشائه، ولا مناص من إخضاعه للنظرية البيولوجية في التطور عبر ما يسمّى بـ"التناص" أو توالد النصوص كذلك اللغات أيضا[1]، كتوليدية وتحويلية تشومسكي في اللغة (النحو التوليدي والتحويلي) ، إذ يُمِيْتُ النصُّ الجديد برموزه النصَّ القديم برموزه، فيصبح النص الأول مرحلةً سابقة للنص الثاني ، والثاني بدوره مرحلة سابقة للنص الثالث من حيث التعانق الرمزي بينها و بين ما قبلها من النصوص المُرَمّزة . وهي الحالة ذاتها في تطور الأحياء في الطبيعية، فالنصوص المذكورة تتوافق تماما والمنظور الطبيعي، فالنص الأول الأقدم هو الجد، والثاني هو الأب والثالث هو الابن، وهذا الابن في لحظة تاريخية سيصبح أبا ثم جدا وهكذا، ومن الناحية البيولوجية لابد من وجود فوارق- فيزيولوجية أوسيكولوجية- بين الأجيال الثلاثة، وعلى الصعيد اللغوي سنجد ولا بد فوارق لغوية وبلاغية ونصية... في النصوص الإبداعية المتوالدة من بعضها، وهو سيرورة سيميائية تطوّرية أيضا لكن ليست على مستوى نص واحد، إنما على مستوى ثقافي حضاري أوسع.

ولا أغالي- من وجهة نظر شخصية في الدراسات النقدية الاجترارية الشاطحة في التأويلية- إذا قلت إن هذا لا يعدو أن يكون نوعاً من التسلية أو "الترفيه" الذي يدفع إلى الإحساس بنشوة من نوع خاص عند هؤلاء الهواة لأنه لا بد لهم من أن يحلّقوا في فضاء وجداني يعادل - موضوعياً- الفضاء الميتافيزيقي عند الفلاسفة الذي أسفر - على أرض الواقع- في خدمة الإنسانية (أي: عمارة الأرض) عن صفر مرقوم، لا غير. وشواهد ذلك تراها في كتب الفلسفة جمعاء، على حد حكاية الأعرابي الذي نظر إلى مكتبة عامرة بالكتب القديمة، فقال: إني أعرف جميع ما في هذه الكتب، كلُّها تقول : أيّها الإنسان كُنْ خيّرا.

---

1) يقول إبراهيم السامرائي على لسان (ليل) العالم الجيولوجي :" أن الأنواع في الطبيعة، واللغات في التاريخ تتغير تبعا لنواميس متشابهة...والعاملان الجوهريان في اللغات هما التغيّر والانتخاب، وكما يحصل في الأنواع يحصل في اللغات أيضا". العربية تاريخ وتطوّر". د. إبراهيم السمرائي. مكتبة المعارف- بيروت. ط١ . ١٩٩٣.ص٣٧٤ . ولا يعلق الدكتور السمرائي على ذلك بقبوله بهذه الأفكار أو رفضها. ثم يشير في الصفحة المذكورة إلى جهود العالم شلايخر في كتابه "مذهب دارون وعلم اللغات".

أما المثال الواقعي المحسوس فهو نوع من البرهان، ولا شك أن البرهان موجّه للعقل لا للوجدان، وذلك لمن لا ينظر إلى الطبيعة باستخدام منظار وليم بالي، تركبت من أجزاء أرادها الخالق أن تكون على الهيئة التي هي عليها من بين آلاف الاختيارات التي كانت مطروحة بين يدي الخالق أو في "ذهنه" ليختار شكلها الحالي، ثم اختياره للقوانين الفيزيائية التي تحكم موجوداتها، إذا كان هو الذي قام بذلك فعلا.

والأمثلة التي يقدمها دوكنز- في حقل البيولوجيا- لا يقصد بها تغيير المعتقد الديني أو الفكري ، ذلك أن **المثال** عنده هو **برهان** على صحة النظرية البيولوجية فيصبح التأثير في المعتقد الفكري أو اللاهوتي معادلا لما يسمّى بـ"معنى المعنى"، فإن تمت القناعة بالبرهان البيولوجي أو الحسي بشكل عام فإن ذلك يؤدي إلى ما يمكن تسميته بـ"تفعيل المعنى" أي تحويل الفكر من حالة التجريد إلى السلوك. ودوكنز يتحدث بلغة علمية سهلة حول الانتخاب الطبيعي، ودوره في **"تركيب"** الكائن الحي وتطوّر أو تغيّر الأجزاء التي يتركب منها بتأثير من البيئة/الطبيعة بشكل تراكمي مر بعدد يزيد على مئات الآلاف من السنين[1]، وما زال التطور قائماً فهو لا يتوقف عنده. فقضية المحاجّة الأولى بين ما هو **بسيط** وما هو **مركب** صارت في عِداد القضايا المقطوع فيها عنده، وبذلك يترك اللاهوتي في لاهوته ويخاطب "المفكر" أو الباحث عن المعرفة بعيدا عن "الأضاليل" التي يروج لها كثير من اللاهوتيين المنتفعين باللاهوت، دون أن يقدموا أدلة على ما يدعون ، وهي –من وجهة نظر علمية- ليست أدلة تُثبت شيئاً، فهي في أمس الحاجة لما يُثبتها قبل أن تكون مصدرا للحقائق المطلقة على حد تفسيراتهم المختلفة للظواهر.

إن هذا الفعل الذي يمارسه دوكنز في كتابه من أمثلة للبرهنة على التطور كفيل بأن يشد القارئ- لاهوتيا كان أو غير ذلك[2]- إلى ما يحكم به العلم في قضايا

---

١) يتم ذلك بمعرفة " عمر النصف" لعنصر الكربون للكائن المستحاثّ، وفي القرن الحادي والعشرين عرفنا أنه قد ظهرت تقنيات أكثر دقة في تحديد عمر المستحاثات، ولا أعلم حتى اليوم عنها شيئا يستحق شرحه هنا.

٢) قد يراود اللاهوتي قراءة الكتاب كي يفهم النظرية البيولوجية من أجل ضحدها، وهو هنا ليس قارئا حياديا، وقد يقرأه غيره من أجل العلم فقط، إلى آخر تلك الغايات الكثيرة، لكن الكتاب منسوج بطريقة

الكائن الحي، بعيدا عن الغيبيات، ومقولات الفلاسفة، هاجرا ميتافيزيقية اصطلاحاتهم الثقيلة: كالنفس، والروح، والعقل الفاعل، والعقل الهيولاني، والوجوب، واللزوم، والمُكوّن الأول، والصورة الذهنية، والفضيلة، والأخلاق وغيرها.

المثال البيولوجي –البرهان:

يقول دوكنز: " سوف أبسط مثلا حقيقيا بذاته أؤمن بأنه مما يؤثر في أي **مهندس**، وهو جهاز **السونار(الرادار)** عند الخفافيش[١]. وفيما يلي سأشرح كل نقطة. سوف أبدأ بطرح إحدى المشاكل التي تواجهها الماكينة الحية، ثم **أنظر في الحلول الممكنة للمشكلة** التي قد ينظر فيها مهندس ذو إدراك، وسوف أصل في النهاية **إلى الحل الذي اتخذته الطبيعة بالفعل**. وهذا المثل الواحد هو بالطبع للإيضاح فحسب، وإذا تأثر مهندس بالخفافيش فإنه سيتأثر بأمثلة أخرى لا تحصى من التصميم الحي."[٢]

والوقوف عند الكلمات الآتية يكشف عن رمزية فكرية، أي تعمل عملها في فكر القارئ:

أولها: **جهاز السونار (الرادار)** وهو جهاز معروف في هذا العصر، وأهميته تأتي من تركيبه من أجزاء لأداء وظيفة بالموازنة مع الكائن الحي المركب من أجهزة عضوية، وفي المثال تحدٍّ غير ظاهر للتوصل إلى أن الأجهزة العضوية في الكائن الحي ليست مصممة كالسونار لأداء وظيفة محددة[٣]. وهو عكس ما تقول به فكرة الخلق. ثم عدم إشارة المؤلف لهذا التحدي هي نوع من الخطاب الرائق الذي لا يقصد به استفزاز =

تدفع أي مثقف من أي طائفة كان إلى مواصلة وفهم ما يقول المؤلف، وقد كان ذلك ماثلا في ذهن المؤلف لأنه لم يكتب بلغة علمية للمتخصصين فقط.

١) الخفاش ليس له عيون، ويملك بديل ذلك جهاز السونار أو الرادار الذي يستخدم الموجات الصوتية ذوات الأطوال القصيرة جدا، ولديه طبعا الجهاز الواقع في ناصيته لإرسال واستقبال الموجات الصوتية المنعكسة عند اصطدامها بالأجسام، وهذه الموجات من السرعة والقصر بحيث تمكّن الخفاش من تحديد مواقع الأجسام في الظلام، والثابت منها والمتحرك، وأهمية ذلك هي منحه القدرة على البقاء لتجنب الأخطار ثم التعرف إلى فريسته، وسرعتها إذا كانت تتحرك في الكهف الذي يأوي إليه أصلا هربا من الأحياء التي لها عيون قد يكون هو فريسة لها؛ لأنه لا يدرك باستخدام راداره طبيعة الكائن أهو مفترس للخفافيش أم مسالم تجاهها.

٢) صانع الساعات الأعمى: ص ٤٥- ٤٦ .

٣) لا يخفى على المتبصر أنه إذا ثبت ما قال دوكنز فإن ذلك سيفضي إلى إلغاء دور الخالق في الطبيعة. في حين لم يصرح بذلك مطلقاً.

خصومه، ويشي مباشرة بأنه يتحدث بلغة العلم لأي قارئ، وليس في ذهنه محاجّة اللاهوتيين.

ثانياً: نجد في خطابه كلمة "**المهندس**" ويقصد به الطالب الذي تخرج في كلية الهندسة من أية جامعة في حين ترمز الكلمة إلى شيء آخر، وهو المهندس الأول الذي صمم العالم، لأن **مهندس** دوكنز يتأمل في تركيب الأشياء وتعقيدها محاولا فهمها وإدراك الغايات التي صُممت من أجلها، للإفادة مما يرى في تصميم شيء آخر، وهو كما ترى لا يصرح بعبارة : مهندس الكون أو مصممه أو مركب أجزائه إلى بعضها، ذلك للغرض الذي ذكرناه آنفا وهو تجنب محاجة اللاهوتيين بشكل مباشر، فهو لا يريد إدراج أمثلته البرهانية تحت باب المناظرة العلمية اللاهوتية.

ثالثا: يستخدم تدليلا على اتفاقه على تركيب الكائن الحي وأدائه لوظائف حيوية في الطبيعة كلمة (الماكينة الحيّة). فحتى هذه اللحظة لا يمكن للمتطرف اللاهوتي الوقوف على نوع من المحاجة الميتافيزيقية أو الاستفزازية التي تخرج الموضوع من حقل العلم والدراسة الأكاديمية إلى شخصنة تعنتية لا طائل من ورائها. مما يكسبه توادّ القارئ والمواصلة حتى يرى الحل الذي اتخذته الطبيعة في تطوير رادار للخفاش. ثم يترك للقارئ الحكم على النتيجة، لاسيما أننا نعرف أن دوكنز والمفكرين الكبار جميعا لا يمتازون بقهرية منظورهم للأشياء ، والعلماء فئة من البشر تعرف أن للكون وموجوداته وجوهاً كثيرة[1]، وفيه المتناقضات، فلا يسير على التعبير القرآني الكريم على لسان فرعون: ((**لا أريكم إلا ما أرى ولا أهديكم إلا سبيل الرشاد**))[2] أي أحادية النظرة المفروضة. ويستبين ذلك أكثر في قوله : " **ثم أنظُرُ في الحلول المُمكنة للمشكلة**." إذ يدلل بذلك على وجود حلول عدة ممكنة ، وهو إنما ينظر فيها ويختار منها ما يقنعه، أما أحادية النظرة (الحل) فهي غير مقبولة في ظل تعدد المناهج العلمية،

---

١) وليس هذا للأسف من ثقافتنا الشرقية ، لأنها تطلق على اللاهوتي المشتغل بحقل العلوم الطبيعية من أجل الكشف عن إعجاز الخالق لقب عالم ، و يسبغ عليه المؤمنون هذا اللقب لأنه يشتغل في العلوم ليس من أجل الوصول إلى حقائق علمية أو تطوير أو اختراع أو اكتشاف إنما لإثبات وجود الخالق من منطلق ((إنما يخشى الله من عباده العلماء)). فتنعدم لدى هؤلاء فكرة وجود احتمالات ووجوه تفسير كثيرة وزوايا نظر متعددة للأمور ونظريات متغيرة بتغير الكشوف العلمية أو تفسير الظواهر ، بل يطمحون إلى تأكيد وجه واحد فقط مما يفهمون من الكتب المقدسة في شؤون الحياة والكون والإنسان.

٢) (غافر : ٢٩)

وحرية الفكر، وتعدد زاويا النظر، لا سيما في الحراك العلمي المتوهّج المتغيّر، الذي يسير في مسارين لا علاقة للاهوت بهما، **الأول** منها منهج يفضي إلى إلغاء سابق عليه (قتله)، **والثاني** منهج يؤدي إلى توليد منهج آخر أو تطوير الأول، على أية حال فالمساران علميّان لأنهما لا يخرجان عن الموضوعية، ثم يرتكزان إلى أسس ثابتة مقررة عند المتخصصين، وهذا بدوره خاضع أصلا لنظرية التطور والتوالد، فالنظرية تتطور إلى أخرى أو تولد منها أخرى، أو تلغي الأولى نهائيا (الانقراض في الاصطلاح البيولوجي)، وتصبح جزءً من أرشيف تاريخي، والحقيقة اليوم في العلم قد تصبح ضلالا غدا، والعكس صحيح. إلخ...

وأجد نفسي هنا مضطرا لاقتباس طويل من دوكنز لِعِظَم أهميته في البرهنة على وجود الرادار عن الخفافيش، من جهة أنه مصمم طبيعياً بشكل عرضي وليس غائياً، وإذا كانت هناك غاية من ورائه فهي لا تتعدى حدود غايات الكائنات الحية في (البقاء والتكاثر) وقد حددها البيولوجيون منذ البداية، وهو ما يبتغي من ورائه مثالا عاما يمكن أن يقاس عليه وجود الأعضاء في الكائنات الحية جميعها التي يحار الإنسان في هندستها في الكائنات الحية وتعقيدها، وهو مثال كاف لتوضيح وجهة نظر في الطبيعة، يتبناها عدد هائل من البيولوجيين في الجامعات ومراكز البحث العلمي في الغرب طبعا، ولا بد من التوقف عند معظم رموزه الطبيعية التي تأخذ شكل التعليل الموجّه للمؤمنين بالخلق دون ذكر صريح لذلك . يقول دوكنز: " للخفافيش مشكلة هي: كيف تتبين طريقها في الظلام. فهي تصطاد ليلا، ولا تستطيع استخدام الضوء ليساعدها في العثور على الفريسة وتجنب العقبات وتستطيع أن تقول أنه إذا كانت هذه مشكلة فهي من صنع الخفافيش أنفسها، مشكلة في وسعها تجنبها ببساطة بأن تغيّر من عاداتها فتصطاد نهارا. ولكن اقتصاد النهار مستغل بالفعل استغلالا شديدا بواسطة مخلوقات أخرى مثل الطيور. وبافتراض أن ثمة كسب للعيش في الليل، بافتراض أن

المهن البديلة وقت النهار محتلة بأسرها، فإن الانتخاب الطبيعي سوف يحبذ الخفافيش التي تحاول مهنة الصيد ليلا."[1]

يقف المرء حائرا كل الحيرة في الحقيقة أمام روعة "تصميم" هذا المخلوق العجيب الذي يمتلك جهازا "تكنولوجيا" منذ آلاف السنين، والذي طوّر عنه بنو البشر جهاز الرادار المعروف، كيف تسنى للخفاش امتلاكه وكيف تعلم استخدامه؟ **وهذه هي عين المغالطة في النظرة إلى الطبيعة**، فدوكنز يرى أن المؤمن بفرضية الخلق يفترض أن الكائن يمكث في ورشة للتصنيع، وتتركب أجزاؤه كتركيب أجزاء السيارات في المصانع، ثم يطلق إلى الطبيعة ليكون مسخرا لخدمة الإنسان، وهي نظرة معكوسة تماماً لما يحدث في الطبيعة بالفعل، فإذا تأملنا شرح البرهان(المثال) الذي يقدمه دوكنز على عماء الطبيعة المتمثل في الانتخاب الطبيعي يفترض وجود نوعين من الخفافيش العمياء:

الأول منها يصطاد رزقه في النهار، وبما أنه أعمى فسوف يقع فريسة للكائنات التي تستخدم الضوء (ذوات الأعين)، وهذه الكائنات ذاتها تختفي في الليل لانعدام الضوء.

والنوع **الثاني** من الخفافيش يصطاد رزقه في الليل أي في فترة الأمان من المفترسات، لذلك فالخفافيش التي تصطاد في النهار سوف تنقرض لأنها ضحايا عدم الخبرة الطبيعية التراكمية التي تتشكل في النوع الثاني منها بمرور الزمن، وعلى ذلك ستبقى الخفافيش التي تصطاد ليلا لأنها في مأمن من مفترسيها، وهكذا يحدد الانتخاب الطبيعي الكائن الأكثر مناسبة لظروف الطبيعة دون قصدية مسبقة من هذا الذي نسميه"الانتخاب الطبيعي" - ببساطة لأنه ميكانيكية طبيعية وليس كائنا يخطط ويقرر- وسوف يتوالد هذا الكائن الذي يصطاد ليلا ، وينشر جيناته في كل مكان ويملأ الكهوف المظلمة، وبمرور الزمن الطويل ومن خلال "الخطأ" أو التغير أو الاختلاف التراكمي الذي يحدث في نسخ شيفرة الـ DNA بين الجد والأب والابن والحفيد يتم إحداث تغيرات طفيفة (تطوير) في جهاز الكشف الليلي (الرادار) لديه

---

[1]) صانع الساعات الأعمى: ص ٤٦. وانظر تفاصيل تطوّر هذا الجهاز بشرح مستفيض، وتطبيقاته التكنولوجية الحديثة في الصفحات ٤٦- ٦٤ .من المصدر المذكور.

ليصبح أكثر فعالية ومناسبة لظروف العيش، ولو حدث العكس أي التغيير نحو الأسوأ فسيؤدي ذلك أيضاً- بالانتخاب الطبيعي- إلى انقراض الكائن.

إن الفروق بين الأجيال المتقاربة فروق طفيفة تكاد لا تُلحظ، ولكنك إذا قارنت بين خفاش وُلد قبل أسبوع مثلاً، وخفاش آخر وُلد قبل ألف عام سوف تلحظ فارقاً كبيراً بينهما من حيث تطور جهاز الرادار لدى الخفاش الجديد عنه في القديم، هذه هي الآلية الحقيقة التي "تصنع" الأجهزة المعقدة لدى الكائنات الحية في بيئاتها المتنوعة، وتفرض عليها نوعا من الأنماط المناسبة لبقائها. وليس للطبيعة وعي في ذلك، إذ إن هذه التغيرات تأتي عبر تغيرات متراكمة في الشيفرة الوراثية عبر امتداد طويل في الزمن ، وليس ببعيد أن يحدث العكس كما أشرنا قبل قليل، بمعنى إن التغير الطفيف المتراكم في نسخ الشيفرة الوراثية قد يكون باتجاه الأسوأ، أي بشكل لا يناسب البيئة، فيؤدي ذلك لانقراض الكائن، لعدم قدرته على تحصيل معاشه أو حرمانه من القدرة على الفرار من مفترسه. وفيما يتراءى لي في هذا المثال أنه موافق - على المستوى الشخصي- لما يجري في الطبيعة من تعقيد تحويه أجسام الأحياء من أعضاء تبدو كأن وراءها مصمم عبقري.

والخطاب في هذا المثال لا ينطوي على مجرد التمثيل على موضوع شائك، أو شرح مشكلة يواجهها العلم، إنما هو يشرح مشكلة يواجهها المقتنع بفكرة الخلق والتصميم العبقري، فيأتي دوكنز بالمثال على سبيل البرهان والدليل الذي يريد من ورائه ضحد فكرة الخلق أو التصميم "معنى المعنى". لذلك أمكن للبيولوجيين إطلاق صفة العماء التام على الطبيعة أي :الانتخاب الطبيعي ميكانيكية صفتها العماء وانعدام الغائية، وهذا يتأيد عندهم بأمثلة من هذه المشاهدات وغيرها، حيث أمكنهم تفسير وجود كل عضو لدى الكائنات الحية مهما بلغ تعقيدها بطريقة الانتخاب الطبيعي ال١ي يفيض فيه دوكنز، قارن مثلا بين الحياة البحرية في الأعماق حيث لاضوء، فستجد أن كثيرا من الكائنات هناك عمياء، وبين ظلمة الكهوف التي تعيش فيها الخفافيش العمياء هي الأخرى، إذن فالسر كامن في البيئة التي تعيش فيها هذه الكائنات.

قلب المثال- إقناع.

يقول دوكنز: " وفي وسعي أن أتصور عالماً آخر حيث يُعقد مؤتمر من مخلوقات مثقفة وعمياء تماماً تشبه الخفافيش ويصيبها الوجوم إذ يقال لها إن ثمة حيونات تدعى البشر هي بالفعل قادرة على تبيّن طريقها فيما حولها باستخدام تلك الأشعات غير المسموعة التي اكتشفت حديثاً وتسمّى "الضوء"، والتي ما زالت موضوع إنشاء جهاز عسكري سري جداً. هؤلاء البشر ذوي الإمكانات المتواضعة فيما عدا ذلك يكادون يكونون صُمّاً بالكامل (حسن، إنهم يستطيعون السمع على نحو ما، بل وينبسون بدمدمات معدودة بطيئة إلى حد الثقل في تمشدق عميق)، على أنهم لا يستخدمون هذه الأصوات إلا لأغراض بدائية مثل اتصال أحدهم بالآخر، ولا يبدو أنهم قادرون على استخدامها للكشف حتى عن أكبر الأشياء حجماً، ولديهم بدلاً من ذلك أعضاء على درجة كبيرة من التخصص تدعى (الأعين) لاستغلال أشعة الضوء. والشمس هي المصدر الرئيسي لأشعة الضوء، والبشر يتمكنون على نحو رائع من استغلال الأصداء المعقدة التي ترتد من الأشياء عندما تسقط أشعة الشمس عليها. ولديهم أداة بارعة تسمى (العدسة)، يبدو أن شكلها محسوب رياضياً بحيث تكسر هذه الأشعة الصامتة بطريقة يتم بها رسم خريطة فيها مطابقة الواحد للواحد بدقة ما بين الأشياء التي في العالم و(صورتها) على طبقة من الخلايا تسمى الشبكية..."(١).

١) صانع الساعات الأعمى. ص ٦٥ .

أ. بعض المغالطات المنطقية وتطبيقاتها في اللاهوت:

١ -"السببية" وكيفية التعامل معها.

٢ -الاستناد إلى مُسلّمات غير مبرهنة.

٣ -التلاعب باللغة.

٤ -الاحتجاج بالشخص.

٥ -التقليد الأعمى.

٦ -تأييد الخطأ بخطأ.

٧ -الشخصنة المهينة.

٨ -تقديس الأشخاص.

٩ -التفكير المزدوج.

١٠ تناقض القول مع الفعل.

أ. - بعض المغالطات المنطقية وتطبيقاتها في اللاهوت:

- "السببية" وكيفية التعامل معها:

يكاد يكون قانون السببية هو منشأ العلوم التي نعرفها منذ سقراط، والأكيد عندي هو أن قانون السببية هو منشأ الفلسفة بشكل خاص، التي ارتبطت بالدين الأسطوري أولا في الحضارات القديمة لأنه نشأ ليعلل الظواهر الطبيعية أي يربطها بأسباب، في محاولة لإيجاد تفسير منطقي نهائي لمنشأ الكون، واتخذت الفلسفة بعد ذلك عُمقاً بمرور الزمن وبعد كثرة الفلاسفة والآراء والأنظار والمدراس الفلسفية التي أفاد اللاهوت من بعض مبادئها الأولى، ثم أخذ بعد ذلك –تدريجياً- بالانفصال عن الفلسفة، ليأخذ في أيام قسطنطين و آريوس شكله الخاص وطابعه الديني، لكنه لم ينفصل عن الفلسفة المحضة، إذ بقي اللقاء وما زال إلى الآن في نقطة البداية التي نشأت الفلسفة عليها وهي:" البحث عن الحقيقة"، وأَوْلى الحقائق في البحث هي حقيقة الوجود، كذلك جاء الدين ليفسر هذه الحقيقة. ولتوضيح ذلك أكثر علينا أن نتخيل أن تاريخ الفلسفة ينمو بشكل خطي، فنستطيع عندئذٍ رصد ثلاث نقاط يتقاطع فيها اللاهوت مع الفلسفة، وفي هذا الخط الذي نتخيله النقاط الآتية:

النقطة الأولى: هي التي تم ذكرها قبل قليل، وهي قاعدة، وينطلق منها الاثنان كل منهما في اتجاه، ثم يلتقيان في النقطة التالية؛ وهي النقطة الوسطى ، التي تقدم "التفسير" في حد ذاته، أي تفسير الوجود، وما نعلمه في ذلك أن هذا التفسير تفرع إلى ثلاثة فروع كبيرة ، شكل كل فرع منهما نظرية مستقلة أو مدرسة فلسفية، الأولى أستطيع تسميتها بمدرسة الصورة، وهي منسوبة في الأغلب لأرسطو وأتباعه حتى وصلت إلى ابن رشد الفيلسوف الإسلامي المعروف، وتقوم على وجود علّة أولى أزلية لا تحتاج إلى علة قبلية تفسرها. وهي في اللاهوت "الله"، وفي الفلسفة (العقل الأول –المهندس

الأعظم) الذي صور الوجود وأخرجه على هذا الشكل الذي نراه، وتقوم بالطبع على الاستدلال المنطقي، وهي فلسفة أبسط من الثانية التي سنتحدث عنها بعد قليل، على أية حال صار لدينا نقطتا التقاء بين الفلسفة واللاهوت، وبقيت النقطة الثالثة وهي: النتيجة، أي نتيجة البحث الفلسفي عن الحقيقة، واللاهوت معني بها أشد العناية لأنها وسيطة بين مقولاته الميتافيزيقية وبين التفكير المنطقي، أي النتيجة التي تخلص إلى إثبات وجود العقل الأزلي في الفلسفة، وهو "الله" في اللاهوت.

لكن مع ظهور "العقل الأول" أو العلة الأولى في المعلول "الوجود" ظهرت الفلسفة الثانية أو المدرسة المقابلة وهي الفيضية، وإذا ما أردنا تمثيلها على خط نمو الفلسفة فستكون نقطة تقاطع في وسط الخط ، أي تقابل "التفسير"، بمعنى إنها تفسير آخر غير الأول، وهذه الفلسفة أغرقت في السببية والعلة والمعلول، وانطلقت من العقل الأول لتقول أنه علة للعقل الثاني، أي أنه لما وعى العقل الأول نفسه فاض بالعقل الثاني، الذي هو أدنى منه درجة، وهذا الثاني لما وعى نفسه فاض بالفلك الأول وعقل ثالث أدنى منه درجة، فصار الثاني علة للثالث، والثالث معلول للأول بواسطة الثاني، وهي علاقة "السببية" كما ترى، ثم توالت الفيوضات بالعقول وصولا إلى العقل أو العقول العفالة إلى أدنى فلك وهو فلك زحل، وهكذا صار المعلول الأخير "الوجود" نتيجة لسلسلة من العلل، واختلطت في هذه الفلسفة الماهية بالذات، والذات بالماهية، ومعنى أن يعقل العقل نفسه إلى آخر ذلك من التعقيد. ففي حين قامت الأولى على علة واحدة هي "العقل الأول" في الفلسفة، ثم معلول واحد هو "الوجود"، ذهبت الأخرى في السببية أبعد من ذلك بكثير لتختلق عللا ومعلولات كثيرة قبل الوصول للدرجة الدنيا وهي الوجود المعروف الذي نعيش فيه.

وظهرت أخيرا المدرسة الفلسفية التي تتقاطع مع اللاهوت في نقطة البداية ثم تفارقه بعد هذه النقطة في كل شيء، وهي المادية، فهي تتفق واللاهوت في البحث عن الحقيقة كنقطة بداية، لكن النقطة الوسيطة كانت "المادة" أي بقلب اتجاه البحث، بدلا من أن يكون من السماء إلى الأرض " الفلك الأخير" عند الفيضية، جعلت المادية "المعلول الأخير" الوجود "المادة" هو العلة القائمة بذاتها، والنهائية وهذه النتيجة كانت مناقضة للاهوت، خلافا للمدرستين الأولى والثانية، إذ صارت المادية تتحدث عن وجود

أزلي هو العلة والمعلول في الوقت نفسه. وامتد من أبيقور- فيما نحسب- إلى أن رأينا مسائل البحث في العلوم عند فلاسفة القرن الثامن عشر تتحول إلى مقولات مثل: هل قوانين الفيزياء التي تحكم الكون جاءت من خارجه أم هي موجودة بالقوة في المادة نفسها، وهي صياغة أخرى للسؤال القديم نفسه : هل هناك خالق وضع هذه النواميس أم هي موجود في المادة بطبعها بلا مُوجِد ؟

خلاصة القول إن السببية (العلة والمعلول)، سواء تكاثرت وتسلسلت أم تقلصت إلى علة واحدة ومعلول واحد، ظلت هي المحور الذي تدور حوله الفلسفة واللاهوت، وحديثا: العلم بمعناه المعاصر أي: التجريب في المختبر والطبيعة، والتشريح، والملاحظة، والاستقراء، والإحصاء، إلخ...

سأضع الآن اللاهوت والفلسفة قديما وحديثا في ناحية، والعلم الحديث في ناحية مقابلة، وأقارن بين الناحيتين في السببية، وكيفية النظر إليها.

وسألخص الفروق في النقاط الآتية كي تكون واضحة:

١ - السببية في اللاهوت والفلسفة سيرورة وسيطة للوصول إلى نتائج مقررة مسبقا.

٢ - السببية في العلم قانون، يمكن أن نتنبأ بنتائج انطلاقا منه.

٣ - السببية في اللاهوت والفلسفة قابل للتوقف عند حدود البداية والنهاية، لأذكرك أنه بدأ بالعلة الأولى وانتهى عند المعلول الأخير.

٤ - السببية في العلم قانون لا يمكن إيقاف عمله في المادة صغيرة كانت كالذرة وما تحتها، إلى مادة بحجم الأجرام السماوية.

٥ - لا وجود لشروط ابتدائية للسببية في الفلسفة واللاهوت.

٦ - السببية في العلم تقوم على شروط ابتدائية تلعب الدور الأكبر في تحديد النتائج.

لعل النقاط السالفة في حاجة إلى تبسيط ، وسأفعل من خلال المثال الآتي المعروف والمشهود في كل مكان :

لنفترض أن شخصا أصيب بمرض، ذهب إلى الطبيب ليتعالج، وصف له الطبيب دواءً لمرضه، وبعد أن تناول المريض الدواء لم يشف.

التفسير:

- **في اللاهوت** الدواء سبب للشفاء، ولكنه لم يحدث لغياب المشيئة. لذلك بقي الرجل على حاله مريضا. فكما ترى علة المرض بقيت مع وجود سبب الشفاء.

- **في العلم**: تشخيص الطبيب كان خاطئا، الدواء الذي وصفه للمريض لم يكن للمرض الذي يعاني منه الرجل بل لمرض آخر، وعليه أن يذهب إلى طبيب آخر ليعيد تشخيصه، فالدواء سبب الشفاء، والشفاء واجب الحصول إذا كانت الشروط الابتدائية سليمة وهي في مثالنا التشخيص السريري للمريض. فلما كانت الشروط الابتدائية خاطئة أو ناقصة لم يتم الشفاء.

لنفترض الآن أن هذا الشخص المريض ذهب إلى طبيب آخر، وأعاد الطبيب الجديد تشخيصه، واكتشف أن تشخيص الطبيب الأول لم يكن صحيحا، فوصف له دواءً آخر، وشُفي الرجل من مرضه. ما تفسير ذلك؟

- **في اللاهوت**: الدواء سبب في الشفاء، وقد وافق المشيئة فتم الشفاء.

- **في العلم**: الشفاء واجب الحدوث الآن؛ لأن الشروط الابتدائية تم تصحيحها، فقد شخّص الطبيب المريض تشخيصا سليما، ووصف له الدواء المناسب. لذلك كان الشفاء واجب الحدوث.

وفي اللاهوت الإسلامي يُستدل على المشيئة التي يجب أن تلازم السبب لكي تتحقق النتيجة من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أُلقي في النار، فإنها لم تحرقه، ذلك لأن المشيئة لم توافق السبب، فالمعروف أن النار سبب، والاحتراق نتيجة، ولم يحترق سيدنا إبراهيم والمشيئة ظاهرة في القرآن الكريم (قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم)، أي إن المشيئة حالت بين السبب والنتيجة. وعليه فالنتيجة المتوقفة على سببٍ ما ليست حتمية الحصول لوجود عنصر ثالث هو المشيئة.

- في العلم: لها تفسران : الأول أن قصة سيدنا إبراهيم لا دليل فيها على نقض السببية لتدخل مشيئة الله عز وجل بين السبب والنتيجة، وهذا التدخل جاء عبر الأمر الإلهي

للنار بأن لا تحرق سيدنا إبراهيم، وعليه فإن تعطيل العلاقة الحتمية بين السبب والنتيجة جاء عن طريق معجزة إلهية.

الموقف الثاني للعلم من هذه القصة هو أنه يعتبرها قصة أسطورية ولم تحدث حقيقية.

ونحن كمؤمنين نعتد بالموقف الأول وهو منطقي وواضح جدا أنه لم يتم تعطيل السببية إلا عندما تدخلت مشيئة الله عز وجل بأمره للسبب أن لا يتمخض عن النتيجة وهي الإحراق.

ليس في ذلك أية مشكلة إذا اعتبرنا أن عدم احتراق سيدنا إبراهيم بالنار كان معجزة رآها الكفار بأعينهم ليثبت لهم أن إبراهيم نبي مرسل من عند الله، لكن المشكلة التي قامت في الفلسفة اللاهوتية أنها جعلت من قصة سيدنا إبراهيم قاعدة، وجعلتها هي الأصل في علاقة السبب بالنتيجة، والأحق أن تعد علاقة استثنائية، أي نعدها معجزة وقعت مرة واحدة، فالنار سبب حتمي للاحتراق، وشذت حالة سيدنا إبراهيم عن هذه القاعدة، ولكن كما ذكرت سابقا أنه صار العكس تماما في اللاهوت أي إن السبب لا علاقة له بنتيجة مترتبة عليه. وهذا ما منع تقدم العلوم الطبيعية في العالم الإسلامي قبل أن يتقدم في الغرب. فقد تحققت الجرأة بعد عناء على إقصاء اللاهوت عن حقول البحث العلمي الذي لم يقم بفك العلاقة بين السبب والنتيجة كما فعل لاهوتنا بكل قوة ولاهوتهم كذلك. وفي ذلك ما فيه من مخالفة للطبيعة الكونية التي تراها بعينيك.

عليّ أن أُنبّه هنا أن المغالطات قد تكون مقصودة للوصول إلى نتيجة محددة مسبقاً، وقد تمر عن غير قصد؛ مما يترتب على المغالطة في الحالتين نتائج وأحكام واستنتاجات وقرارات غير صحيحة، ومعروفٌ أن تراكم المعارف في نظام داخلي: أقصد فيما يسمّى بـ"النفس" السويّة، هو الذي يشكل شخصية الإنسان مع ظروف البيئة التي تلعب دورا في إعطاء الفكر اتجاها محددا أو نزعةً ما، ونوعيةُ المعرفة والعلوم التي تُستقى من مناهجها المتعددة تلعب الدور الأكبر في انفتاح الفكر أو إغلاقه، والاتجاهان كما ترى متعاكسان بزاوية ١٨٠ درجة، الفكر المنفتح هو الفكر غير العصبي أي؛ القائم على المعارف غير الانفعالية، وهو ما نطلق عليه المرن الذي يتعامل مع المسائل باتجاهين

إرسالا واستقبالا، والعكس صحيح فيما يتعلق بالمنغلق، لأنه يسير في اتجاه واحد هو الأول أي؛ الإرسال فقط، غيرَ متقبّل الاستقبال، وغير مخضع أسسه للمحاكمة من أية نوع كانت. لأن الفكر العصبي يعني الإصرار، والإصرار يعني رفض ما لا ينسجم مع المنظومة المعرفية التي هي مادة الفكر الراسخ لديه بالإضافة إلى طرقه.

ومعروف أيضا عند العلماء أن الدماغ هو أداة "العقل" المادية (خلايا ووصلات عصبونية، تعمل بتبادل الشحنات الكهربائية والطاقة بين الخلايا)... فماالمقصود بقولنا أن تعقل شيئا ما أو معلومة أو فكرة؟

خبراء التربية والتعليم يقولون إن إضافة خبرة (معرفة) إلى عقل المتعلم يجب أن تكون ذات معنى. وهذه العبارة كثيرا ما نسمعها منهم على اختلاف توجهاتهم في نظريات التعلّم، والفلسفات أيضا التي تقف موقفا ما من "نظرية المعرفة" كمفردة فلسفية تذهب من الخاص إلى العام، ومن التفرد إلى التعدد، وهي ما لا تعنينا هنا.

أعود لأقول : ما معنى أن تكون المعرفة ذات معنى؟ هذه العبارة كما أفهما تعني شيئين؛ الأول أن تكون لهذه المعرفة قيمة في حياة الإنسان، وهذه القيمة ذات أثر في طريقة التفكير وبناء العلم الذي يتراكم ليشكل منظومة سلوكية في النهاية؛ تظهر في الفرد كعضو في مجتمع تنبني عليه سلوكاته تجاه وعيه بنفسه وبالآخرين.

والشيء الثاني أن ترتبط داخل الدماغ في منظومة موجودة مسبقا، تماما كالكلمة في الجملة. فإن أنت ألقيت كلمة مفردة ليست في سياق ظاهر أو معهود ذهني لن يكون لها دور في أداء وظيفة، في المحصلة النهائية يجب أن تكون المعرفة ذات وظيفة، وإلا فليس لها قيمة، أي ليس لها معنى، أو لأصفها بأنها ذات طبيعة بنيوية وظيفية أيضا.

وأشبه المعرفة في حد ذاتها كالمادة الغذائية للعقل، أو هي المادة الخام له، التي تقع عليها العمليات الفكرية، ومنها تصدر أيضا. تراكم هذه المعارف وطرق تحكمها في التفكير هو ما نسميه ثقافة الفرد. أما المعرفة كعملية فهي أعقد من ذلك ، لأننا في جدلية هنا هي ؛ هل التفكير هو إعادة إنتاج للمعرفة فيكون بذلك هو الفاعل فيها، أم إن المعرفة هي التي تسوق التفكير وتحدد ملامحه الأساسية ليصبح فكراً؟

فيما سبق كنت أتحدث عن المعرفة كأنها مادة يستطيع الدماغ تعريضها للهضم، فما كان منها مهضوما دماغيا فهو مقبول وقابل لأن يدخل كعنصر في منظومة، وإلا

فمصيرها النسيان والهلاك، لأنها تتضارب مع غيرها من المكنون مسبقا. أما طرق تحصيلها فقد خاض فيها الكثيرون، الفلاسفة والمفكرون والتربويون والمهتمون بشؤون الطفولة والتوعية المجتمعية على مستوى فردي ومؤسسي على حد سواء.

وعلى فرض أن المعرفة في موضوع محدد متحصلة لدى فرد ما، ونريد أن نناقشه في هذا الموضوع الذي يعد من العارفين فيه، عند مناقشته ستظهر لك أشياء وتختفي أشياء من الحصيلة التي يمتلكها؛ بناءً على طريقة الحوار والمناقشة، ولن يستطيع إعطاءك كل ما تجمّع لديه من معارف حول موضوع الحوار، فبقدر استفزازك إيّاه بالأسئلة السابرة خلال الحوار يقدم لك ما يعرف، ولكن السؤال ذال البال هنا هو هل: يقدم الإنسان المعرفة كما يقدم الحاسوب المعلومة التي أدخلتها في ذاكرته؟

الجواب: بالطبع لا ... لأن الموقف الشخصي أو الوجداني أو الانطباع العام سيتدخل في المعرفة وتقديمها، والتصور المشكل لها في ذهن هذا الذي تناقشه. ويظهر ذلك لك من "ألعوبة اللغة" التي يكلمك من خلالها، وعودا إلى فاتجن شتاين، وثاولوس؛ فاللغة ألعوبة خطيرة في تقديم المعلومة أو في الحوار والمناقشة. وعليك أن تكون يقظا لهذه اللغة المستخدمة في الحوار أو الكتابة، أو العبير بكل أشكاله.

لا يستطيع الإنسان أن يتفلّت من لونه الذاتي الذي يلوّن به الأشياء، وتجربتك الخاصة تدلك على ذلك، لاحظ طريقتَي شخصين في دعوتك إلى وجبة غداء، تستطيع من خلال اللغة عدا تعابير الجسد أن تعرف أن الدعوة حقيقية أم مجرد مجاملة، وبناء على ذلك ستتخذ قرارك بأن تذهب أو لا. فلم يكشف لك الرجل عما في قلبه لكن اللغة فعلت ذلك. وراجع ما تكتبت عندما تؤرخ لشخص تحبه وآخر تكرهه، واستخدامك للألفاظ التي تختارها لهذا أو ذاك. أو عند الحديث في موضوع ما، تجد أن الكلام نفسه منطبق، ولن تكون موضوعياً إلا بشق الأنفس. لأنك ستدرك بعد قليل أن كثيراً من ألفاظك لم تنصف الرجل الذي تُكنّ له مشاعر الكراهية. وأنك تتحدث بانطباع شخصي في حين أنك تظن أنك تأتي بالحقائق، ولكن بإمكانك تجنب ذلك إذا كان حديثك مدعوما بالأدلة والبراهين الحقيقة، عندها لا نقول إن حديثك عنه انطباعي شخصي، بل موضوعي بشكل حقيقي.

من هذه النقطة دعني أدخل إلى المغالطة المنطقية الآتية:

- **الاستناد إلى مُسلمات غير مُبرهنة:**

يقع كثير منا في مغالطات تبدأ بقولنا: افترض أن فلانا فعل كذا، فإنه يكون قد أساء لـ(س) من الناس لأن (س) حساس لمثل هذا العمل، وهذه هي عادته، فأنا أعرف عنه أكثر منك، أنه فعل ذلك أكثر من مرة، إنه إنسان سيء السلوك.

لاحظ أن الحكم النهائي :(إنه إنسان سيء السلوك) انبنى على فرض مبدئي، ومع طول الحوار ينسي المتكلم أنه بدأ بفرض لا بحقيقة. عندما تفكر في المسألة وتذهب بك بعيدا تنسى نقطة البداية التي غالبا ما تكون حاسمة في الموضوع، لاسيما إذا كان منتظَراً منك اتخاذ قرار ما، فإن ممارسة مثل هذه تسيء إلى النتائج، وتظهر إساءتها أكثر إذا كنت تُعلّم أو تربي أطفالاً بناءً على نتائج وقرارات واستنتاجات من هذا النوع.

لا ننسى أن المعارف التي تتجمع لديك جرّاء قراءة التاريخ تمرر عليك أحيانا دون أن تدري نتائج مثل هذا النوع، وتضع لك الواقعة التاريخية بناء على واقعة سابقة قد تكون افتراضا من الأساس، فبافتراض أن حادثة وقعت تستنتج استنتاجات وتبني تاريخا ومعارف على ما يشبه الوهم، نسيت أو تناسيت أنه فرض، ولم تتحقق منه بالأدلة والبراهين، فببساطة تسمع مقولة تاريخية مثل: لقد ظلم معاوية سيدنا عليا، ولو سألت القائل من أين لك بهذه النتيجة سيقول : قرأتها في كتاب تاريخ، ولكن هل عنّى نفسه في البحث في كتاب التاريخ هذا، ومعرفة الأدلة التي ساقت لهذه النتيجة التي قد تدخل ضمن مناهج الدراسة؟

لا تقف المشكلة عند هذا الحد، بل سيتعلم الناس أن يقبلوا كل ما يقال لهم دون مراجعة أو تفكّر، هل يجرؤ طالب على أن يطلب دليلا يؤكد ما يذهب إليه المعلم؟ إن بناء المعرفة بهذه الطريقة لا يعدو أن يكون قتلا للحقيقة، لأنه يجرّدها من أهم ميزاتها، وهو التدليل على أنها حقيقة، ويُحِلّ محلها الاحتمالات والتخمينات والأفهام الانطباعية التي مع شيوعها وانتشارها بين الناس وتبنيها تكتسب صفة الإطلاق والتسليم، فتصبح من المقررات غير القابلة للنقاش والنقد.

ولا تظن أن المجتمع المشبع بثقافة الأساطير قد خلقه الله وأهله ليكون مجتمعا أسطوريا، وهذا المجتمع في شخصيته الجمعية هو فيلسوف ميتافيزيقي ، يحضرني الآن قول وليم جيمس في ذلك حيث يذهب إلى أن " الفيلسوف الميتافيزيقي أشبه بالأعمى، الذي يبحث في حجرة مظلمة، عن قطة سوداء" وهذه عبارة عن مغالاة في الازدراء، والمقصود منها إبراز العبثية واللاجدوى من التفكير الميتافيزيقي بصفة عامة[١].

فإن المشكلة تتلخص في أن المتعلم يقبل الحكاية(المعرفة) على عواهنها، وليس أدل من ذلك على انتشار الإشاعة، فهي حدث مكذوب لايقوم على دليل، فطالما هو كذلك فلماذا ينتقل بسرعة؟ ويحمل صفة الحقيقة أو المصادقية العالية عند الناس؟ فلو استقبلت خبراً مُشاعاً مُلفقاً وحاولت التفكّر فيه، وكانت نفسك ميالة لأن يكون حقيقة ولا تملك عليه دليلاً، توسوس لك نفسك مفتوحة الشهية على الأكذوبة فتقول: " مممممم... ليس هناك دخان بلا نار". إن إصدارك مثل هذه العبارة يدل على خلو جعبتك من دليل يؤكد الحدث(الإشاعة)... لماذا؟ الجواب هو غياب القدرة على طلب الدليل فقط.

قبل أن أنقل الكلام إلى مناطق النزاع بين العلم والفكر اللاهوتي، دعني آخذ مثالا في مجتمعنا لأريك مشكلة تلقي الفكر المشوه عيانا من تجربة شخصية، جوابا على السؤال الآتي:

لماذا نقبل الحكاية (المعرفة) على عواهنها؟

كنت ووالدي يوما في جمع من الناس في شتاء سنة ٢٠٠٥ ، في مناسبة لعزاء أحد الأقارب في وفاة والدته، قام اللاهوتي المعتمد في العائلة ليخطب، وبدأ بتذكيرنا بالأفاعي متعددة الرؤوس التي تجوب القبور، وخوفنا من القبر والأحداث المأساوية التي تحدث فيه، وبعد ذلك ساق القصة الآتية التي فهمت منها أنه يريد أن يري فئة الشباب الجالسين مدى طاعة الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم في عصره، وقال حرفيا:" كان رسول الله –صلوا على النبي يا جماعة- (صلينا على رسول الله، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم)، كان جالسا مسندا ظهره إلى جدار، وكان بجانبه صبي من

---

١) **Thinghood** . نظريات في الفلسفة. الذاكرة.

صبيان الأنصار، فقال له الرسول : يا فلان، قال الصبي: لبيك يا رسول الله، قال الرسول: اذهب وأحضر لي رأس أبيك الآن. (أي؛ اقتله وهات لي رأسه). فقام الغلام كالصاروخ ليفعل ما أمره الرسول به ولم يفكّر لحظة واحدة ولم يتردد. فأمر الرسول أحد الصحابة باللحاق بالغلام قبل أن يقتل أباه، ليردّه. فلحقه أحدهم وقال له: يقول لك الرسول ارجع إليه الآن ولا تفعل. فانظروا أيها الأخوة إلى أي حد كان الناس يطيعون رسول الله- صلوا على النبي". صلى الناس على النبي وهزّوا رؤوسهم إعجاباً بما فعل الغلام من طاعة، وأثنوا على المتحدث للعِظات التي قدمها ثم جلس على كرسيه شامخا.

سأل والدي الشيخ: هلا دللتني يا شيخنا على مصدر هذه القصة ؟ قال: يا أخي قرأناها في كتب التاريخ والسيرة، قال والدي :لا بأس، لو أخبرتني باسم المرجع لأنني مهتم بهذا، تدخل شخص آخر وقال :لو سمحت... اترك الشيخ وشأنه هذا الشيخ وحده مرجع، وقد أدرك ما وراء سؤال والدي. في نهاية القصة قلت أنا بصوت مرتفع قليلا : هذه قصة مكذوبة ولا يمكن أن تكون حدثت بالفعل، ولا أعلم من صفات النبي أنه يأمر صبياً بقتل أبيه، وهذا الشيخ يا جماعة يختلق القصص البشعة، في النهاية تم إخراجي ووالدي من المكان لأننا رفضنا الهراء الذي كان يتحدث به هذا الشخص، ليس هذا هو المهم بالنسبة لي، المؤسف كان أنني لم أجد من الجالسين من يؤيد ما ذهبت إليه من رفض لهذا الهراء. كيف يصدق الناس هذا الكلام!! كنت متعجباً جدا؛ لِمَ يقبلونه؟ كيف ذلك والقرآن يخاطب المؤمن الذي لديه والدان كافران يجاهدانه أن يكفر قائلا: ((فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا))[1]، فكيف يأمر الرسول الصبي بقتل أبيه؟! غريب... قد تقول أنت الآن إن هذه الآية نزلت بعد الحادثة، ولكن بالنسبة لي لن أصدق مثل هذا الهراء لأن الله بعث إلى المؤمنين رسولا منهم عزيز عليهم ما عنتوا، بهم رؤوف رحيم، ولا يمكن أن يكلّف غلاما بقتل أبيه لأنه يمزح معه كنوع من الاختبار.

لم يعجب الحضور اعتراضي وأظهروا لي مشاعر الاستياء من نعتي للشيخ بالكاذب المختلق، بل وافقوا الشيخ لأنه يلبس لباسا يدل على هيئة المتدين في حين أنه يضع

---

١) [لقمان: ١٥]

القصص ويكذب على لسان الرسول بلا دليل ولا أي حديث حتى لو كان ضعيفاً، الجواب كان عندي معروفا، لقد تربى الناس على قبول الكلام على عواهنه. بهذه الطريقة يتشكل الفكر لدى هؤلاء وهم بدورهم يشكلونه لدى أبنائهم، وقس على ذلك.

لقد قال الفيلسوف (كانْتْ) عبارة أحترمها إلى حد أنني أجعلها دستورا شخصيا، قال : يجب أن نضع حدودا للعقل حتى نفسح مجالا للدين.

وإفساح المجال للدين مطلوب نفسيا روحيا، يعمق هذا الإحساس لدى الطفل أنه يشاهد تعامل والديه مع القرآن الكريم أو الكتاب المقدس بكثير من الإجلال، كأن يتوضأ أحدهم قبل لمس القرآن الكريم، ويضعونه في مكان محترم في المنزل، لا تصل إليه أيدي الأطفال، ويقبّلونه أمامهم، فتتسرخ في ذهنه قدسية الكتاب، سواء كان ذلك الكتاب القرآن الكريم أو الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) أو غيرها من الكتب المقدسة عند كل أهل ملة، فلا يخطر ببال هذا الصغير أن يطلب دليلا على قدسية الكتاب، ولن يطلب دليلا على أنه نزل من السماء.

وخلاصة القول: أننا مهما حاولنا أن نعلم الأجيال القادمة المنهج العقلاني في التفكير فسوف نصطدم بديننا في النهاية، لأن قانون السببية يحتاج لمبرر عقلاني قوي لإيقافه عن حد، وهذا المبرر غير موجود إلا في التصوّر المبني على الإيمان، وهو على قول المصطفى : "ما وقر في القلب وصدقه العمل". أي هو وجداني وروحي.

فإنك تستطيع أن تعلم الطالب أن يسأل عن سبب ظاهرة كالمطر مثلا؟ كيف يحدث ولماذا، لماذ تتحرك الغيوم؟ لأن الرياح تجرها عندما تتحرك. جميل، ولماذا تتحرك الرياح؟ لوجود ضغط منخفض في منطقة ما فتتحرك لترفع الضغط كي يتساوى في الجو، ولماذا نريد من الضغط أن يتساوى....؟ كل هذا مقبول لا بل مطلوب أن نسمعه من طلابنا، وهو يدل على نهم للمعرفة ومنهج علمي في التفكير، ولكن إذا انتقلت هذه الأسئلة إلى المحاجة الدينية فساعتئذٍ سنقع في المحظور، وهو ما يرفضه مجتمعنا الشرقي المتدين، لذلك سيبقى الشرق شرقا ويبقى الغرب غربا. ومن أمثلة المحظور

الذي أتحدث عنه، وهو نقل العقلانية السببية إلى المسائل الدينية المقدسة أنك تستطيع أن تحاجج في قوله تعالى الآتي من سورة الإسراء:

((وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا❖ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا❖ أو تسقط السماء علينا كما زعمت كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ❖ أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا❖ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا❖ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا❖))[١]

قال الطبري في تفسيره :

" القول في تأويل قوله تعالى : ((وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠)) يقول تعالى ذكره : وقال يا محمد ، المشركون بالله من قومك لك : لن نصدّقك ، حتى تفجر لنا من أرضنا هذه عينا تنبع لنا بالماء.

وقوله(يَنْبُوعًا) يفعول من قول القائل : نبع الماء : إذا ظهر وفار ، ينْبُع ويَنْبَع ، وهو ما نبع. كما حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله(حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعًا) : أي حتى تفْجُر لنا من الأرض عيونا : أي ببلدنا هذا. حدثنا الحسن بن يحيى ، قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة ، قوله(حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعًا) قال : عيونا."[٢] هذا كله لا يجيب عن سؤال بسيط: لماذا لم يُرِد الله أن يثبت لهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فلنأخذ طلبهم الأول: وهو أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً، وهو أيسر الطلبات التي توالت في الآيات اللاحقة التي كان أعقدها أن يأتي لهم بالله والملائكة قبيلا، بإمكانك مراجعة التفسير.

---

١) [الإسراء: الآيات[٩٠- ٩٥]

٢) جامع البيان في تأويل القرآن. محمد بن جرير الطبري. تحقيق: محمد أحمد شاكر.مؤسسة الرسالة. ط١. ٢٠٠٠ م . جزء ١٧ . ص ٥٤٨ وما بعدها. وتتمة تفسير الآيات التي تتلوها : حدثنا محمد ، قال : ثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن قتادة ، مثله. وانظر تفسيره للآيات التي تتلو هذه في الصفحات ٥٤٩ وما بعدها من الجزء ١٧.

السؤال مرة أخرى: ألم يكن من اليسير على الله عز وجل أن يفجر على يد محمد صلى الله عليه وسلم ينبوعا من الأرض؟ فنحن نعلم أن الله بقدرته قد جعل لبني إسرائيل ينابيع بضرب موسى عليه السلام للحجر بعصاه. فإذا وضع المتشككون الجملة الشرطية الآتية وهي الآية : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، فمعناه أنهم مستعدون للإيمان لأنهم يطلبون برهانا بأن يضرب الأرض مثلا بيده أو رجله أو أي شيء فيخرج الماء، كدليل على قدرة مؤيدة خارقة للعادة، لأنهم لم يقتنعوا بما نزل من القرآن في تلك الفترة الأولى من حياة الدعوة كمعجزة فتارة كانوا يتهمونه بأنه كاهن يسوق الكلام المسجوع في مكة كعادة الكهنة، ومرة قالوا شاعر وقد أيد التقطيع العروضي لبعض الآيات أو أجزاء منها أنها تنسجم و بعض بحور الشعر، ومرة قالوا مجنون وهكذا، فكان أن طلبوا في البداية طلبا يسيرا بالنسبة لقدرة الله عز وجل وهو إخراج الماء من الأرض، لكن ذلك قوبل بالتجاهل التام، ليس ذلك فقط، فإنهم استمروا بطلبات متتالية محتجين في النهاية على أن يبعث الله بشرا رسولا.

والغريب في الأمر أن القرآن لم يتوقف إلا عند هذا الطلب وحده ورد عليه وحده وترك طلباتهم الأخرى دون أي رد إذ قال الله: ((قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا❖)) فالسبب هو أن الملائكة لا يستطيعون أن يمشوا في الأرض باطمئنان، وتجاهل طلبهم اليسير الأول وهو الينبوع، لذلك كان قراره عز وجل أن يكون الرسول بشرا، وليس ذلك فقط بل بلا معجزة حسية تراها العين كجنات النخيل والعنب وغيرها مما طالبوا به. لكنه عز وجل استنكف عن الإتيان بمثل هذه المعجزات الحسية بسبب وجود القرآن ونزوله على امتداد ثلاثة وعشرين عاما وقد تحدى الفصحاء بل الإنس والجن جميعا بأن يأتوا بمثله ولم يستطيعوا، فكانت معجزة أبلغ من تلك المعجزات الحسية التي طلبها المشركون بعد أن عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن الكريم.

كثير من الأسئلة يمكن طرحها حول مضمون الآيات، كأن تقول: أوليس الله بقادر أن يبعث ملكا رسولا ويعصمه من الناس بحيث يستطيع أن يمشي مطمئناً؟ أوليس بقادر أن يجعل لرسوله حدائق فيها نخيل وأعناب، لاسيما أن ذلك بالإمكان

وليست بمعجزة عظيمة ، ولكن قد يكون إنبات العنب في تلك المنطقة الجغرافية هو المعجزة التي يقصدونها، على أنه قد كان لبعض أثرياء قريش "حوائط" أي بساتين.

ويقابل هذا تماما في الإنجيل قول يسوع، تحت عنوان "الفريسيون يطلبون آية" :

"وقال له بعض معلمي الشريعة والفريسين: يا معلم نريد أن نرى منك آية. فأجابهم: (جيل شرير فاسق يطلب آية ولن يكون له سوى آية النبي يونان فكما بقي يونان ثلاثة أيام بلياليها في بطن الحوت كذلك يبقى ابن الإنسان ثلاثة أيام بلياليها في جوف الأرض) "[١].

تلاحظ كيف ينعى يسوع على الفريسيين طلبهم لآية كي يصدقوه، ووصفهم بأنهم جيل شرير فاسق من أجل هذا الطلب، لكنه وعدهم أنه سيمكث ثلاثة أيام في باطن الأرض كما حصل للنبي يونان (يونس في القرآن الكريم الذي التقمه الحوت فلبث في بطنه)، ولا أفهم ما الحكمة في مكثه ثلاثة أيام في جوف الأرض إلا أنه يعدهم أنه (سيُصلب) سيموت(يرفع إلى السماء) ثم يقوم من بين الأموات كمعجزة، والإنجيل أورد ذلك صراحة. ولكنه أتاهم بالمعجزات الحسية التي عرفناها في القرآن الكريم بإحياء الموتى وشفاء الأكمه والأبرص بإذن الله.

وجاء فيه أيضا تحت عنوان " إبليس يُجرّب يسوع" : "وأخذه إبليس إلى المدينة المقدسة فأوقفه على شرفة الهيكل وقال له : إن كنت ابن الله فألقِ بنفسك إلى الأسفل، لأن الكتاب يقول: يوصي ملائكته بك، فيحملونك على أيديهم لئلا تصدم رجلك بحجر. فأجابه يسوع : يقول الكتاب أيضا: لا تجرّب الرب إلهك"(٢).

ما استوقفني هنا هو عبارة يسوع : لا تجرّب الرب إلهك. أي لا تفعل ما أمر به إبليس بأن يلقي بنفسه عن شرفة الهيكل العالية ليختبر الله؛ هل يرسل الملائكة تحمله قبل أن يصطدم بالأرض ويموت أو يتأذّى أم لا ؟

---

١) (مرقس ٨: ١١- ١٢، لوقا ١١: ٢٩- ٣٢)

٢) (مرقس ١: ١٢- ١٣ ، لوقا : ٤: ١- ٣)

فالنهي عن التجربة(وضع الرب تحت الاختبار) التي تعني التدليل على القدرة العظيمة لله في الإنجيل ، وطلب الدليل على صدق بنوة يسوع لله في الاقتباس السابق، كذلك طلب مشركي قريش الدليل الحسي على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام كلها في الكتابين المقدسين قوبلت بالتجاهل. ولكن ما يروي لنا القرآن والإنجيل أن يسوع (عيسى بن مريم) قدم معجزات حسية على نبوته من منظور إسلامي، وبنوّته لله من منظور مسيحي في شفاء الأمراض المستعصية آنذاك كالبرص والصرع وإحياء الموتى وغيرها.

- **التلاعب باللغة:**

ولكنك لو توجهت لأي عالم بالدين سوف يقولب ويسفسط لك الكلام ويؤوله حتى يخرجك من دائرة الشك إلى دائرة أعمق منها شكا، سأضرب لك المثال الآتي:

جاء في سورة المائدة: ((وإذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين❖ قالوا نريد أن نأكل منها، وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين❖))[١].

قبل أن أورد لك تفسير الآية أقول: نحن نعلم أن الحواريين هم أنصار عيسى عليه السلام أو التلامذة الذين أيدوه وآمنوا به واتبعوه، ولكن انظر كيف يخاطبونه:

١ - هل يستطيع ربك؟ هذا شك في قدرة الله.

٢ - ربك: ولم يقولوا (ربنا)، مع أنهم آمنوا بنبوته وبالله تعالى. وهم كانوا خيرة الناس أيام المسيح بشهادة القرآن : ((فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون))[٢]، فإذا كان هؤلاء الذين آمنوا وأشهدوا نبيهم على إيمانهم

---

١) [المائدة: ١١٢- ١١٣]

٢) [آل عمران :٥٢]

يخاطبون نبيهم وربهم بهذه اللغة غير المؤدبة، فلماذا يُواجه مشركو العرب بالتجاهل عندما يطلبون دليلا سهلا على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الأول كذلك والثاني في آيات الإسراء مع أن طلب الحواريين بإنزال مائدة من السماء بلغة غير لائقة كما ذكرت قبل قليل كان أكبر من طلب مشركي العرب.

٣ - هذا الشك يتأكد من معرفة عيسى عليه السلام بهم فقد أجابهم بقوله : اتقوا الله. وجاء بجملة شرطية : إن كنتم مؤمنين. بمعنى أنه هو نفسه صار يشك في إيمانهم لأنهم طلبوا ذلك وصرحوا بشكّهم، ثم طلبوه بطريقة لا تليق بجلال الله: (هل يستطيع ربك)، وإضافة كلمة (رب) إلى كاف الضمير العائد على عيسى نفسه عليه السلام تعني أنه ربه هو وحده وهم خارجون من تحت هذه الربوبية، ومما يؤكد ذلك قولهم:

٤ - ونعلم أن قد صدقتنا: أي أنك نبي من عند الله ولست مخادعا، فإنزال مائدة طعام من السماء (يشهدون عليها) تدلهم على معجزة حسية تؤيد نبوة عيسى عليه السلام. وقدموا الأكل من هذه المائدة لأنهم إذا أكلوا منها تحققوا من أنها مائدة حقيقة وليست خديعة، وهذا بدوره يدعم طلبهم التالي وهو إطمئنان قلوبهم الذي يفضي إلى التصديق بنبوته (قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا).

ولكن عيسى عليه السلام بعد أن أبدى استياءه من هذا الطلب بدلالة قوله لهم : (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) دعا الله ليجيب طلبهم بلغة إجلال لله تعالى: ((قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين))[1]. ولم يقل ليأكل منها الحواريون ويصدقوني.

---

١) [المائدة: ١١٤]

تستطيع أن تلحظ الفرق بسهولة بين خطاب الحواريين لعيسى عليه السلام وبين خطابه هو لله تعالى حيث دعا بضمير الجمع فقال (اللهم ربنا) ولم يقل (ربي)، في حين قالوا : هل يستطيع ربك؟ فهل كانوا ينتظرون منه جوابا بأن يقول :لا ..لا يستطيع؟! ليظهر لهم زيف نبوته؟! والسؤال بـ(هل) لا يحتمل جوابا إلا بـ(نعم) أو (لا) فقط.
ومن التلاعب باللغة أيضا:

- قلب المعنى اللغوي/الدلالة:

أريد أن أعرض عليك الآن تفسير الآيات السابقة وترى عملية التزييف بأم عينك: قال الثعالبي في الجواهر الحسان، وقد اخترته لأنه الأذكى في التلفيق ، يقول: "والمعنى هل يفعل ربك هذا، وهل تقع منه إجابة إليه، ولم يكن منهم هذا شك في قدرة الله سبحانه، إذ هم أعرف بالله من أن يشكوا في قدرته. [1]" أقول هل هذا هو معنى الآية السابقة؟ يظهر لي أنه يفسر آية أخرى وليست هذه الآية لأنه قلب جميع معاني ألفاظها.

- الاحتجاج بالشخص:

يتابع الثعالبي في الصفحة نفسها ويقول:
"وقرأ الكسائي هل تستطيع ربك بالتاء ونصب الباء من ربك والمعنى هل تستطيع سؤال ربك وادغم اللام في التاء أعنى الكسائي."
لاحظ قوله :إذ هم أعرف بالله من أن يشكوا في قدرته، وقارن قولهم في القرآن : هل يستطيع ربك؟ ثم ذهب ليختبئ خلف قراءة الكسائي وهي محاولة بائسة للدفاع عن

---

1) الجواهر الحسان في تفسير القرآن: الثعالبي.ص ٤٣٩. ولم يزد ابن كثير عن رواية نزول المائدة حرفا ، فذكر الملائكة التي أنزلتها وذكر المحتويات الغذائية للمائدة.

الخطأ الذي وقع فيه الحواريون في خطابهم لنبيهم فقال حسب قراءة الكسائي : هل تستطيع يا عيسى سؤال ربك، كيف يجوز في العقل هذا التأويل مقارنة بصريح لغة القرآن ، لا أعرف ، ولكن ما أعرفه تماما أنها محاولة لتبرئه الحواريين من الخطأ الفادح الذي سقطوا فيه. فانظر كيف تكلف الكسائي القراءة: حيث قلب ياء يستطيع إلى تاء فصارت : هل تستطيع ربك؟ وهي جملة لا نقبلها من طفل في الرابعة من عمره، ثم تكلف إدغام اللام في (هل) بـ(تاء) (تستطيع) فتصير كالآتي : هتّستطيع. ولا أعرف إن كانت هذه لغة إعجاز أو طريقة تلفيق ؟! وهذا ألطف ما قيل من قبل المفسرين، مع وجود ما هو أوعر من ذلك تكلفا وتأويلا للخروج من المشكلة[١] .

- التقليد الأعمى:

خذ مثلا مفسرا من المعاصرين ولاحظ كيفية هروبه من مواجهة لغة خطاب الحواريين غير اللائقة مطلقا، قال د. محمد سليمان الأشقر في زبدة التفسير:" والحواريون هم تلاميذ عيسى لم يشكوا في استطاعة الباري سبحانه فإنهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك وإنما طلبوا الطمأنينة".[٢]

إن كان الأمر كذلك فلماذا قال لهم عيسى: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين يا أستاذ التفسير؟ من الواضح أنه يقتفي خطى الأوائل في التلفيق. فظاهر النص القرآني واضح جدا، وقد طلبوا أن يأكلوا بصريح العبارة ثم ليعلموا أنه صادق. راجع نص الآية، فالكلام كلام الله لا كلامي.

---

١) انظر أيضا من المعاصرين: تفسير الشعراوي رحمه الله. أخبار اليوم. قطاع الثقافة. مجلد٦.ص ٣٤٦٠ . وانظر كذلك تفسير النسفي. دار الفكر.مجلد١ . ص٣٠٩ . لم يجئ فيهما شيء جديد غير ما قاله الثعالبي.

٢) زبدة التفسير. محمد سليمان الأشقر.داتر النفائس.الأردن.ط٢ .٢٠٠٤ ص١٢٦ .

- تأييد الخطأ بخطأ:

أعود للثعالبي لأعرض لك محاولة جديدة :

"وقال قوم قال الحواريون هذه المقالة في صدر الأمر قبل علمهم بأنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى ويظهر من قوله عليه السلام اتقوا الله إن كنتم مؤمنين إنكار لقولهم واقتراحهم الآيات والتعرض لسخط الله بها وقلة طمأنينتهم إلى ما قد ظهر ولما خاطبهم عليه السلام بهذه المخاطبة صرحوا بمقاصدهم التي حملتهم على طلب المائدة فقالوا نريد أن نأكل منها... "[١]

لاحظ اقتراح القوم بأن الحواريين كانوا كالمؤلفة قلوبهم، لم يطمئنوا بعد بصدق المسيح، لذلك برر جوابه لهم بقول: اتقوا الله. وهو يعبر بما لا يدع لي مجالا للتعليق، عد للاقتباس وتأمل مرة أخرى لترى كيف يتحاشون نسبة الخطأ للحواريين، ولا أدري ما عليهم لو قالوا إن الحواريين شكوا في هذه اللحظة وأخطؤوا، ولم يكن ذلك سلوكاً مناسباً منهم لأنهم بشر، - والبشر كما تعلم- خطاؤون؟ لكن مفسرينا لا يريدون قول ذلك، ويريدون رفعهم إلى رتبة الأنبياء وتبرئتهم من كل نقص، وهو مخالف لطبيعة الإنسان.

سأضع هنا المثال الأخير الذي أهدف من ورائه نقد الفكر الذي قامت عليه أسس ثقافتنا من البعد عن العقلانية والذهاب في ميتافيزيقا الفكر واللغة بتأويلها كل مذهب :

قال الله تعالى في سورة الإسراء: ((وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا))[٢]

---

١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن: الثعالبي.ص ٤٣٩.

٢) [الآية ٥٨].

قبل أن أعرض عليك تفسير الطبري أريد أن أضع هذا السؤال: لماذا يريد الله تعذيب وإهلاك القرى جميعها؟ فحسب النص يظهر الوعيد لكل "القرى" دون استثناء، وهذا الوعيد سيتحقق قبل يوم القيامة ، خذه من كلام الطبري والأحاديث التي يرويها، إذ يقول: " القول في تأويل قوله تعالى : ((وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا))

يقول تعالى ذكره : وما من قرية من القرى إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء ، فمبيدوهم استئصالا قبل يوم القيامة ، أو معذّبوها ، إما ببلاء من قتل بالسيف ، أو غير ذلك من صنوف العذاب عذابا شديدا. كما حدثني محمد بن عمرو ، قال : حدثنا أبو عاصم ، قال : حدثنا عيسى ؛ وحدثني الحارث ، قال : حدثنا الحسن قال : حدثنا ورقاء ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، في قول الله عزّ وجلّ(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) فمبيدوها(أَوْ مُعَذِّبُوهَا) بالقتل والبلاء ، قال : كل قرية في الأرض سيصيبها بعض هذا"[1].

المأساة الكبرى هنا أنهم لم يبيّنوا سبب إرادة الله في تعذيب الناس في هذه "القرى"، والنص كما تلاحظ لا يستثني قرية منها: (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا) ، فهل يعقل أن تكون كل القرى على وجه الأرض كافرة بالله تعالى وتستحق هذا العذاب بالإبادة الجماعية بالسيف أو بغيره؟

نص مثل هذا يحتاج إلى عالم كي يوضح لنا الأمر، وإلا فإنهم يصورون لنا الله - تعالى عن ذلك علوا كبيرا- مجرما يحب إراقة دماء البشر بلا سبب.

هذا النوع من الفكر لا شك يعاني من أمراض خطيرة، والمؤسف في الموضوع أننا لا نجد حتى من علمائنا من يبين لنا شيئا في مثل هذه الآية، والآيات المشابهة كثيرة جدا في القرآن، مع أنهم يحثون الناس على تدبر القرآن الكريم، والتدبر يعني الوقوف عند الآيات وفهمها، لا المرور عليها بشكل سريع طائش كما يفعل كثير من الناس

---

١) جامع البيان. ج ١٧ . ص٥٤٤

ويتباهون بذلك فيقولون: لقد ختمت القرآن في شهر رمضان عشر مرات. فهل يفهم من آي الله شيئا من يمر بالكلمات بهذه السرعة الكبيرة.

نحن الآن في تناقض خطير بين تدبّر كلام الله وهو ما يحثنا عليه القرآن نفسه والدعاة، من ناحية، وبين فهم مثل هذه الآيات من ناحية أخرى.

صاحب زبدة التفسير يضيف إلى تفسير الطبري : القرى الكافرة.[1]، مع أنه يكرر كلمة "استئصالا" التي جاء بها الطبري. وسؤالي هنا لِمَ لَمْ يأت ذكر (الكافرة) في الآية بعد ذكر "القرية"؟ فالآية لم تحدد ملة أهل القرى التي يريد الله تعذيبها أو إهلاكها؟! وواضح جدا أن الكلمة المضافة إلى قول الطبري جاءت بوحي من خاطر الأشقر، لأنه لا يتصور إرادة الله في تعذيب الناس بلا سبب.

- غياب الحس النقدي.

أما عن التأريخ فحدث دون أي حرج، و لا بأس سأضرب لك مثالا من كتاب تاريخ حول حادثة مقتل عثمان رضي الله عنه، يقو ل السيد عبد العزيز سالم في "تاريخ الدولة العربية": " وأيقن عثمان أنه هالك لامحالة، ثم دخل عليه رجل من الكوفة بمشقص في يده، فوخز به منكبه مما يلي الترقوة فأدماه، وجاء آخر فضربه برجله، فجاء ثالث فوجأه بقائم سيفه فغشي عليه، فتصايحت نساؤه ورششن الماء على وجهه، فلما أفاق أقبل رجل من أهل مصر فأخذه بلحيته فانتزع منها خصلة، وعلاه بالسيف فتلقاه عثمان بيده، وضربه كنانة بن بشر التجيبي بعمود على جبهته ثم دخل سودان بن حمران فسل سيفه وهوى به على عثمان.."[2]

السؤال الوحيد الذي أريد توجيهه هو : أين كان المسلمون عندما كان أميرهم بين يدي قتلته؟

---

١) انظر زبدة التفسير. ص٢٨٧

٢) تاريخ الدولة العربية : تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية. السيد عبد العزيز سالم. دار النهضة. بيروت.١٩٨٦ .ص٥٧٠ .

فإذا قرأت الاقتباس السابق تجد الرجل تلو الرجل يدخلون إلى بيته وكأنه يسكن منطقة خالية ليس فيها إلا هو ونساؤه اللاتي انتظرن لما أغشي عليه ليرششن الماء على وجهه ليستفيق ليكمل الرجال الغرباء العبث به حتى قتلوه في النهاية. فأين الرعية التي كان يحكمها عثمان لما استبطأ وصول النجدة من الشام والبصرة على ما تذكر كتب التاريخ. ألا ترى معي أن هناك خللاً في الرواية هذه؟ على أن السيد سالم لم يأت بالرواية من جيبه، فهو يعود إلى المؤرخين كابن قتيبة والمسعودي وابن الأثير والسيوطي. وهذه رواية أنا شخصيا أقف منها موقف الحائر، فجند الله الذين فتحوا البلاد وقهروا كسرى والأباطرة عجزوا عن مواجهة ثلة جاءت لاغتيال أمير المؤمنين؟ وقد حاصروه في بيته أياما، وهل كان الجند المسلمون المتمرسون في القتال ينظرون!! غريب.

ثم المستفاد أيضا من مثل هذا التأريخ أن المؤرخين ينقلون عن بعضهم دون تعريض الرواية للنقد قبل سردها. والمتأخر يأخذ عن المتقدم كما رأينا فالسيوطي أخذ عمن قبله -وهم كثر- في "تاريخ الخلفاء"، ومؤرخو اليوم ينقلون الحوادث كما جاءتهم من أجدادهم الأوائل حتى دون الإشارة إلى نوعٍ من نقد الرواية التاريخية، فتقدم إلينا على أنها حقيقة مسلم بها، في حين يعتريها الكثير من الخلل ستكتشفه إذا انفقت من وقتك للتفكر في الحادثة... أين الخلل بالضبط؟

الخلل يكمن في تغييب التفكّر لا في غيره. حتى صار غيابه هو الأصل، والنقد صار ممارسة مشككة في الدين، لأن التاريخ أصبح جزءً من الديانة، والتشكيك فيه صار تشكيكا في رسالة محمد. لا سيما أن مثل هذه الأحداث تتخذ حساسية خاصة لأنها تتعلق بطائفية إسلامية، ونحن نعرف أن منشأ ما يسمى بالطائفة الشيعية كان منذ بدأ الانسجام السلطوي في الدولة الإسلامية يتحول إلى نزاع على السلطة أولاً، ثم وصل الاختلاف إلى العقيدة. والتاريخ كما تعلم ليس من الدين في شيء، لكن الحاصل هو العكس تماما أي إدخال ما ليس من الدين في الدين.

- **الشخصنة المهينة :**

وتستطيع أن تلمس هذا إذا أعربت عن شكك فيما يقول شخص معروف محبوب لدى عامة الناس معروف بأنه داعية متمرس في فن الكلام والخطابة، فمجرد شكك في كلامه يحوّله الناس على أنه قدح في الدين، كي يتسنى لهم توجيه الإهانة لك، بخاصة إذا وجهت إليه انتقادا سلبيا صريحا ، فمعناه عندهم أن الدين لا يعجب حضرتك. وستنال حظك عندئذٍ من الكلام اللاذع المهين. على الأقل سيقال لك: من أنت حتى تتكلم عن الشيخ فلان؟! حتى لو كان الشيخ فلان هاربا من مشفى المجانين. فلن تقبل العامة سماع كلام في نقده. لذلك فإن الأمر يتحول إلى شخصنة مهينة، وهذا يعني إهانتك كي يظهر لهم أن نقدك للشخص خاطئ لأنك لست له بمكافئ، في حين أن هناك كثيرا من الروايات لا تحتاج لأن تكون متخصصا في التاريخ لكي تنقدها، بخاصة إذا كان الخطأ فيها بيناً لصاحب الحس النقدي، ويمتلك القدرة على أن يفكّر باستقامة لا باعوجاج.

هكذا تترسخ قواعد التفكير في المجتمع، وليت الأمر يقف عند العامة، بل تجد ممن يحملون الرتب العلمية والأكاديمية لا يعون مثل هذا النقد، ولا يطيقون سماع كلمة في حق شخص يسوق الترهات والخزعبلات عليهم.

- **تقديس الأشخاص:**

كانت العبارات الأخيرة الماضية نوعا من تقديس الأشخاص، ربما يظهر هذا الملمح المرَضي الفكري أكثر ما يظهر عند الشيعة في كلامهم عما يسمّونهم "الأئمة" وعند السنة بـ"السلف الصالح"، والشيعة –كما تعلم –هي الطائفة المناهضة للند العَقَدي الأقوى وهي طائفة السُّنة، ولا يغرك ما بين الاثنتين أحيانا من تواد ظاهري، لأنه في الحقيقة تواد أشبه بما يقال بدموع التماسيح، أي تواد ميت بارد. ونار العداء مشتعلة في الداخل، يكفيك تدليلا على ذلك موقف الشيعة من جرائم مدينة الفلوجة ذات السكان

السُّنة التي نفذتها القوات الأمريكية بالتعاون مع فرق من الجيش العراقي المأمور بأمرها، والفلوجة كانت معقل مقاتلي السنة، فلا أنسى كبير هيئة علماء السنة لما ظهر على شاشة التلفاز متسائلا: أين إخواننا الشيعة، لِمَ لا نسمع منهم كلمة واحدة يستنكرون فيها ما يحل بإخوانهم السُّنة من ذبح كذبح النعاج؟! ولقد أراد الشيخ تسجيل الموقف لدى علماء الشيعة وعامتهم وسكوتهم على ما يجري لإخوانهم السُّنة من موت وهم ينظرون. لا علينا من هذا فمن مات مات، إلى رحمة الله وغفرانه، بإذنه تعالى، أما الباقي فعلى من لايزال في نفسه ذرة من إنسانية أن يتصرف بعقلانية، ويميز عدوه من أخيه كي يعرف لمن يوجه سلاحه.

تقديس الأشخاص في رأيي الشخصي جاء بتأثير من الطائفة الشيعية إلى الإسلام التي غالت كثيرا في تقديس ما أسموهم بالأئمة. وزعيمهم المهدي الذي دخل سردابا، ولا أحد يعلم متى سيخرج منه ولماذا دخل فيه أصلا؟ أجوبة هذه الأسئلة تجدها عند الشيعة وهي من الأسس لديهم. هذا لا يهم الآن ولكن دعني أذكر أن نسبة الأوكسجين إذا كان السرداب عميقا ستكون قليلة جدا، ولعله الآن في حالة يرثى لها من قلة الأوكسجين إلا إن تعهده أحد بأنابيب الأكسجين المضغوط كالذي يستعمله الغواصون. على أي حال الله أعلم.

الأئمة الذين يحدثوننا عنهم هم من سلالة الحسن والحسين أبناء علي كرم الله وجهه، وقد أحبهما رسول الله حبا جما وهم أهل بيته وآله، ولا أحد ينكر ذلك.

سآخذ مثالا واحدا كنت قد مررت به قبلا، وأعجبني ، والسبب أنه كتاب لو اتبعت كل ما جاء فيه عن الأئمة المعتمدين لدى هذه الطائفة من المسلمين لما وجدت وقتا لتشرب كأسا من الماء لما في هذا الكتاب من أعمال في كل مناسبة ويوم وليلة وظهيرة ومساء وصباح، وكل شهر من الأشهر الهجرية والأدعية التي تمتد إلى صفحات، وزيارات قبور الأئمة وما يجب أن يقال في الزيارة والأوردة المستحبة والواجبة وهكذا... لذا لو اتبعت ما جاء في كتاب " مفاتيح الجنان" للإمام العالم "قدس الله سره" عباس القمي لما فرغت لتوجيه نصيحة لولدك ولا وجدت وقتاً لتقرأ مقالة ، ولا حتى لتستحم لأنك لن تجد وقتا

لتكون فيه على جنابة. المشكلة أنني لن أستطيع إحالتك إلى صفحة أو صفحات محددة من الكتاب، لأن عليك الاطلاع على ما جاء فيه كله حتى تعرف ما أقول، أو دعني أقترح عليك أن تنظر في فهرس الكتاب الذي يأخذ أحدى عشرة صفحة، في كل صفحة عمودان في كل عمود عنوان الموضوع ورقم صفحته في الكتاب، فلو أردت إفراد لكل عمود صفحة واحدة فسيكون الفهرس وحده مؤلفاً من اثنتين وعشرين صفحة(١)، تخيّل الآن متن الكتاب والأدعية الواردة فيه، المستحب قولها في كل مناسبة.

ثم لا تقف عند ذلك بل انظر فقط في ألقاب الأشخاص الذين يأتي عباس القمي بالأورده والأدعية على ألسنتهم فبعد كل اسم تجد عبارة عليه السلام، تماما كما يقول أهل السنة بعد ذكر النبي موسى مثلا: عليه السلام. فسلالة علي رحمه الله تشبه تماما عند الشيعة أنبياء الله عند أهل السنة كما تلاحظ، بإمكانك الآن أن تتخيّل مدى قدسية الأقوال الصادرة عن هؤلاء، وهي أدعية ونصائح وأوردة ومناجيات وروحانيات ، لا هي بقرآن ولا هي بحديث صحيح عن رسول الله. وهي عندهم تحظى بأهمية أكبر من القرآن نفسه والحديث عن الرسول الذي يرددون اسمه.

سؤالي الأول هو: كيف تتصور عقلية شخص بنى معارفه على كتاب مثل هذا؟ تصوره كما تشاء، أما أنا فهو برأيي لا يعيش على الأرض، إنه في غيبوبة فقط. لن أزيد على ذلك حرفا. وسؤالي التالي هو: هل تعد من استقى معارفه من مثل هذا الكتاب وغيره مفكرا؟

- التفكير المزدوج:

ومما استحسنته لك في هذا الكتاب الدعاء الآتي وهو يقال في غيبة الإمام (عج)، و(عج) ترمز إلى قولهم عجّل الله فرجه أي خروجه من السرداب، يقول القمي بعد ترجمة كتابه من الفارسية إلى العربية :

" روى الكليني وغيره عن الأمام جعفر الصادق عليه السلام أنه علّم زُرارة هذا الدعاء

١) مفاتيح الجنان. عباس القمي. الفهرس ص ٨٢٠ - ٨٣٠ .

ليدعو به في غيبة الإمام (عج) وامتحان الشيعة : اللهم عرفني نفسك، فإن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك، اللهم عرفني رسولك، فإنك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني."[1]

الجميل في هذا الدعاء هو أن الإمام المعلم يشترط على الله، فتأتي الجمل الشرطية كالآتي : فإنك إن لم تفعل كذا لم يحصل لي كذا: فإن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك، أي إن الإمام المعلم يلقي المسؤولية على الله، لاحظ في النهاية، إنه سوف يضل عن دينه إذا لم يعرّفه اللهُ حجتَه. فإذا عَرّفه، فبها ونعمت، وإن لم يعرفه فسيضل وسيكون المسؤول عن ذلك هو الله لأنه حجب عنه الحجة. لأن الإمام قاصر بنفسه عن تحصيلها.

إقول: إذا كان هذا الكلام صحيحا؛ فنحن أمام خيارين لا ثالث لهما: الأول أن يستجيب الله له، ولو حدث ذلك لصار كل من يدعو بهذا الدعاء ممتلكاً للمعارف الآتية:

١- المعرفة بنفس الله- هذا إذا قبلنا بأن يكون لله نفس- لكن ذلك مذكور في نص الدعاء.

٢- المعرفة بنبيه، وهذا متحصل لمليار وثلاثمئة ألف مسلم ، فلا أحد منهم لم يعرف محمداً عليه الصلاة والسلام، إلا إذا كان المقصود بمعرفة النبي غير ما قلت لك، فساعتئذٍ عليك أن تسأل أحد آيات الله من أئمة الشيعة كالسستاني مثلا.

٣- أخيرا يتحصل لمن يدعو بهذا الدعاء ويُستجاب له يتحصل له معرفة حجة الله، ولا أعرف تماماً ماالمقصود بحجة الله، فإن كانت حجةً تدلنا على وجوده فهي مبتغى كل الفلاسفة والعلماء شرقاً وغرباً، فإلينا بها أيّها الإمام وفّقك الله، لأننا نقاتل حتى نتثبت من وجود الله ونتخبط بالعلم أحياناً وبالفلسفة أحياناً أخرى، ولديكم الحل!

الخيار الثاني هو أن لا يُستجاب له: وهنا نحن أمام ثلاثة احتمالات؛

---

١) المرجع السابق: ص ٨٠٠ .

١ - إما أن يُكتب للداعي ثوابٌ عند الله يدّخره له يوم الحساب.

٢ - أن يكون الدعاء مختلقاً، وليس له أصل. ولم يَرِد عن الإمام المذكور.

٣ - أن الله قاصدٌ أن يتحمل مسؤولية إضلال هذا الشخص بعدم إجابته لما شرطه الداعي عليه ، فلا يريد الله أن يعرفه نفسه مما يترتب عليه- حسب الدعاء- عدم معرفة العبد لنبي الله، إلى أن يضل عن دينه في النهاية ويدخل النار ، وكأن الله خطط لهذا الشخص إيقاعه في الضلال لسبب شخصي كي يجعل آخرته جهنم، وهي الشخصنة بذاتها، مع تنزيه الله عز وجل عن مثل هذا.

وفي ذلك من التفكير المزدوج ما لاحاجة لي في الإكثار في الكلام عليه، وملخصه أن الداعي هنا يخلط بين صفة إطلاق الله وصفة شخصنته، فالدعاء واضح بأنه يشخصن الله ويجعله كالتاجر في السوق، تفاصله على سعر سلعة ما، فقل لي ما الفرق بين قولك لتاجرٍ ما : إذا لم تبعني هذه القطعة بدينار فلن أشتريها من دكانك ، والفرق بين قوله في الدعاء: فإن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك.

هذا خلط واضح، ومشروع مفاصلة قائم بين شخصين، وهو ما لا يجوز في حق الله عز وجل. التفكير المزدوج يجعلك تقبل بفكرتين متناقضتين في الوقت نفسه. وقد مررت بذلك في الفصل الأول من هذا الكتاب، لكن ما جعلني أسوق هذا المثال هو أن العبد يشترط على ربه ما يرغب فيه ولا يطلب إليه بأدب أو التماس ورجاء. ولكن بنوع من ثقة الإمام المعلم بنفسه تجاه ربه، لأن الذي علمهم هذا الدعاء ليس- في نظرهم- شخصا عاديا بسيطا، بل هو إمام[1]. ومن ازدواجية الفكر أيضا ما له آثار كارثية، وإليك المثال الآتي:

---

١) أكتفي بعرض هذه المغالطات مع وجود عدد أكبر مما ذكرته منها مثل : مغالطة رجل القش، والشخصنة الانعكاسية، والشخصنة الانتسابية والشخصنة الظرفية والتخصيص، وخلط الذات بالموضوع. وقد ذكرما لم أذكره أنا هنا (إنكي) في مقالة في الفلسفة في موقع الذاكرة. واسمه اسم مستعار كما تلاحظ.

تناقض القول مع الفعل:

لن أتحدث في هذا كثيرا، لكن سألفت الانتباه إلى شيء وقع فيه خطأ جسيم جدا، وكان مفصلا تاريخيا ولن أخوض فيه أيضا ولن ألعب دور المحقق لكي أعرف من هو الظالم ومن هو المظلوم، فالمسألة لا يستطيع الحكم فيها إلا الله وحده.

نعلم أن الصحابة اختلفوا اختلافا شديدا بعد مقتل سيدنا عثمان بن عفان ، وقد كان أميرا للمؤمنين، انقسم الصحابة والتابعون إلى قسمين كبيرين؛ أحدهم وقف بجانب سيدنا علي بن أبي طالب، والقسم الثاني وقف بجانب الصحابي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، ولم يقف الأمر عند مسألة التضامن الوجداني مع أحدهما بل للأسف دارت بينهما الوقائع الدموية، ولا يعنينا من هذا إلا شيء واحد ، أن الطرفين مسلمان، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول من أهل النار، قيل: فهذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: لقد أراد قتل صاحبه؟)[١]

لا نستطيع نحن في هذا الزمان –في منظوري الشخصي- الحكم في المسألة ولا يعنيني الحكم فيها أصلا لأن حكمها كما أسلفت عند الله تعالى لا عند البشر، وقلة ثقتي الشخصية بالتاريخ أيضا تدفعني أكثر فأكثر بأن لا أبحث في الظالم والمظلوم، على أساس من المنطق البسيط فهناك من له حق وهناك من اغتصب أو حاول اغتصاب الحق. أما أن يكون الطرفان على حق فهذا لا يمكن أن يكون. ولكن ما أريد التنبيه عليه أن في الفئتين المتقاتلتين واللتين أراقتا الدماء من بُشروا بالجنة، فكان عليٌّ كرم الله وجهه واحدا منهم، والزبير رضي الله عنه كذلك على أن الاثنين كل منهما كان في طرف يقاتل ضد الآخر.

السؤال الآن: ألم يسمعا بالحديث الذي ورد قبل قليل وفيه نهي عن القتال وأن المسلم إذا قتل المسلم فسيدخلان النار، كما في حديث من لا ينطق عن الهوى؟ أي إن كلامه عين

---

١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية :باب الفتن، حديث رقم ٨٥٣٠. وانظر شرحه أيضا.

الحقيقة. ثم .. كيف يُبَشّر بالجنة اثنان سلّوا سيوفهم على رقاب بعضهم بعضا؟ ولا ننسى أن في المتقاتلين صحابة رافقوا رسول الله وتعلموا منه. فكيف يقع منهم ذلك؟ هذه المخالفات وقعت من العقلاء وأرجح الناس عقلا، وهم خير الناس كما قال صلى الله عليه وسلم: "خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم."[1]

هنا نحن أمام مسألة فكرية من ناحية وسلوكية ظاهرية من ناحية أخرى، فلا شك عندي أن الفئتين يعلمان موقف الدين من الاقتتال، وأنه ينهاهم عن ذلك، وجعل مصير المسلمين النار كما ترى، فكل المسلم على المسلم حرام، وهو معلوم من الدين بالضرورة، لأن أخوة العقيدة أقوى العُرى التي كان يطمح الإسلام إلى ترسيخها في النفوس، فلماذا خالف السلوك إحدى القواعد التي يتأسس عليها دين المتقاتلين؟ أي لماذا لم ينسجم السلوك مع القرار المسطور؟

نحن أمام احتمالات:

١- المتقاتلون لا يعرفون الحكم الشرعي في قتل المسلم للمسلم.
٢- يعرفون الحكم الشرعي وخالفوه عن غير قصد.
٣- وضعوا الحكم الشرعي جانبا لضرورة شرعية أدت إلى ذلك.
٤- تناقض الحكم الشرعي مع غيره، بحيث يبيح الأول القتال والثاني لا يبيحه.
٥- الاقتتال لم يقع، والحادثة التاريخية مكذوبة.
٦- حالت المصالح دون الأخذ بالحكم الشرعي وتنفيذه.

لا حاجة لي أن أقف عند كل احتمال، هناك احتمالات أخرى قد تدخل في الموضوع، ولكن الاحتمال السادس هو الراجح. أما الخمسة السابقة فلا يمكن أن تكون واقعية، دقق النظر فيها وستجدها كما وصفت لك.

و"المصالح" التي أتحدث عنها تتلخص في "السلطة"، فالاقتتال كان من أجل السلطة،

---

١) فتح الباري: باب المناقب. حديث رقم ٢٨٦٥ . وتمام الحديث: "قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثا ، ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السِّمَن".

والسلطة هدف عند الطرفين في حد ذاتها، فرغم أن النهي عن قتل المسلم للمسلم قاعدة قارة في النفوس ولا يمكن لأحد أن يجهلها، فقد خالفها المتقاتلون، إذن هناك القاعدة وما يقابلها من مخالفة، القاعدة هنا حكم، والمخالفة سلوك. والسلوك لا يأتي كما تعلم إلا من خلفية فكرية، والخلفية الفكرية هي ذاتها التي تعي النهي عن الاقتتال، والخلفية الفكرية هي التي ساقت القوم للاقتتال، فالتنازع صار واقعا بين خلفيتين فكريتين هنا، الأولى تاريخيا: قبلية عصبية، والثانية وقد تأسست على الأولى: عقدية.

والظاهر أمامك أن الخلفية القبلية هي التي تغلبت على الخلفية العقدية التي طرأت عليها، وقد أدى ذلك إلى ما علمت من سلوك الطرفين تجاه بعضهما والوقائع الدموية. وما أسفر عن ذلك من إزهاق للأرواح وفُرقة في صفوف المسلمين، وطائفية تقسم المسلمين اليوم إلى قسمين كبيرين كما تعرف.

الفصل الثالث

نتائج العلوم الحديثة والفكر اللاهوتي

- أولاً: البيولوجيا:

١- الطبيعة : بين التنظيم الإلهي الحكيم وبين العشوائية واللاأخلاقية.

٢- الهيكل العظمي (RD) بين البيولوجيا واللاهوت.

٣- الانتخاب الطبيعي. آلية تطور أم خديعة علمية؟

- ثانياً: الفيزياء الحديثة:

١- حلم آينشتاين ونظرية الأوتار الفائقة.

Super-String Theory

٢ - الثيرموديناميكا: القانون الأول ، والقانون الثاني.

٣- أخطاء لاهوتية في فهم الكونيات.

أولاً-البيولوجيا :

أ. الطبيعة بين التنظيم الإلهي الحكيم وبين والعشوائية واللاأخلاقية في البيولوجيا :

مدخل:

اسمح لي أن أخبرك بهذه الحادثة قبل الدخول إلى الموضوع، وأرجو أن يطول صبرك علي:

ظل الصبيّان طيلة أكثر من خمسة أعوام على باب مسجد حيّنا يحملان الصندوقين ذاتيهما ويبتعدان عن بعضهما مسافة لا تزيد على مترين، كان الاثنان يمتازان بهيئة رثة وبصوت جهوري عال، وهما يناديان داعِيَيْن الخارجين من الصلاة بعد خطبة الجمعة وصلاتها إلى التبرع "التصدّق"، الأول يجمع الصدقات لصالح أعمال الصيانة والتوسعة والتجديد للمسجد، والثاني كان يجمع في صندوقه أموالاً للفقراء والمساكين في الحي الذي وُلدت فيه. حتى أواخر التسعينيات من القرن العشرين كنتُ أعرف جميع أهل الحي تقريباً.

خطر ببالي يوماً أن أراقب توجُّهَ المصلين في أيّ صندوقٍ يضعون صدقاتهم، فهم أمام خيارين، فمعظم أهل الحي يتراوحون بين متوسطي الدخل إلى قليليه، وكنت أعرف جيداً أنهم لا يطيقون وضْعَ أموال طائلة في الصندوقين معا، جعلت من هذه المراقبة على مدى أربعة أسابيع (جُمَع) مسابقة : أيّ صندوقٍ منهما سيحوز أموالاً أكثر؟

الصبيان لا يملّان تكرار العبارات نفسها وبتواتر، "تبرعوا إلى هذا المسجد يا إخوان، المسجد بحاجة إلى دهان، وتوسيع في الطابق الأرضي، المسجد سوف يضم مُصلّى للنساء، فلا تحرموا إماءَ الله مساجدَ الله، المسجد بحاجة إلى سجاد جديد، وسولار للتدفئة، ما تنفقوا من خير تجدوه عند الله". وكان نداء الآخر : " من يقرض الله قرضا حسنا يضاعفه له، تبرعوا للعائلات الفقيرة في هذا الحي، المسلم أخو المسلم...من فرّج كربة عن أخيه..."

ظلت هذه العبارات البليغة ترن عاليا في المسامع رغم صوت باعة الخضروات والفواكه، والتنزيلات المذهلة عليها جلبا للرزق، فلا مانع من ذلك كما نص القرآن الكريم، ((فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله..))[1].

كانت نتيجة الاختبار مخيبةً لآمالي جدا، فإن مشروعات الصيانة بعد حوالي ثلاثة أشهر بدأت في المسجد، وأُعيد طلاؤه، وتوسيع طابقين لا واحد فيه، واستحداث مصلى للنساء...واكتست أرضه بحلّة جديدة من السجاد، كانت خيبة الأمل في أن الفقراء الذين أعرفهم ظلوا على حالهم. كنت توقعت ذلك لسببين: الأول أن الإمام كان يدعو المصلين للتبرع في صندوق الجامع قبل تكبيرة الإحرام عندما يتوجّه إلى القبلة بعد نزوله عن المنبر بوقار ململماً عباءته الجميلة حول جسده المنفوخ، ويشدد على ذلك بينما الناس وقوف متأهّبين للبدء بالصلاة، ويختم بقوله:" ولا تنسوا إخوانكم الفقراء" ثم يكبّر : الله أكبر . إيذاناً بالدخول في الصلاة.

لم يزد الإمام على عبارة : ولا تنسوا إخوانكم الفقراء، حرفا واحدا، بينما كان ينفق أكثر من ثلاث دقائق من العبارات المتوالية في الدعوة إلى دعم صندوق الجامع، والثاني: من مشاهدتي لتوجّه المصلين إلى وضع معظم التبرعات في صندوق الجامع ، والقليل منهم كانوا يتوجهون إلى صندوق العائلات الفقيرة...على المستوى الإنساني هذا مخيب للآمال فعلا في نظري. لأن ما حدث في المسجد من توسعته وتغيير سجاده وطلائه لم يرق لي بصراحة مقابل وجود عدد لا بأس به من الفقراء في الحي نفسه.

توجهت يوماً إلى الإمام بُعَيد صلاة العشاء من يوم خميس، وكان صاحب وقار وهيبة وعلم، وسألته بصراحة: مَن أولى برأيك يا شيخنا؟ الإنسان أم جدران المسجد وسجاده؟ تبسم وقال: يا أخي.. الاثنتان من أولويات المؤمن، المسجد كما تعلم بيت الله، وله علينا حق، وهو يجمع المسلمين كما تعرف، ولابد أن يكون لائقاً لنقف بين يدي الله فيه، فإذا كان نظيفاً مرتباً مصوناً فهذا خير، وتوسعته تبشّر بصحوة ورجوع إلى الله، وذلك خير أم أنك تراني مخطئاً؟! قلت: لا، أنت على حق طبعا، ولكن ألم يقل الرسول

---

1) (الجمعة: ١٠)

صلى الله عليه وسلم: جُعلت لي الأرض مسجدا؟ أَوَ لا توافقني أن المؤمن أكرم عند الله من الجدران والسجاد؟ لِمَ لا تكون الدعوة إلى التبرع في صندوق العائلات الفقيرة هي الأولى كونهم آدميين ومن أهل مِلّتنا؟

فقال: ومَن قال لك أننا لا نجمع التبرعات لهم؟

قلت : حالُهم يقول ذلك صراحةً، أنا لم أسأل أحداً منهم، ولكنهم مازالوا على حالهم من البؤس يا شيخ، في حين حال المسجد تغيّر وتحسن، وأنا أدرّس عدداً من أولادهم في المدرسة التي أعمل بها، وسِجلاتهم المدرسية في وكالة الغوث (UNRWA) تشهد على ذلك، وهي شهادة يحملها الطالب معروفة باسم HARDSHIP CASE، حقائبهم المدرسية رثّة، ويَرِثُها صغيرُهم عن كبيرهم، ملابسُهم الشتوية التي يلبسها الأطفال هي ذاتها، "بلوزة" ليس تحتها شيء في البرد، ومن استطاع شراء معطف شتوي، فإنه يشتريه من "البالة" أي الألبسة المستعملة، يعني المهترئة يا شيخ؟ أين تذهب تبرعات الناس للفقراء؟ غضب إمام المسجد وظنّ أنني أتهمه بالسرقة هو والقائمين على تقسيم التبرعات، وأنني موكّل بالتفتيش عليه.

انتهى الحوار بعد أن أسمعني عبارات التوبيخ بطريقة غير صريحة. وكانت عبارته الأخيرة: "الله يهديك ويسامحك". مع أني لم أتهمه بذلك لأني شاهدت الناس يضعون التبرعات الأكثر في صندوق الجامع ، ناسين إخوانهم الفقراء.

انتهى الحوار لكن الأسئلة تلحّ عليّ أكثر، وأكثرها في ذلك هو: لماذا يتبرع الناس للمسجد أكثر مما يتبرعون للفقراء بكثير؟ أفكر في السؤال أكثر بعد كل صلاة جمعة. لم أجد تفسيراً إلا أنهم يتبعون توصيات الإمام الملحّة. ولكن أقول في نفسي: أليس فيهم رجل رشيد! يَكْرَمون على الجدران ويحرمون الإنسان؟ أي فكر هذا؟!... ظلت حالي على ما هي عليه إلى أن اكتشفت السر الذي لم يكن سرّاً في الأصل، لكنه كان غائباً عني تماماً، كمن يبحث عن شيء وهو في يده، إذ سمعته من أحد المتبرعين الأصدقاء وهو يقول لي : "النية"، إنما الأعمال بالنيات... يا فهمان، فإنك مادمت تصدّقتَ فقد نِلت الأجر وانتهى الموضوع، سواء تصدقت للجامع أم للفقير.

آه... ولكن هل هذا معقول؟ هذه كانت الأسئلة التي تدور في خاطري وأنا أدوّنها الآن هنا.

ظلت الأمور على حالها بعد كل صلاة الجمعة، وظللت لا أفهم ما يجري، حتى سمعت الشيخ المرحوم الشعراوي يفسر على شاشة التلفاز قوله تعالى: ((مَن يقرض الله قرضاً حسناً يضاعفه له أضعافا كثيرة))، ويناقش الآية بأسلوبه المعهود وهو أنه يصور لك أن هناك مشكلة في الآية ثم يقدّم حلاً لها، وإليك مضمون كلام الشيخ الشعراوي وليس حرفياً: الآية بتقول إن الله يحتاج إلى قرض من عباده. لكن كيف؟ هل يمكن ذلك؟ إن الله غني عن العباد. الموضوع أنه إذا تصدقت للفقير يعني أنك رزقته نيابةً عن الله، وصار لك حقّ عند الله، وهو أنه يسدد لك هذا القرض، لأن الله هو الرب المسؤول عن زرق عباده، يعني أنك قمت بإعطاء الفقير مالا من مالك وأنت غير مسؤول عن الفقير لأن الله هو المسؤول عن رزقه، وهذا المال من مال الله أصلا، ولكن الله من رحمته بالناس يختبر حبك للمال، وأنت إذا أعطيت الفقير نيابة عن الله فهذا يعني ثقتك بالله، وأنه لن يخلف وعده اللي أعطهولك، يضاعف ما أعطيت الفقير أضعافا كثيرة. إذن أنت تأتمر بأمر الله، فتكسب رضاه، وتكسب مالك مضاعفا فيحصل لك الخير من وجهين".

أعجبت بهذا التفسير أيّما إعجاب وتمنّيتُ أن يكون إمام الجامع استمع إليه، وكي ينقله للمصلين في إحدى خطب الجمعة القادمة. لكنه لعظيم الأسف لم يفعل.

لم يبق لي إلا تفسير واحد وهو سوء الظن بخطة الله في الأرض؛ إذا كان الأمر على ما يقول الإمام. لأن الإنسان والحجر متساويان في هذا المعيار. فلا فرق بين الإنسان المحتاج وسجاد المسجد أو طلاء جدرانه. لأنك على الحالين تكسب الأجر نفسه، فهي صدقة لوجه الله، ولبيته. مع أنني لا أشك أن الأجر سيكون مختلفاً، وأنني لا أشك في أنه يمتنع التبرع للمسجد في حال وجود فقير مسلم واحد.

ولكن الأمر ليس بيدي ولست أنا الذي يقرر ذلك. إنه قرار الله ((إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر))[1]، ويعمر : تعني على قول إمام الجامع عمارة المسجد بالدخول فيه وأداء الصلوات المطلوبة، وإعمار بنيانه وصيانته باستمرار لأنه بيت الله، على حد سواء، وليس للمعجم ولا لعقلاء المفسرين هنا دور في تفسير معنى (يعمر مساجد الله)، إلا العملين معا، وليس عند هذا الإمام وحده ، بل عند جمهور المصلين جميعا، وربما من لا يصلي يتبعهم في ذلك. ومما يؤكد هذا أنك إذا تجولت في مساجد مدينة مثل عمان مثلا ستجد العجب في الزخارف وفاخر أحجار البناء والأخشاب والمنابر الفخمة التي توقع الرهبة الروحانية للمحاريب في نفوس المتقين.

ولا شك في أنها كلفت الكثير من الأموال، كي ينعم المصلون بأجواء رائعة أثناء الصلاة، وليرزح الفقراء تحت شراشف أسرتهم الهريئة، ولبنات بيوتم هذا إذا جاز أن نطلق على الأشياء التي يسكنون بها لفظ "بيت"، في المخيّمات المزدحمة بهم، والفقر مصدر كل داء في المجتمع، وأحد أقوى دوافع الجريمة، وهنا ترى التناقض بعينيك إذا كنت ممن يرون الأشياء على حقيقتها، فبينما ينعى الأئمة على الأمة تخليها عن الأخلاق، وانحلالها، وشيوع السرقة والسعي لتحصيل قروض من "البنوك الربوية"، يدعمون بناء المساجد الفخمة للتعبد تاركين الفقراء على أحوالهم، والحق أنه لا يجوز قول كلمة واحدة حول الجريمة الأخلاقية وهم يفعلون ذلك ويدعون إلى إعلاء بنيان المسجد وزخرفته كي يبدو جميلاً وجاذباً للمتقين، والأحق من ذلك أنهم هم المجرمون الحقيقيون، فلا يتقنون إلا الدعوة إلى التحلي بالأخلاق التي نص عليها القرآن وجميل السيرة النبوية.

ولكن كيف تتحول هذه الدعوة إلى ممارسة فعلية نراها في المجتمع والفقر رفيق حياة عدد كبير من الناس! فإن الأمر لا يعنيهم على الإطلاق، والحل يكمن في التخلص من الفقر، وأنا أجزم أن علاج مشكلة الفقر لا يتولاها الدين في مجتمعنا

---

١) (التوبة : ١٨)

وليس معنياً بها على الإطلاق وهي قضية هامشية جداً فيه، وعبؤه يقع –في منظور الدين- على الدولة وحدها، وهي المسؤولة عن حل مشكلة البطالة والفقر، هم يرون الأمور كذلك، ولكنها بالتأكيد نظرة قاصرة، أليس للدين دور في حل هذه المشكلة؟ وهي ممارسة لا نستطيع أنكارها، لأنها مقصورة على ذلك الصندوق الذي يحمله الصبي، وعند حدود هذا الصندوق ينتهي دور الدعاة والأئمة.

فهل ما يجري في المجتمع تنظيم إلهي مقصود أم عملية عشوائية؟ هل الأرزاق توزع على الناس لتكون نوعاً من الاختبار لهم على حد قولهم: " الكل مبتلى" :الفقير والغني على حدٍّ سواء، أليس في ذلك تناقض بين مفهوم الابتلاء وما يجري من فوضى في المجتمع الإسلامي؟ كيف يبتلي الله فلاناً بالغني ويبتلي آخر بالفقر ويحاسب الاثنين على أداء الصلوات والتحلي بالأخلاق التي أمر بها، كيف لا يغش أو لا يسرق من لا يجد؟ كيف لا يحتال من لا يؤمّن له دينه ومجتمعه الدواء، وهل من المعقول أن يكون "الغني الشاكر خير من الفقير الصابر؟!"...هل يُعدّ مأثوماً من يحمل بطاقة تأمين صحي لابن أخيه ليأخذ ابنه ليتعالج على أنه الشخص الحقيقي صاحب البطاقة في حين أنه ليس مؤمّناً صحياً؟ هل يُعد هذا نوعاً من الغش والسرقة أم نوعاً من التحايل المشروع على الفقر؟ الفقر بلاء والغنى بلاء، فلماذا وضع الإسلام نظاماً صارماً للزكاة وجعلها أحد أركان الإسلام؟

أليس في ذلك تناقض، أم إن هذا الفرض هو مجرد اختبار للأغنياء حتى يرى الله هل ينصاعون لأوامره أم لا؟ فإنك لا تفهم من الأوامر والنواهي إلا معنى الاختبار فقط، أنا لا أشك في أن عدداً كبيراً من الفقراء مازالوا يدعون الله منذ سنين أن يوسع في رزقهم ويخرجهم من دائرة الفقر، ولكنهم ما زالوا في هذه الدائرة. ما معنى ذلك؟ المعنى الذي أفهمه أنه سيأجرهم في الآخرة ولكن في الدنيا عليهم ويبدلهم بدار غنى بعد دار الفقر التي عاشوا فيها.

إذن فالفقر والغنى ليس مجرد ابتلاء، كلمة "ابتلاء" هي نوع من تخدير الفقير لا أكثر لأن البلاء والصبر متلازمان وعلى الصبر أجر عند الله تعالى.

أم أن الأمور عشوائية؟ فهل نعد من يسكن بيتا بملايين الدنانير مسرفا ولا أخلاقيا ويتحلى بصفات لا إنسانية لأنه يعلم أن له أخا من بني دينه يسكن في ما يشبه المغارة؟ أم نقول : هذا ماله وهو حرّ في التصرف فيه كيفما شاء؟ وأن من حكم في ماله فما ظلم؟ ما الذي يجري؟! وكيف نفسره؟

هل أكون محقّاً عندما أردد مقولة البيولوجيين : "**الطبيعة عمياء، وعشوائية، ولا أخلاقية**" ، هذه الأوصاف التي يطلقها البيولوجيون على الطبيعة بثقة كلها تخالف مذهب تناغم الكون وتصميمه الدقيق، و"خطة الله في الكون"حسب التعبير المسيحي، وعليك أن تتنبه إلى أنني أشير إلى (الطبيعة) لا إلى (الفيزياء) كعلم، وهو جمع من القوانين والنظريات المصوغة رياضياً بشكل تجريدي لمتغيرات حسابية، لتفسير الظواهر في الطبيعة والتنبؤ ببعضها، وهي من وضع الإنسان وفهمه لسلوك المادة. فإن كان الخالق قد سخر ما في الأرض لخدمة المخلوق المُكرّم (الإنسان)[1]، فلماذا خلق من الحيوانات ما يفترس الإنسان كالأسد والنمر والفهد والضبع والأفعى والعقرب والتمساح وسمك القرش؟ أو يؤذيه على الأقل؟ فأين هذه المخلوقات من مفهوم التسخير؟ ولا أخلاقية الطبيعة تمثلها ظاهرة الافتراس بشكل آخر، فقد يقتل الجنين أمه كي يخرج حيّا من رحمها دون وعي طبعاً، وتحتل بعض الطيور أعشاش طيور أخرى وتضع بيوضها مكان بيوض الأولى بعد أن تلقي بها من مأواها إلى الأرض فتقتلها، والفيروسات تقتل الكائن الذي تسكنه أو تضعفه ليس من أجل ممارسة القتل أو الإيذاء بلا وعي ، بل من أجل المحافظة على حياتها هي وتكاثرها.

علّق دارون سنة ١٨٦٠ على "الطبيعة اللاأخلاقية" التي تظهر فيها ظاهرة الافتراس والتعذيب الغريزي الذي يُحدثه حيوان لآخر بغير وعي قائلاً : "لا أستطيع أن أرى ما

١) قال الله تعالى : ((ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)) [الإسراء: ٧٠].

يراه الآخرون واضحا ، وكما آمل أن أرى من دلائل على التصميم و الرحمة في كل مايحيط بنا ، ما يظهر لي أن هناك الكثير من البؤس في العالم . (١)

فإن كان ما يجري في عالم الحيوان من هذه الظواهر التي تبدو لنا –أخلاقياً- شرورا وإن كان الإنسان يمارسها ضد أخيه الإنسان، فإن التفكير باستقامة يبيح لنا أن نستنتج أن الحيوانات هي الأخرى مبتلاة، وداخلة مع الإنسان في الاختبار الذي صممه الله في الكون لأنها أُمم، ولأنها تفعل كما يفعل الإنسان من ممارسة الشرور. وقد تقول إن الإنسان مختلف لأن له عقل يميز الخير من الشر والحيوان لا عقل له، والبيولوجيا تنطق بذلك أيضا فكيف نجمع بين الإنسان والحيوان في هذا الابتلاء الرباني، إذن هو مخصوص بالإنسان وحده.

أقول : ليس في الأمر اختلاف بين الحيوان والإنسان، سوى في "الأداة" التي يستغلها في ممارسة الشرور، وهي العقل، فالعقل عند الإنسان سلاح أو أداة لا يمتلكها الحيوان كي يمارس فعل الشر، بينما يستغلها الإنسان أحسن استغلال فيفتك بأخيه بذكاء وحنكة، ويخطط للإيقاع به بواسطة هذه الأدة "العقل"، ولا تنس أن للثعلب مثل هذه الأداة فله من العقل ما يمكنه من الإيقاع بفريسته بالخدعة "الذكية". ولغيره من

---

١) يقول كارل ساغان في مقالة بعنوان الطبيعة اللاأخلاقية : " بل كان الموت البطيء من تغذي الطفيليات كما هي حال يرقات دبور الأيكنيمون.تعيش الأيكنيمون Ichneumon ، مثل كل أنواع الدبابير ، حياتها البالغة وهي طليقة ولكنها تقضي مرحلتها اليرقية كطفيليات تتغذى على أجسام حيوانات أخرى ، غالبا ما تكون الضحايا يساريع الفراشات. تطير أنثى الأيكنيمون إلى أن تجد مضيف مناسب ومن ثم تحوله إلى مصنع غذاء لأولادها. تضع العديد من الإناث بيوضها مباشرة على جسم المضيف ، وتحقنه بسم يشل حركته ، قد يكون الشلل دائم أو مؤقت ، تكون اليساريع حية ولكنها غير قادرة على الحركة ، بينما العامل الذي سيسبب هلاكها موضوع بإحكام على بطنها . تفقس البيوض ، ينتفض اليسروع البائس ، تثقب يرقات الدبور جسمه و تبدأ وليمتها الرهيبة. و بما أن اليسروع الميت والمتحلل لن يفيد اليرقات ، فإنها تأكل بطريقة تذكّر ، مع محدودية تأويلنا المتمركز على الإنسان ، بالعقوبة الإنكليزية القديمة للخيانة العظمى – حيث كان يتم استخراج أكبر عذاب ممكن بإبقاء الضحية حية عند انتزاع أحشائها ، وكذلك تفعل يرقة الأيكنيمون فهي تأكل الأجزاء الدسمة و أعضاء الهضم أولا ، وتُبقي اليسروع حيا فتترك القلب والنظام المركزي العصبي دون أذى . وفي النهاية تكمل اليرقات عملها وتقتل الضحية ، وتترك خلفها غشاء اليسروع الفارغ. صورة دبور الأيكنيمون تزرع بيوضها داخل جسم يسروع العثة وهو في طور الشرنقة فاقدا القدرة على الدفاع عن نفسه" كانت قضية دبور الأيكنيمون وطريقتها الغريبة في تغذية صغارها داخل أجسام اليساريع الحية مثار نقاش العديد من علماء الطبيعة في القرن التاسع عشر حيث أنها صدمت تصورهم الجمالي المتكامل للكون و الخلق". المصدر : مع اللادينيين والملحدين العرب . "الطبيعة اللاأخلاقية". بقلم كارل ساغان. المقالة مترجمة إلى العربية ومنشورة على الإنترنت في الموقع: www.ladeeni.net .

الحيوانات كذلك ما يمكنها من استغلال عقلها في أفعال نسميها أخلاقية تمارسها تجاه أبناء جنسها كما يفعل الطيب من الناس تجاه إخوته من البشر، وسلوك الفيلة ليس بعيدا عنك، اقرأ حول سلوكها وكيف تتصرف تجاه بعضها، فستلاحظ أنك تصف سلوكها بأنه أخلاقي خيّر، ولا تنس أن الكلب مضرب مثل في الوفاء.

ولاحظ سلوك القط الأليف الذي تعرفه جيدا، فإن أنت حرمته من طعام، وتمكن منه فسيأخذه خلسة عنك، أي سيسرقه ويحاول أن يتخفى عنك ليأكله، وإن أنت منحته إياه عن طيب خاطر فسيأكله أمامك دون أن يختفي عن ناظريك. والشواهد في الطبيعة أكثر من أن تحصر، وتجد فيها ما يؤيد شريعة الأخلاق لدى الحيوان وشريعة الغاب في الوقت نفسه، ولا أظنك تجادل في أن في مجتمع الإنسان مثل هاتين الشريعتين.

هذا بدوره يقود إلى ضرورة فهم معنى "الشرّ" في الطبيعة أو الشر العام الذي يقابل الخير. وبألفاظ فلسفية أخرى إلى حد ما، هي: "النور " مقابل "الظلمة".

لأرجع إلى مفهوم الشر في الإسلام: وهو على الأنواع الآتية؛ شر لا علاقة للإنسان به، كموته أو أذاه الذي يقع عليه من زلزال أو بركان أو سقوط عمارة ... وهو ما يسمى بقضاء الله وقدره، وشر ليد الإنسان سببٌ فيه عن قصد، وهو أن يتسبب إنسان في إيذاء آخر قاصداً، ولهذا النوع في الشريعة عقوبة كالقتل والسرقة مثلا.... وشر عن غير قصد، وهو ما يتكفل المتسبب فيه بعلاج أو دفع دية لولي أمر القتيل في حالة القتل الخطأ. وإذا وقفت في زاوية بيولوجية وفسرت هذه الشرور ستكون على النحو الآتي: الأول هو مجرد ظواهر طبيعية تقع لأسباب طبيعية أيضا، جيولوجية في حالة مثل البركان والزلزال وانهيار جبل ...

أما الثاني فهو مجرد خطأ في سلوك الحيوان "الإنسان" بسبب جهله بعواقبه، كالقطة التي تأكل أولادها ظنا منها أنها تحميهم بإرجاعهم إلى بطنها.

والشر الأخير أي الشر المقصود هو نتيجة أنانية مفرطة في تحصيل منفعة فردية يريد أحد أفراد القطيع الاستئثار بها لنفسه. ولم يعد هنا لمفهوم الأخلاق لا عند

الإنسان ولا عند غيره من الكائنات معنى "للشر". فموضوع الشر هذا لطالما أحرج اللاهوت المسيحي لأنه يتضارب مع محبة الله للبشر بعد أن أهلك الحياة بطوفان نوح على ما تقول التوراة[١]. فلماذا يخلق المعاقين والأمراض والوحوش التي تفتك بحبيبه الإنسان، ويُسكِن هذه الشرور جنبا إلى جنب مع الإنسان الذي أراد له الخلاص، وهو بالكاد يمكن أن يتخلص (يهرب)من بين أنياب كلب مسعور قد يلاحقه في ظلمة ليل[٢].

فما يسميه الإنسان بالشر في الطبيعة، كالافتراس والعمل اللاأخلاقي التي تقوم به طفيليات الاكنيموس، وهو عمل يتكرر في الطبيعة بشكل لا يمكن حصرة في هذه الحشرة تحديدا، كل ذلك لا يدخل في البيولوجيا إلا في مبدأ عام هو الحفاظ على الحياة لا غير، وتستدعيه أيضا غريزة حفظ النوع. فالافتراس والقتل وامتصاص الدماء والتعذي على خلايا الآخرين في الطبيعة والقتل البطيء غير الواعي لا يعني لهذه الحيوانات أي قيمة أخلاقية، هذه القيمة لا تعدو أن تكون وصفا من وجهة نظر إنسانية فقط لهذا السلوك الغريزي لأنه (الحيوان) لا يعي "الأخلاق"، ولا يعرف أن الإنسان يلومه على ذلك. إذن؛ هل نقول إن هناك هندسة/ ناموس طبيعي يحكم هذه الحيوانات من أجل بقائها، ولا قيمة للأخلاق فيه؟ تماما كما كانت حركة الموكب ووقت مروره في سيرورة الزمن التي لا تؤثر مطلقا على من يقف في أعلى البرج وهو يرقب الحركة، والسلوك الطبيعي الذي نسميه لا أخلاقيا هو أيضا بدوره لا يؤثر –بمنطق توماس- على الله، فلماذا خلق الإله الرحيم المحبّ هذه الشرور؟

مذهب إكويناس هنا هو أن لا تنظر إلى الشر معزولا عن المحيط الكلي، فإن الشر يولّد خيرا، وكل ما تراه من شرور إنما هي أجزاء من كل عام هو خير في النهاية، وهنا

---

١) انظر في مفهوم الشر في اللاهوت المسيحي: **"دواعي الإيمان في عصرنا"**. الأب جيوفاني مارتينتي- نقله من الفرنسية الأب يوسف قوشاقجي راجعه: ريمون حرفوش. دار المشرق بيروت.١٩٩٧ ط١ . ص ٩١ وما بعدها.

٢) كيف تتحقق مقولة القدّيس " إيروناوس" : حياة الله فرح دائم لا حدّ له... ولكن " الله محبّة" ولذلك شاء أن يوجد كائنات يقيم معها علاقة حب فيشركها بحياته وفرحه...فأوجد هكذا البشر ليكونوا أحباء له متمتعين بخيراته، مساهمين فى سعادته...هذا هو مجد الله، أن يحيا الإنسان ويسعد: " مجد الله هو حياة الإنسان"

تلعب النظرة الكلية إلى حكمة الإله دورها في تبرير وقوع أحداث يحس الإنسان أنه مظلوم فيها كأن يولد أعمى أو مشلولا، وهو في الإسلام قضاء الله وقدره لأن الله قادر على أن يخلق هذا الإنسان سليما من الإعاقة ، ولذلك هو نوع من الابتلاء "الاختبار" وله في الآخرة مكافأة على صبره على عاهته إن صبر وشكر، ويؤكد الإسلام على ضرورة من يصاب بعاهة أن ينظر إلى من هو أكثر مرضا منه ؛ فيحمد الله على أن فيه مرضا واحدا فقط، فيجزى الصابر بذلك أجرا عند الله ، فإن قابلت بين "الشر" في المسيحية والإسلام فستجد أنه وجه آخر للخير، والديانتان تصران على أنه ليس هناك شر مطلق، بل في الشر أحيانا خير للإنسان، وبأن "الشر" الذي يلحقه الإله بالإنسان هو ليس شرا بالفعل، لذلك نجدهما مضطرين إلى نوع من تأويل الحدث، الذي ينتهي إلى تحويل الدلالة اللغوية، فصبح معنى "الشر" : الخير.

وترى هذا "الشر" في عالم الحيوان إذ ترى حيواناً يظلم آخر، ويلقي به إلى الفناء كي يبقى، هل ثمة فرق بين المشهدين الآتيين:

أسد أو اثنان يهجمان على ثور، فيمزقان رقبته بأظفارهما الحادة، ويتركانه ينزف ويصبران حتى يسكن تماما أي يموت ولا تبقى فيه ذرة من القدرة على الحركة ثم يرجعان إليه لينهشا لحمه، وبين الجزار الآدمي الذي ينحر الخروف ويصبر عليه حتى ينزف جميع دمه ثم يذهب بسكينه كي يسلخه ويقطعه من أجل طبخ لحمه وأكله في النهاية؟

الحقيقة التي نراها أن الإنسان أيضا يمارس هذا النوع من الظلم على الحيوان، فهو يقتل الخراف والبقر والخنازير والطيور ليتغذى، وإذا رأيت مشاهد من قتل الصينيين والكوريين للكلاب والحيوانات الأخرى وجردت نفسك من "تشريع" يحلل ويحرم، فستجد أن هذا السلوك لا يمكن تفسيره إلا حيوانياً تماماً، أي هو افتراس للحصول على الغذاء. وليس في ذلك —من وجهة نظر إنسانية و من وجهة نظر إلهية في مقولة "الله محبة"- أي معنى للشر، لأن هذا "الشر" هو مصلحة للإنسان المحبوب المكرّم ، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا الشر مقصود ومخطط له، و هو يتماشى تماما مع رحمة ومحبة "الحكيم" الذي خلق الكون، وأنه أحبَّ مخلوقاته؛ لأنه جعل سخر المخلوقات

جميعا لأن ينتفع بها الإنسان ولو اضطره ذلك إلى ذبحها، وهي شريعة طبيعية والموت جرّاء الظلم الواقع من كائن على كائن تصرفاً طبيعياً زرعه كغريزة في مخلوقاته، لا تستمر الحياة بدون هذا السلوك الذي نطلق عليه مرة أخرى - إنسانيا - تسمية : "سلوك إجرامي".

ثم هل تعتقد أن الحروب وما تسفر عنه من موت تختلف عن ذلك؟ الإجابة بيولوجيا :لا ، ولكن القتل هنا لا يهدف إلى التغذية، ولكن لحفظ سلامة "القطيع الإنساني"، واستمرارِه، لأنه مُعرّض للأذى من "القطعان" الأخرى، لأن الإنسان كائن اجتماعي، وهو تعبير مهذب عن اجتماعية الإنسان، والبيولوجيا كعلم طبيعي بعيد عن مسائل الاصطلاح المهذب وغير المهذب، وإذ يعد البيولوجيّون الإنسان اجتماعيا فهم يعبرون عن ظاهرة الاجتماع الطبيعية بكلمة "قطيع"، فالإنسان حيوان قطيعي، يحيا ضمن قطعان، والعشيرة، شكل من أشكال هذا النظام /القطيع.

في الحقيقة إن البيولوجيا لم تظلم الإنسان بحسبانها عِلماً لا بحسبانها رجلاً يستقبل ضيوفاً في بيته فيأخذ بترداد عبارات الترحاب والمجاملات، فنحن لا نعجب من أن الإنسان في البيولوجيا هو "حيوان" له ميزات، ونوع منحدر من نوع سابق، لذلك فهو منسجم مع الطبيعة بما لديه من مؤهلات تضمن له بقاءه بنوعَيه: (بقاء الذات، وبقاء الجنس).

لقد استُبدلت في المجتمعات المتحضرة لهذا "الحيوان"/ الإنسان، العشيرةُ كنظام قطيعي بالدولة ونظامها، الذي يُرتّب على كل فرد من أفراد القطيع واجبات، ويمنحه – إذا أدى ما عليه- حقوقاً تضمن حاجاته الرئيسية، موضوع استبدال نظام القانون في الدولة وإحلاله محل نظام العشيرة يعد بيولوجيا سلوكاً متطوراً عن حال تلك المجموعات الإنسانية التي ما زالت تحتكم لنظام العشيرة، ومن أجل أن تكون الفكرة أكثر وضوحاً، عليك أن تلاحظ أن الإنسان منسجم تماماً مع الطبيعية القطيعية سواء في تشكيله للدولة كنظام حاكم، أو العشيرة وهي النظام الأقدم والأكثر بدائية، وأن لكل من النظامين رأس هرم، تنصاع المجموعة لرأيه ويتخذ قرارات تسري على

الجميع، هنا يلزمك معرفة أن ما يجري على المستوى الإنساني يجري تماما على قطعان الثيران البرية والغزلان والمواشي ومجموعات لا تحصى من أسماك السالمون في البحر ، وكذلك الطيور. فلكل من هذه المجموعات نظام وله أيضا حاكم يوجه القطيع بأكمله، إذا جردت الإنسان من "التكريم" الإلهي الذي تتحدث عن الأديان سوف تجد أن الإنسان في اجتماعيته يدخل في هذا النظام على مستوى المجموعات كلها التي تنضوي تحت "القطيعية" .

إن لدينا أداة لها القدرة الفائقة على وضع أسس وترسيخها في أبناء القطيع، وهي اللغة، وهي تلعب لعبة السحر في القناعات، فببساطة تجد ذلك عندما ينهاك أحدهم فيقول لك: لا يجوز أن تسمي "المجتمع" "قطيع"، هذا احتقار لنفسك ولسائر جنس البشر الذي كرمه الله. فتلاحظ أن ما يجري إنما هو وهم لأن المسألة صارت مسألة تسمية أو اصطلاح، أي هي لعبة ألفاظ لا تتجاوز ذلك قيد أنملة، فالخلاف واقع في التفريق الظاهري بين "القطيع و المجتمع" أي ؛لا في توصيف الواقع بل في تسميته. لأن المفهوم الديني هو الذي يفرض اللفظ هنا كي ينسجم مع قواعده، فيجوز لك أن تقول قطيع من الأبقار، لأنها حيوانات/أنعام سخرها الله لتكون طعاماً للإنسان، ولكن لا يجوز لك أن تقول: قطيع من الناس، وإذا ترسخ ذلك عندك فستجد نفسك أسيرَ لغةٍ محددة، ومعجمك كله عندئذ فروع من شجرة واحدة لها الخصائص نفسها كبيرة كانت أو صغيرة، قصيرة أو ممتدة، هي الفكر ذاته التي تربيت على مبادئه. ولكن المسألة الأصعب التي تواجهك إذا وعيت ذلك هي: هل لديك القدرة على أن تشب عن هذا الطوق أو لا ؟ لأن أحكامك العقلية ومنهج تفكيرك المنطقي هو الآخر رهين رمزية الاصطلاح اللغوي. فإن استطعت الخروج من الدائرة التي يغلقها عليك بإحكام فسوف تتسع آفاق تفكيرك. والدليل على تقييد فكرك بالاصطلاح أن اعتيادك لفظا أو دالا لغويا من أصل لاهوتي أو إلحادي أو فيزيائي أو كيميائي..إلخ.. سوف ينعكس تماما في ذهنك، فيصبح الاصطلاح هو الحقيقة، وليس اسما للحقيقة أو الواقعة أو الحادثة، بمعنى أن القيمة الحقيقة تقع في المصطلح لا في الحادثة التي يدل عليها هذا المصطلح، فاتجاه التفكير يصبح: من الفهم "الذهن" إلى الواقع ، والصحيح أن يكون من الواقع إلى

الفهم. فكلمة "مجتمع إنساني" مقبولة ولا تفكر فيها إطلاقا، فيصير بذلك حاجبا عن قبول اصطلاح آخر للواقعة ذاتها في اللغة، لأن الاصطلاح الآخر سيعني لك شيئا آخر، ولن تدرك أنه تسمية أخرى أو اصطلاح آخر للحادثة نفسها. لأن الاصطلاح مؤسس على قاعدة فكرية " التكريم الإلهي للإنسان". ومؤدى ذلك في النهاية إلى إغلاق الفكر على نفسه ليدور حول مركزه. ومركزه هو "التعالي" في منطق فلسفة التاريخ، لأن مردّ الحكمة والعلم من منظور غير مقيّد بزمن هو التعالي ذاته وهو علم الله، والذي يؤدي إلى القدرة على فهم الواقع، بمعنى أن الاصطلاح ليس محايدا في التوصيف بل يحمل قيمة دينية أو اقتصادية أو... وفي ذلك خطر كبير على الفهم الصحيح لأي شيء تخضعه للتفكير أو الحوار.

ولا حاجة لي بالتفصيل في ذلك إلا أنه يتوجب علي أن أذكر نقطة مهمة هنا؛ وهي أن أفراد القطيع ملزمون في اتباع النظام، ومن ميزة هذا النظام أنه يُبْغض ويرفض الخارج عنه والقاصر(المعاق) الذي يشكل عبئاً على القطيع، وهو ما يحدث في المجموعات الحيوانية القطيعية. والسجن ومشافي المعاقين عقلياً، والمدمنين في نظام الدولة هو نوع من عزل وتهذيب أو علاج الخارجين على نظام القطيع، وتستطيع أن تقول إن نظام العقوبات الذي تجده في الديانات ذوات التشريع هو نوع من العقوبة الاستباقية(التهديد) أو الحاصلة بالفعل ضد هؤلاء الخارجين على النظام، المتسببين في الشر لعامة القطيع.

هل يمكن أن نصف هذا الكلام بأنه سطحي؟

لاحظ أننا في صدد عرض وجهتي نظر؛ لاهوتية وعلمية بيولوجية، وأن الطرفين متفقان على حقيقة أو مسلمة هي أن هذا الوجود حقيقي لا وهمي، فهو كون منظم موجود بالفعل خلقه الله في اللاهوت، وهو الطبيعة الموجودة بالقوة وبلا بحث عن خالق لها في البيولوجيا، لأن هذا البحث من مباحث الفلسفة والدين وليس العلم.

وسواء كان الكلام السابق سطحيا أو عميقا فهو توصيف صرح به الطرفان بوضوح؛ لذلك تستطيع النظر إليه بأية نظرة تروق لك، ولكن لا تنس أن أي تصريح

من أي طرف بقصد التقعيد لظواهر هذا الوجود لا بد أن يكون مدعوما بدلائل من الوجود نفسه، هذا إذا كنت تريد الوصول إلى حقائق مبرهنة، وعلى الصعيد الآخر يمكنك اعتماد مقولات اللاهوت غير المبرهنة علميا التي توصف بكل ثقة أنها ميتافيزيقا لأنها تتحدث عن غيبيات نؤمن بها ما دامت جاءت في القرآن الكريم بالدرجة الأولى، والسنة النبوية الصحيحة في الدرجة الثانية،

فإذا كانت الهندسة المهيبة في الفضاء وأجرامه وتنظيمها في أفلاك كما يذهب بالي فإن الأرض أحق بأن تكون فيها هذه الهندسة لأن الإنسان ذا التكريم الإلهي يسكن فيها، وهي كما نشاهد في الواقع خِلوٌ منها في نظر البيولوجيين، لأن على الأرض ما يناقض صريح الهندسة الدقيقة ويؤكد عشوائيتها. وفي مبدأ "الجمال" دعم لاهوتي للهندسة، وهو إن جاز لي أن أصرح بحرية دون مجاملة أقول : ربما يكون مبدأ "الجمال" من أضعف ما يركن إليه اللاهوتييون في دعم مبادئهم، فهو ببساطة ليس مقنعا.

سأضرب لك مثلا على ذلك من كتاب عنونتْهُ الشبكة الإسلامية للمعرفة بـ"**الله يتجلى في عصر العلم**"، وهو كتاب يجمع مقالات منسوبة إلى أعلام غربية متخصصة في حقول علمية طبيعية يذهبون فيها إلى إثبات وجود خالق وهندسة مخطط لها، وقبل أن تبدأ بقراءة المقتبسات من مقالاتهم عليك أن تقرأ الألقاب والأوسمة الأكاديمية والجوائز التي حاز عليها كاتب كل مقالة ، ثم تقارن بين مضمون كلامه ورتبته العلمية، خذ مثلا هذا الاقتباس الحرفي من مقالة بعنوان:

" درس من شجيرة الورد

كتبها: ميربت ستانلي كونجدن

عالم طبيعي وفيلسوف

دكتوراه من جامعة بورتون – أستاذ سابق باحدى كليات فلوريدا – عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية – اخصائي في الفيزياء وعلم النفس وفلسفة العلوم والبحوث الانجيلية.

"إن العلوم تبدأ بقضايا أو بديهيات مسلم بصحتها برغم أنها لا تستند أساسا على حقيقة فيزيائية ملموسة. وعلى ذلك فان العلوم تقوم على أساس فلسفي. والخبرة الشخصية في العلوم كما في الفلسفة والدين هي المحك النهائي والملاذ الأخير الذي تختبر به جميع الحقائق في العلوم كما في الفلسفة والدين."

انظر إلى قول هذا المتخصص في الفيزياء وعلم النفس وفلسفة العلوم: العلوم عنده تقوم على بدهيات مُسلّم بصحتها لا تستند أساساً على حقيقة فيزيائية، إنما مستندها فلسفي عنده. بمعنى أن قوانين الجاذبية لنيوتن والتي عدلها آينشتاين لا تستند إلى حقائق. فإذا لم تكن القوانين التي تشهد تطبيقاتها في وكالة ناسا في إرسال المكوكات الفضائية بناء على حساب طاقة الحركة وطاقة الوضع والقصور الذاتي والزمن، والتفاعل النووي الذي تستخدمه السفن العملاقة كحاملة الطائرات آيزنهاور وتجوب به محيطات العالم هو مجرد وهم ونظرة شخصية للأمور. ..!!!! وعليك ألا تغفل عن الوصف الأخير في السيرة المقتضبة لكاتب المقالة وهو اختصاصه بالبحوث الإنجيلية. ويكفي أن يدلك ذلك على نظرة محكومة مسبقاً بإيمان إنجيلي للحديث عن العلوم الطبيعية التي ورد ذكرها أنها ضمن اختصاصات هذا الكاتب.

مثال آخر :

"كتب: فرانك ألن

عالم الطبيعة البيولوجية

ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل – أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتويا بكندا من سنة ١٩٠٤ إلى سنة ١٩٤٤- اخصائي في أبصار الألوان والبصريات الفسيولوجية وإنتاج الهواء السائل، وحائز على وسام توري الذهبي للجمعية الملكية بكندا.

"إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صورا عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية. فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها، فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام، فيكون في ذلك تتابع الفصول، الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزيء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا ويزيد من اختلاف الانواع النباتية أكثر مما لو كانت الأرض ساكنة. ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل)... ولا شك أن كل هذا من تيسير حكيم خبير، وليس من المعقول أن يكون مجرد مصادفة أو خبط عشواء. ولقد كان أشعياء على حق عندما قال مشيراً إلى الله: (لم يخلقها باطلاً، للسكن صورها) (٤٥ : ١٨)."

أظن- شخصيا- أنه نص مناسب لأن يوضع في كتاب لتدريس العلوم للصف الرابع الابتدائي. وإذا دققت أكثر في الاقتباس المسوق أعلاه تلاحظ أن فرانك ألن المزعوم مُسلِم، لاحظ تعبيره : "ولا شك أن كل هذا من **تيسير حكيم خبير**." فهل تشك في أن هذه عبارة إسلامية محضة ولا تصدر عن مسيحي؟! أليس في ذلك خديعة فاشلة؟ ثم لماذا تلجأ الشبكة الإسلامية إلى كفار كي يعينوها على إثبات حكمة الله مثل فرانك ألن؟

ثم لاحظ فيما يلي كيف يبني العالم فرانك ألن استنتاجاته ، فبعد أن يتحدث طويلا عن عدم إمكانية تشكيل البروتين الأول في الخلية الأولى للحياة بالمصادفة يقول :

"ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئاً. إنه العقل اللانهائي، وهو الله وحده، الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقراً للحياة فبناه وصوره وأغدق عليه سر الحياة[1]".

---

١) الله يتجلى في عصر العلم. جمعته الشبكة الإسلامية للمعرفة. ص٨

لا نعاني من أية مشكلة من بداية هذا الاقتباس إلى أن يصل إلى الاستنتاج وهو " أنه العقل اللانهائي، وهو الله وحده، الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقرا للحياة فبناه وصوره وأغدق عليه سر الحياة".

فكيف استنتج أنه عقل لا نهائي من تشكيلة البروتين ذي الأحماض الأمينية التي لا يمكن أن تجتمع بالمصادفة؟ وكيف استنتج أنه الله، وأنه واحد؟ لمَ لا يكون الإله " إنكي" أو "مردوخ" هو الذي فعل ذلك؟ ولِمَ لا تكون مجموعة من الآلهة تعاونت في صنع الحياة؟ ولا مانع من أن يكون ذلك حقيقيا بناء على قوله؛ لأن قوله يخلو من الحجة على وجود "الله" و أنه "وحده" فعل ذلك. أعتقد على المستوى الشخصي أن ذلك مجرد تلفيق لهذه الأسماء كي يعضد اللاهوت أقواله بما يسميه عِلماً، لأن آلية الوصول إلى هذه الاستنتاجات تشبه تلك المعتمدة لدى اللاهوتيين. فإذا كانت هذه هي طريقة العلماء في التوصل إلى النتائج.....فسلام على القوم الجاهلين.

وخذ المثال الأخير من كيميائي وعالم طبيعي في مقالة بعنوان:

" النتيجة الحتمية

كتبها: جون كليفلاند كوثران

من علماء الكيمياء والرياضة

دكتوراه من جامعة كورنل – رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث – أخصائي في تحضير النترازول وفي تنقية التنجستين.

يقول: " ومنذ مائة سنة تقريبا رتب العالم الروسي مانداليف العناصر الكيماوية تبعا لتزايد أوزانها الذرية ترتيبا دوريا. وقد وجد أن العناصر التي تقع في قسم واحد

تؤلف فصيلة واحدة ويكون لها خواص متشابهة، فهل يمكن إرجاع ذلك إلى مجرد المصادفة؟"

أقول : لو دخل هذا " العالم" مغارة جعيتا في لبنان سيقول: إن هناك فنانا عظيما قام بعمل الستلاجمايت والستلاجتايت فيها ولا يمكن أن تفعل ذلك الطبيعة بنفسها... ولا أستطيع إلا أن أقول إنها أخطاء فادحة في التفكير والوصول إلى نتائج. فأنا فأغسل يدي من هذا الرجس، وأما أنت فلك الخيار في كيفية استقبال هذا الكلام.

على أنني أشكك –من خلال قراءة مجموع هذه المقالات المسمّاة "الله يتجلى في عصر العلم " في الأسماء التي يحويها هذا السفر، أو أن تكون هذه المقالات ليست لهم إنما كتبتها أقلام لاهوتية بقصد مصادرة العلوم ووضعها تحت إبط اللاهوتي. وهنا يتجلى النزاع بين القطبين كما ترى، فلأن العلوم جاءت بما يناقض قواعد اللاهوت اتخذ اللاهوت طريقة أخرى في النزاع، وهي أن يسير في مسار العلم ليحرف نتائجه لصالحه وليدعم أسسه بالعلم الذي لم تعد السيطرة على نتائجه بالإمكان. وهو منطق توماس إكويناس عندما تجشم مخالفة قاعدة الكنسية في القرن الثالث عشر التي كانت ترى الشر كله في نتائج التفكير خارج الكتاب المقدس، فنصّ إكويناس على ضرورة متابعة العلم والإفادة منه لأنه فيه صلاح البشرية والله نفسه لا يمانع- منطقيا- من أن يفيد البشر من نتائج العلم. ولكن توماس لم يكن يقصد "سرقة" العلم لصالح اللاهوت أو تحريف مفاهيمه.

ونتائج العلم منذ دارون إلى الآن على مستوى الأرض لا الفلك والفيزياء تصرّ صراحة على أن الطبيعة التي تعيش فيها الكائنات الحية غير منظمة، لأنها تتشكل عن طريق سلوكات غير واعية، وهو مناقض لمفهوم الهندسة الغائية من ناحية، وأن ما يجري في الطبيعة لا يمكن فهمه بمنطق الرحمة الإلهية والتدبير الحكيم من ناحية أخرى بالمنظور البيولوجي الجزئي للحياة.

إنّ آخر ما تم التوصل إليه في حقل البيولوجيا هو اكتشاف العيكل العظمي آر دي (RD)، ولننظر كيف عالج العلماء المتخصصون الموضوع وكيف نظر إليه اللاهوتيون فيما يأتي:

٢-اكتشاف الهيكل العظمي آردي (RD) :

" **علماء أمريكيون يثبتون خطأ نظرية دارون**". هكذا ظهر خبرٌ مثيرٌ عُرض على شاشة قناة لها جمهور عربي واسع، وتبع ذلك مشاهد من مؤتمر صحفي ظهر فيه علماء يتحدثون عن خلاصة بحثهم في الهيكل العظمي الذي أطلقوا عليه اسم(RD)، وقد تم الكشف عنه في إيثوبيا، ورَدّه العلماء إلى ٤،٤ مليون سنة خلت، وعلّقت إحدى الفضائيات على ذلك بالقول "إنه يثبت بالوجه القاطع خطأ نظرية دارون"، و "الإنسان أصله إنسان".

هذا كلام جميل؛ ولكن علينا أن نطرح الأسئلة ألآتية :

- أين يكمن إثبات الخطأ في نظرية دارون بالتحديد انطلاقا من هذا الاكتشاف؟
- أين هي الحقيقة العلمية التي يفترض منها أن تناقض الدارونية في(RD) ؟
- ماذا يعني وجود هيكل عظمي لكائن يمشي على رجلين عاش قبل أكثر من أربعة ملايين سنة؟

يذهب دارون إلى أننا :" يجب أن نكون حذرين. الطريقة الوحيدة لمعرفة الأصل الذي يجمعنا نحن وقرود الشمبانزي، هي أن نواصل البحث عن هذا الأصل المشترك."انتهى.

فالرجل لم يقُل بأنّ الإنسان تطوّر عن قرد، بل إن الإنسان والقرد تطورا معا عن أصل مشترك، أي؛ كائن لا هو قرد ولا هو إنسان، وهو ما لا يفهمه بعض من "علماء" عالمنا الإسلامي العربي الحزين، الذين تحدثوا معلقين على هذا الاكتشاف بأخطاء فادحة، وأولها هو :

- إنهم علّقوا دون الرجوع إلى مصدر الخبر والتوثق مما صرح به العلماء.
- انطلقوا من انطباعات وأحكام مسبقة، وتستطيع أن تعرف رأيهم قبل أن يتحدثوا بحرف لأنهم مبرمجون آلياً، وليس لقواعد البحث العلمي لديهم قيمة. وسيتضح لك ذلك بعد دقائق إن أنت أكملت القراءة.

أقول: إن الخلاف بين ما تم الكشف عنه مؤخرا وبين ما تقول به نظرية دارون يتمثّل في عامل "الزمن"، أي في الفرق الزمني بين (لوسي –المستحاثّة الدارونية الأقدم) وبين (RD) الجديدة يصل إلى حوالي مليون سنة، وهذه المدة الزمنية ليست بالهائلة إذا ما قيست بعمر الحياة على الأرض التي تصل إلى أكثر من خمسمئة مليون سنة تقريبا(٥٣٠ مليون سنة ظهرت الكائنات متعددة الخلايا التي يمكن رؤيتها بعين الإنسان الحالي).

فإذا كان فهمنا لخبر (RD) طبقاً لما جاء في مجلة science صحيحاً، فإنه في أحسن الأحوال يجب أن يكون عنوان الخبر:" كشف علمي يؤدي إلى تحديد أدق للأصل المشترك حسب نظرية دارون"، وهو بالفعل ما قاله مؤخرا (تيم وايت) مدير مركز أبحاث تطور الإنسان بجامعة كاليفورنيا/ ببيركلي بالولايات المتحدة، وهذا نص كلامه من (الأسوشيتد برس): **"بدلا من القول بأن الإنسان قد تطور من كائن شبيه بالقرد الشمبانزي. فالاكتشاف الجديد يدل على أن قرود الشمبانزي والإنسان قد تطورت منذ زمن بعيد جدا من نفس الأصل. لكن كلا من الإنسان والشمبانزي، قد تطور بمفرده بعد ذلك."**انتهى. (قارن هذا بقول دارون السابق). ويضيف (وايت) أيضا : **"لقد وجدنا كائنا كان يعيش منذ ٤,٤ مليون سنة، هو قريب جدا لما نبحث عنه"**.انتهى

وليس في ذلك ما ينقض مبدأ التطور كما نلاحظ، ولم يكن(وايت) ورفاقه من العلماء يبحثون عمّا ينقض مبدأ التطور، ولا ما يؤيده. لذلك يبدو لي أن النسخة العربية من الخبر كان مبالغا فيها بشكل أكبر مما تحتمل بكثير. وهذا يدعو إلى التساؤل حول الطريقة الإعلامية التي أرادها عارضو هذا الخبر على جمهور العامة، والأكثر غرابة أن وسائل الإعلام العربي التي سارعت إلى نشر الخبر قد وضعت استنتاجا بنته على تصريحات العلماء، في حين لم يصرح به العلماء أنفسهم، مثل : "كشف علمي يثبت خطأ نظرية دارون جملة وتفصيلاً"، وعنوان آخر يقول: " الإنسان أصله إنسان".

إن نقض الداروينية يجب أن ينبع من نقطتين جوهريتين، أذكرهما باختصار:

- نقض النظرية من داخل النظرية: بحيث يثبت لنا بالوجه الدقيق انعدام العلاقة بين الأنواع من جهة (الأحياء البحرية/البرمائيات/البريّات بأنواعها- الثديات عامة، والإنسان خاصة)، وبين علاقة الأعضاء الفيزيولوجية (في النوع نفسه، ثم بنوع آخر) ببعضها من جهة أخرى، فكما تذهب نظرية التطور- بالارتكاز على أدلة علمية تشريحية- إلى وجود علاقة مباشرة بين جمجمة (Neandertalare) وهو شكل من أشكال كائن قريب من الإنسان المنحدر من أصل يسمى (Homo Erectus) بجمجمة (Homo sapiens) قبل حوالي ٢٠٠٠٠٠ سنة، وهو المنسوب إليه القدرة على التفكير). (التطور خطي للأمام: من أب إلى ابن)، ثم بجمجمة الشمبانزي وجمجة الإنسان الحديث (التطور يتمثّل في خطّين متوازيين)(انظر صورة١)

فإن على من يريد نقض النظرية أن يُثبِت عدم وجود هذه العلاقة، من خلال التشريح العظمي لهذه الجماجم، ومدى تستطح الجمجمة، وتفاصيلها، وقِسْ على ذلك الأعضاء الأخرى: كاليدين وأطوالها وحاجة الكائن إلى التعلق بالأشجار، والرِجلين، والمشي في السهول، وعظام الحوض وشكلها، والمفاصل وغير ذلك. فالركون إلى عامل الزمن بين اللقى الأحفورية لا يجيز الاستنتاج الذي ظهر لنا أنه حقيقة لا مراء فيها. فكل ما في الأمر أن (آردي) تقع ضمن سلسة التطور التي وضعها العلماء عبر الزمن لتطور الإنسان(من اليسار إلى اليمين في الصورة أدناه.ويلاحظ أن البداية لم تكن قردا من فصيلة الشمبانزي، و قد تكون أردي هي أول هذه السلسلة حسب الاكتشاف الأخير):

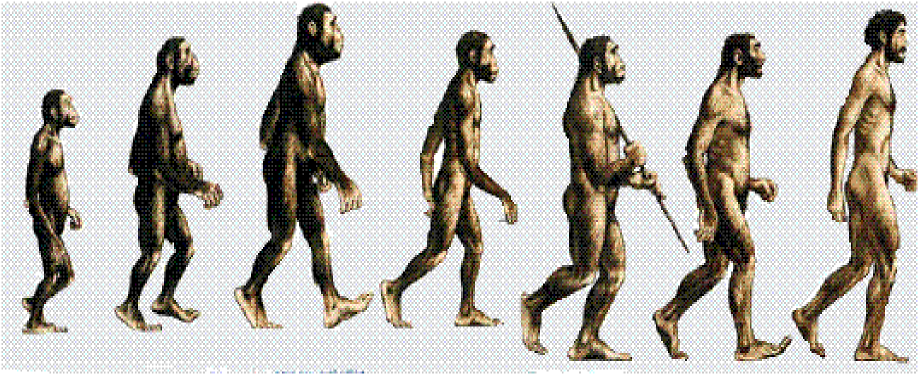

أما الثانية فهي أنه يمكن أن يثبت نقض الداروينية- فيما يتعلق بالإنسان بشكل خاص- بالبحث في قضية "الانفجار الإبداعي" في عقل الإنسان، الذي جعل منه عاقلا بالمفهوم الحديث، أي التطور الذي أخرج العقل الإنساني من مرحلة التفكير بالمحيط المادي إلى التفكير بالفضاء التجريدي، والماورائيات، وعندما صار"الحيوان" الإنساني صانعا للأدوات ومستعملا لما يصنع.

فإذا كان الخلاف حول الزمن الذي ارتفع فيه الحيوان /الإنسان بقامته من قامة أفقية ترتكز على أربعة أعضاء: يدين ورجلين، إلى قامة رأسية ترتكز على قدمين مع قصر في اليدين مقارنة بالرجلين، أقول إذا كان الخلاف في ذلك حول الزمن كما هي الحال مع (Rd) ؛ فإن ذلك سيؤدي إلى إعادة النظر في الحقبة التاريخية التي تنسب الداروينية إليها الجد المشترك بين الإنسان والشمبانزي (أقرب فصائل القردة إلى الإنسان عضويا وجينيا) وهي التي كانت موضع التحذير في قول دارون آنف الذكر. لا إلى ضحد النظرية برمتها. ولكن يبدو أن وراء الأَكَمَة ما وراءها!!! فما الذي يختبئ وراء البهلوانية الإعلامية في الخبر، أو تزوير هذا الخبر؟ إن الداروينية وما انبنى عليها في حقول العلوم الطبيعية والاجتماعية كان خطيرا من نواحٍ عدّة. تأييد القرآن الكريم ليس هو المقصود بالكشف العلمي الأخير الذي أطلق عليه أنه "نقض نظرية دارون" أو "الإنسان أصله إنسان"، بل يريده إعلامنا أن يكون عملية "علمية" إنقاذية بطراز:"

العمليات العسكرية الإنقاذية الأمريكية التي نشاهدها بالأفلام، إذ تقوم قوة بتعداد بسيط وبإعداد متقن بتحرير أسرى لدى الأعداء، والذي يتضح أن (RD)- في الإعلام العربي- مُجنّد يهودي لإنقاذ ما تبقى من خرافات التوراة ، ليقول: إن ما تقوله كتب اليهود صحيح مئة بالمئة، فليس لأحد أن يعلو لا بالقول ولا بالعلم، وما جاءت به التوراة حقيقة؟! وخلاصة ذلك هي عملية تصادم بين المعطى الديني "المقدس" والعلم التجريبي التشريحي.

يقول بيرتراند رسل: "يختلف المذهب الديني عن النظريّة العلميّة في ادعاء تجسيده للأبديّة والحقيقة المؤكدة، بينما العلم يخضع دائماً للتجربة، ومن المتوقع دائماً أن تظهر تعديلات في نظرياته الحالية. والعلم يتّبع منهجا واحدا، وهو غير قادر منطقيًّاً على الوصول إلى شرح و توضيح نهائي و كامل ".[1]

ومما يؤسف له أن هذا التلفيق يفرح به المؤمنون منا- المسلمين- في حين أننا نغفل عما وراءه، ومما يؤسف له أكثر أننا واليهود تجاه نظرية دارون في خندق واحد، نقاتل ضد البيولوجيين. جاء في إحدى القنوات الفضائية تعقيبا على الخبر أنّ أحد علماء عالمنا المدموغ بالفكر اللاهوتي وهو أستاذ الجيولوجيا في عدد من الجامعات العربية، قال بأن الغربيين بدؤوا يعودون إلى صوابهم بعد أن كانوا يتعاملون مع أصل الإنسان من منطلق مادي وإنكار للأديان.

وبما أنه لا يعرف شيئا عن الاكتشاف الجديد إلا من خلال هذه القناة التي صورت له الخبر بأنه نقض لنظرية دارون التي لا معرفة له بها، فإن الأجدر به أن يقول إن العالم الغربي بدأ يفقد صوابه، لأن ذلك سوف يعيد للتوراة- لا للقرآن الكريم- تفوّقها لأنها سبقت القرآن بالقول بفكرة خلق الإنسان في السماء (آدم) خلافا لمبدأ التطور. وسوف يترتب على ذلك عودة الطائفية الدينية: الصليبية واليهودية المتطرفة بشكل أقوى مما هي عليه ؛ لأن اليهودية تعتقد بأنها تمتلك الحقيقة المطلقة، فقد ظن المسكين أن الناس بعد إعلان الخبر سيدخلون في دين الله أفواجا، وسيهجرون

---

١) الدين والعلم". بيرتراند راسل. ترجمة رمسيس عوض. دار الهلال. د.ط. د.ت ١٩٥٣.

"خزعبلات" العلماء الطبيعيين وينضمون إلى الجماهير التي تفغر أفواها من بهلوانيات الإعجاز العملي، ويتركون التصديق بكل ما جاء في التوراة، التي هي المصدر الأقدم، واليهودية هي الأسبق بمعاداة الدارونية، ولها الحق عندئذ بأن تعلو على الدنيا بهذا الكشف، ويبقى المسلمون في مكانهم، وربما يعود بهم الزمن ليكونوا ضحايا عصر الحروب الدينية "المقدسة" الجديدة.

فضيلة الشيخ العالِم رئيس إحدى الجامعات المرموقة من جهته يكشف عن جهله بوضوح في الدارونية، ويظهر شماتته بأتباعها بجهل مكشوف أيضا حيث يقول : "أن الكشف العلمي الجديد عن أن أصل الإنسان ليس قردا حسب نظرية دارون من خلال هيكل عظمي سمي أردي يعتبر دليلا إضافيا على أن الإنسان خلق خاص من خلق الله، ويسقط نظرية الصدفة والتطور". فإذا قرأت الخبر من (رويترز) مثلاً فستعرف أن ما قاله **شيخنا العالم** لا علاقة له بالموضوع. ثم ما الذي أدخل مبدأ "الصدفة" هنا يا شيخنا؟

فإن "ميكانيكا الكم" الفيزيائية مثلا تصف سلوك المادة وتحاول تفسيرها في مستوى الذرة، لكنها لا تستطيع تفسير من أين جاءت الذرة، فكيف تنسب للدارونية مبدأ "الصدفة"، والتطور لا علاقة له بها، فلا يعرف علماؤنا ما الذي ينطوي عليه خطاباتهم الجماهيرية المفرغة من أي محتوى علمي يليق بالألقاب التي تُسبغ عليهم، والتوقير الذي يحظون به عند العامة التي ترى فيهم تجديدا لماضي الأمّة المجيد. فبما أنهم علماء هل نأخذ منهم علما في الانتخاب الطبيعي وتفسير الظواهر البيولوجية فيزولوجياً مثلاً، أو تطور الأنواع (التطور الكبير والصغير) **Macroevolution and Microevolution**؟ والسؤال المطروح على أصحاب الفضيلة "العلماء"، ووسائل الإعلام التي نشرت الخبر مشوّها هو الآتي:

هل صورة آردي (وهي أنثى) هذه التي بناها العلماء على هيكلها تنقض حدوث التطور؟

أقول: لقد قدمت البيولوجيا (التطور وآليّاته) خدمات للإنسانية يصعب حصرها، فقد وصل البحث العلمي في ذلك إلى الكشف عن أسباب الأمراض المشتركة بين الإنسان والحيوان على المستوى الجيني والمُستقبلات العصبيّة. خذ فيروس الأيدز مثلاً الذي اكتشفت أول إصابة إنسانية به في سنة ١٩٨١، وقد كان الفيروس شائعاً بين فصيلة القطط المتوحشة " الفهود والنمور والضباع" المتعايشة معه بسلام قبل هذا التاريخ بكثير لأنها استطاعت تطوير خلايا مناعية لا يستطيع- (SIV) النسخة الحيوانية من الفيروس- التعامل معها، ثم وصل إلى الإنسان(HIV) عبر التطور الذي أوصله للشمبانزي في الغابة، وعندما تمكن الفيروس من الشمبانزي صار تمكّنه من إصابة الإنسان لازمة طبيعية وهذا ما حصل بالفعل، مع حساسية زائدة في الإنسان لهذا الفيروس بالمقارنة مع الشمبانزي، وخذ أيضاً "السعار" الذي يصيب الكلب وينتقل إلى الإنسان إذا عضه كلب مصاب، وغير ذلك كثير، في حين أن هناك أمراضا تصيب الحيوان ولا تصيب الإنسان، فلماذا هذه الأمراض تنتقل بين الإنسان والحيوان أما تلك فلا تنتقل؟

لقد فسر العلماء هذه الأمراض والعلاقة بين الأنسان والحيوان فيها تفسيرا تطوريا تعدى حدود التنظير إلى أن وصل حد الحقيقة العلمية التي ساعدت في محاولات كشف علاجات لها، وتصنيع أمصال مضادة، والبحث في ذلك ما زال مستمرا ولكن في الغرب لا في الشرق. والأمثلة في ذلك كثيرة.

لقد دارت سنة ٢٠٠٥ في أمريكا معركة أكاديمية تربوية لاهوتية حول نظرية التطور "...**والطريف كذلك في هذه السنة ٢٠٠٥، أن بعض المجموعات من المجتمع الأمريكي قاتلوا لأجل منع تدريس حتى المفاهيم الأساسية للتطور. ولكل هذه الاعتبارات قررت 'science" وضع دارون في دائرة الضوء بالاحتفاء بعدة اكتشافات مثيرة بينت أو باحت بقوانين التطور**".[١] وغدت النظرية مُسلّماً بها في عدد لا يُستهان به من المدارس الأمريكية، وصارت جزءً من المقررات التي تُدرّس في مادة البيولوجيا فيها، وهذا بدوره ينتج جيلا لايؤمن بخزعبلات التوراة (العهد القديم)،إذ إنّ "استطلاعات الرأي في أمريكا تقول إن عدد الملحدين في أمريكا أكثر من عدد اليهود المتدينيين، وحتى أكثر من عدد المجموعات الدينية الأخرى"[٢].

ولا أظن أن ذلك يروق لليهود المُقدمين على إنشاء دولة يهودية دينية أساسها التوراة، والتلمود، اللذان صارا في الغرب حصانا عاجزا مُهملاً لا يقوى على الحركة بسبب الضربات المتلاحقة التي يتلقاها أولاً من العلوم البيولوجية أولا والجيولوجية ثانيا؛ فإنّ "العمود الجيولوجي" الذي يحوي مستحاثات من الحياة القديمة وأشكالها يثبت علميا - لا أيدولوجيا ولا ماورائيا - أن الحياة استغرقت ما يزيد على أربعمئة مليون سنة حتى تشكلت في صورتها البدائية خلافا لما تقوله التوراة: وهو أن "يهوه" الإله في اليهودية خلق الحياة ومستلزماتها في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع[٣] . ولا تعارض هنا مع القرآن الكريم إلا في "الاستراحة" التي ننزه الله سبحانه عنها.

ينادي اليهود من خلال تسويق "الكشف العلمي" عربيا بتفوق اليهود على غيرهم بما حباهم إياه إلههم "يهوه" من مقدسات؛ ١- التوراة التي ينفخ الإعلام فيها الروح بعدما صارت- والتلمود- عديمة القيمة على مستوى المجتمعات الغربية واليهود الذين يتماهون فيها ويميلون إلى الإلحاد، والتي حيّدت الكتب المقدسة عن تشريعاتها. أما على مستوى العلوم الطبيعية فالتوراة هي مجرد تراث شعبي سخيف وسيّء وممل لمجموعة عرقية عنصرية عاشت في زمن بائد ٢- المقدسات الأثرية التي تقبع تحت

---

١) حمدي الراشدي. الذاكرة.

٢) أضلولة الإله ،دوكنز ص ٦.

٣) سفر التكوين- العهد القديم ٢.

المسجد الأقصى حسب زعمهم، كمذابح الأنبياء الأوائل: إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، والأسباط. ولم يكونوا يهودا[1]. ومبكاهم عندما قيل لهم:(...فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم)[2].

لقد سارعت وسائل الإعلام بنقل هذا الخبر لطمأنة قلوب المؤمنين، ولتصادر ما تم الكشف عنه في البيولوجيا لصالح الفهم اللاهوتي بعد صوغه بالطريقة التي تبقي المؤمنين في راحة وطمأنينة من أي شك قد يداخلهم أو يعبث بعقولهم وقلوبهم المملوءة بالسكينة، والمطلوب منّا أن نتفكّر فيما نسمع ونرى، ونحسب للأمور حساباتها الدقيقة، فمهما يكن من أمر فإن علينا ألا نمرر الأخبار دون تمحيص لمجرد أن قناة ما نثق فيها ساقت لنا هذا الخبر. وقد سمعنا العقلاء من الناس يقولون: إن الكشف العلمي الأخير سيفتح الباب أمام المزيد من البحث. وأضيف : هذا يحدث عن أصحاب الفكر المستقيم لا ذاك الأعوج.

---

١) (انظر الآية:١٤٠ البقرة)

٢) (البقرة:٥٤).

٣-الانتخاب الطبيعي : آلية تطوّر أم خديعة علمية؟

الانتخاب الطبيعي جزء من عملية التطور الداروينية، هو الآلية الأكثر فاعلية في تطور الكائنات الحية في مذهب دارون، ونحن إذ نتكلم عن التطور هنا فإننا نفتح ملفا عمره يزيد على قرن ونصف من الزمان، والباعث على الحديث في ذلك هو أن المسألة ما زالت منطقة للنزاع المرير بين الفكر اللاهوتي وعلم البيولوجيا، لاسيما أن الفترة الأخيرة من تشرين الثاني ٢٠٠٩ إلى أبريل ٢٠١٠ ما شهدت حديثا وجدلا علميا لاهوتيا مرة أخرى في نظرية التطور عبر اكتشاف الهيكل آر دي.

هنا سوف نقتصر الحديث على المفهوم البيولوجي للانتخاب الطبيعي لأنه يشكل محور النزاع، وهو خاص كما تعلم بالكائنات الحية، فموضوعات أخرى كالفلك وأجزاء الذرة لا علاقة لها هنا بالموضوع، ولكن هل ما يقال عن الانتخاب الطبيعي في البيولوجيا صحيح أم هو نظرية أم هو أهبط من نظرية بحيث يمكن أن يوصف بأنه أكذوبة أو خديعة لتمرير نظرية دارون في التطور؟

هذا السؤال أعده من مناطق النزاع القديمة الجديدة في الواقع، فمنذ الإعلان عنه رسميا بكتاب "أصل الأنواع" كان السؤال مطروحا، والسجال حول النظرية مازال قائما، فإنك لا تستطيع الحديث عن نظرية التطور إلا من خلال الانتخاب الطبيعي، والموقف منه باختصار على النحو الآتي: الرفض التام له انطلاقا من عدم فهمه، أو انطلاقا من أن الكائنات الحية خُلقت كما هي الآن ولم تتطور، فلا وجود لشيء اسمه الانتخاب الطبيعي.

والموقف الثاني معاكس تماما للأول، فهو يؤمن به إيمانا قاطعا لا يتزعزع. انطلاقا من شواهد في الطبيعة، وتشريح الكائنات الحية، ورصد تشابه في البنية الهيكلية لها، وباقي أعضائها وأجهزتها الحيوية، والتركيب الجيني. والموقف الثالث هو موقف الحائر، فلا هو بالمصدق ولا هو بالمكذب، بمعنى أن هذا الموقف يتلخص في البحث عن منطقة وسطى بين القبول والرفض، ولكنه في النهاية سيؤول إلى أحد الطرفين بالتأكيد.

لا أريد أن أسوق شواهد مؤيدة لحصول الانتخاب الطبيعي كما يقول التطوريون بالفعل، ولكن سأقف قليلا عند المكذبين به، والحقيقة أنه لا توجد أرضية مشتركة بين المؤيدين والمعارضين يقفان عليها لاختلاف منهج النظر، فالرافض للانتخاب الطبيعي مستنده النص المقدس، وهو عنده كاف لأثبات أو نفي أي معلومة تأتيه من أية جهة، ولا ينفق من الوقت في النظر فيها مادامت تتعارض مع ثوابته حتى لو أيدتها العلوم كلها، فببساطة الطبيعة مخلوقة دفعة واحدة، وهكذا أرادها الخالق، فالتشابه الذي يتحدث عنه البيولوجيون بين الكائنات الحية مردّه إلى أرادة الله، وهو من حكمته، والإيمان بالانتخاب الطبيعي هو نوع من الردة عن الملة، لأنك بإيمانك بالانتخاب الطبيعي تنفي دور الله في الخلق، وتسنده إلى الطبيعة. وهي بذاتها قاصرة أن تفعل شيئا، وعلى ذلك فالتصديق بدور الانتخاب الطبيعي في إحداث الأنواع لا يمكن أن يكون منطقيا.

عندما تكون إرادة الله هي الرد على الانتخاب الطبيعي وهي مستند نفيه، يشعر اللاهوتييون أنهم يواجهون المحسوس الذي يفسره الانتخاب الطبيعي بشكل تستطيع ملاحظته بعينك المجردة، وتستدل عليه بما يمكن أن تضع يدك عليه في علم التشريح، وتستطيع أيضا ربط الأجزاء ببعضها واستنباط علاقة بين (القديم) و(الجديد) في الطبيعة بآلية يفسرها الانتخاب الطبيعي، كل ذلك يسبب نوعا من الحرج للاهوت الذي يستند إلى مقولات فلسفية بسبب إقحام النصوص المقدسة في نزاع مع العلم المتغير، فإننا يمكن بعد حين أن نسمع من البيولوجيين أنفسهم إلغاء "الانتخاب الطبيعي" نهائيا واستبداله بشيء آخر، فلهذا التصرف غير المحسوب بدقة من قبل علمائنا المتدينين كان الانتخاب الطبيعي مصدر قلق حقيقي، ومستند متين للقول بدوره في الطبيعة بثقة عند البيولوجيين، وإرجاع تشكّل الأنواع الحية لفعله عبر مئات آلاف السنين.

يضاف إلى ذلك أن للانتخاب الطبيعي مستندا آخر لا يقل قوة في الإقناع، وهو الجيولوجيا، وما أسموه العلماء بـ"العمود الجيولوجي" الذي يمثل طبقات القشرة الأرضية على شكل قطعة من الكيكة تتكون من طبقات متباينة، كل طبقة منها تشكلت

في عصر ما، وفي كل عصر جيولوجي- ونحن الآن نتحدث عن ملايين السنين- يحتوي نوعا من أشكال الحياة المنقرضة، والتي لا يوجد لها مثائل مطابقة في الكائنات الحية اليوم، بل مشابه لها، وتشترك معها في بعض الصفات تكثر أحيانا وتقل أحيانا أخرى، كالماموت الذي يعده البيولوجيون الأب الأول للفيلة التي نعرفها، غير أنه أكبر حجما ويكتسي بنوع من "الوبر"، أي؛ الشعر القصير الخفيف، بينما فيلة اليوم لا تكتسي بهذا النوع من الشعر.

والبرمائيات هي حلقة واضحة اليوم تربط الحياة في الماء بالحياة على اليابسة، فالحيوانات البرمائية تمثل حلقة بين الحياتين المائية واليابسية، فهي تستطيع البقاء في الماء وتستطيع أن تعيش خارجه، ومما تجدر الإشارة إليه أن البرمائيات عندما تخرج من الماء إلى اليابسة لا تبتعد كثيرا عن موطنها المائي بل تبقى قريبة منه كي تسهل عودتها إليه لأن البيئة المائية هي موطنها الأم، ورجوعها إليه فيه حفاظ على حياتها أكثر منه لو بقيت خارجه، وقدرتها على التعامل مع مفترسها البري الموطن ضعيف، فتراها إذا شعرت بأدنى خطر يأتيها وهي خارج الماء تسارع إلى الإبحار، لأنها لم تتطور بالشكل الكافي الذي يمكّنها من البقاء في مأمن خارج الماء من حيث الحصول على الغذاء ومن حيث حصولها على مؤهلات التعامل مع الأعداء، كالفقمات مثلا، والتماسيح، فأعتى التماسيح قوة لو حبسته لمدة طويلة خارج مستنقعه سيتحول إلى حيوان ضعيف، بينما لو حاولت الاعتراك معه وهو في الماء فلن تستطيع الإفلات من بين فكيه، لأنه يمتاز بقدرة هائلة وطاقة عنيفة للقتال داخل الماء، فهو حيوان مائي الأصل، تطورت لديه الزعانف لتصبح أشبه بالأرجل والأيدي التي تستطيع حمل جسده الثقيل والسير به على اليابسة، وقد يضطره ظرفه المائي للخروج لاصطياد حيوان صغير حول المستنقع فيخرج لهذه المهمة ثم يعود إلى الماء.

ومثل تطور الزعانف الأربعة أسفل جسد التمساح إلى أيدي وأرجل، طول رقبة الزرافة كانت تفسر عند لامارك قبل دارون بقليل برغبة الحيوان نفسه بأن يمتلك مثل هذه الأعضاء، وتوالي الأجيال وإلحاح الرغبة فيها كان سبب وراء تشكّلها لدى

الحيوانات، وسبب هذه الرغبة التي تنشأ عند الحيوان، يأتي بتأثير من البيئة التي يعيش فيها، أما في التطور عند دارون فالأمور ليست كذلك، أي إن الحيوان خاضع لما لديه من أعضاء ويكيّف حياته بما لديه من مؤهلات، وليس لديه أية رغبة في امتلاك عضو ما لأن البيئة التي يعيش فيها تتطلب ذلك العضو، وهذه الأعضاء جاءته بالانتخاب الطبيعي، وهو الاختلاف الطفيف بين جيل وجيل في شكل العضو وباقي صفاته كالقوة، والعرض والعدد وغير ذلك، والحيوان يستغل هذه الأعضاء في حياته وبقائه، فالانتخاب الطبيعي عبارة عن تغيّر متراكم من جيل إلى جيل في النوع بحيث يؤدي في النهاية إلى ظهور أعضاء ليست مستحدثة تماما إنما متطورة عن أصل سابق لها، كما ترى في العائلة الواحدة، فتجد في الأسرة عددا من الأولاد ليسوا نسخا طبق الأصل عن والديهم، فتجد فرقا في طول الابن عن والده ، وتجد آخر لون شعره ليس كلون شعر أبيه أو أمه، وطبيعة الشعر مختلفة فأحدهما شعره سابل ناعم ، والآخر متجعد، هذه الصفات وغيرها سوف تمعن في الاختلاف عبر الزمن لتصبح أبعد شبها عن أبيها الأول.

ويمثل البيولوجيون عادة بمثال بسيط ملاحظ يستطيع فهمه كل إنسان إلى التغير الذي يطرأ على الإنسان بشكل خاص ، وأنا اختصره لك فيما يلي:

إن أبا وأما لا يزيد طول كل منهما عن ١٦٠سم ، أنجبا ولدَين: الأول طوله حوالي ١٧٠ سم ، والثاني طوله ١٨٥سم، لنأخذ سلالة الثاني، هذا تزوج بامرأة طولها حوالي ١٧٥سم وأنجبا ذرّية كثيرة، كان طول الولد الأول حوالي ١٩٥سم، عندما وصل العشرين من العمر.

نحن نتحدث الآن عن فترة زمنية قصيرة، الجد مازال على قيد الحياة، فخذ بالمقارنة الحفيد ذا ١٩٥سم طولا وأوقفه بجانب جده ذي ١٦٠سم، ستجد أن هناك ٣٥ سم تفرق بينهما في الطول، دع عنك الصفات الأخرى الآتية من جهة الأم، فهل تصدق أن الجد ذا ١٦٠ قد أنجب حفيدا طوله ١٩٥سم؟ هكذا بالتغير الطفيف عبر المرور بالابن ذي ١٨٠سم جاء الحفيدُ بـ١٩٥ سم، إذن؛ من ١٦٠ إلى ١٨٠سم إلى ١٩٥سم ، هذا ملخص ما

جرى بالفعل وهو أمر مقيس ومشاهد. فإن أنت مررت بهذه العائلة عبر مليون سنة مثلا، فكيف تتصور أن يكون الحال في صفات أخرى كالعيون والشعر وحجم الأنف والجمجمة والمفاصل العظمية والغضروفية...؟

هكذا ببساطة يفسر الانتخاب الطبيعي تحول الزعانف إلى أيدي وأرجل، والأمر كله متعلق بنسخ الشيفرة الوراثية، فإنها لا تنقل الصفات كما تفعل آلة تصوير الورق التي تصور طبقا للأصل، فليس في البيولوجيا علاقة تسمّى " طبق الأصل" بين الأب والابن والحفيد... حتى في التوائم فالتشابه يقع بين الأبناء أنفسهم ولا يكونون صورا طبق الأصل عن والديهم.

إذن؛ فالانتخاب الطبيعي معادل تماما للتغير التراكمي على مدى زمني طويل، ونتيجته تظهر في الكائنات الحية على شكل أعضاء فيزيولوجية تستثمرها في حياتها. هذا من ناحية.

والناحية الأخرى هي ما يسمّى بـ"العماء"، وهذا يعني أن التطور أي التغير التراكمي الذي تتحدث عنه البيولوجيا لا يكون بالضرورة إيجابيا، فقد ينتج عن النقل غير المتطابق في الشيفرة الوراثية تغير في شكل أو صفة ما لعضو من أعضاء الكائن يعيقه عن الاستمرار في الحياة في البيئة التي يولد فيها فيموت أو يضطره إلى الهجرة، وبموته إن لم يتمكن من الهجرة تذهب هذه الصفة إلى الفناء أيضا، وكل من يحملها من هذا النوع، كالزرافات ذوات الرقاب المتوسطة الطول، التي لا تتمكن من التغذية من الحشائش الأرضية ولا يساعدها طول رقبتها المتوسط على التغذية بفروع الأشجار القريبة من طولها لأن أبناء جنسها قد استنفدوها، ومع توالد هذا النوع المستمر قبل أن ينقرض ظهر جيل منها ذو رقبة أطول بقليل من رقاب والديه، وتكاثر هذا النوع.

عُد بالذاكرة إلى المثال الذي ضربناه على الجد ذي ١٦٠ سم والحفيد ذي ١٩٥سم ، وهو ما حدث بالنسبة للزرافة، فمن يولد من الزرافات برقبة قصيرة سيموت جوعا

وينقرض في النهاية، وسيبقى منها من يمتلك رقبة طويلة فيتغذى بالأشجار المتوسطة الارتفاع والعالية معا مما يؤهله إلى الاستمرار في الحياة وبقاء النوع. وملخص الكلام هنا أن الانتخاب الطبيعي أعمى على حد تعبير البيولوجيين، لأنه لا يتبصر إلى الأمام، أي إنه ليس مهندسا يصمم الكائنات كي تتواءم مع البيئة برؤية مسبقة، إنما يلقي بها في الطبيعة بما يراكم فيها من صفات فمن يمتلك الصفات المؤهلة للبقاء يحيا ويتناسل، ومن لا يمتلكها ربما يهاجر إلى بيئة أخرى أو ينقرض. وأبسط من ذلك دعني أوضح صفة العماء هذه بالمثال الآتي:

افترض أنك أتيت بجمع كبير من الناس من سوق مزدحم بهم، وأخذتم بشكل عشوائي دون معرفة لك بأي منهم . ثم أخذتهم في رحلة إلى البحر وألقيت بهم في عرضه. ماذا سيجري؟

النتيجة هي أن من يتقن السباحة منهم سينجو ويبقى، ومن لا يتقنها سيغرق ويموت، هذا هو فعل الانتخاب الطبيعي، عبر التغير المتراكم يمنح الأحياء صفات قد تلائم البيئة فيحيا النوع وقد ينتج عن هذا النوع أبناء لهم صفات أفضل وسيؤدي ذلك إلى فناء الآباء بما لديهم من صفات وبقاء الأبناء ذوي الصفات الأفضل، وربما يحدث العكس فيولد الأبناء بصفات أقل كفاءة فيموتون، ويبقى من له صفة الآباء.

ومن الجميل هنا أن أروي لك هذه الحادثة التي تشبه الطرفة نقلا عن دوكنز: ففي إحدى المؤتمرات التي يعقدها البيولوجيون حول نظرية التطور وأبحاثهم في الانتخاب الطبيعي وما وصلوا إليه، لاحظوا وجود قس يجلس بين المستمعين ولم يكن مدعواً لهذا المؤتمر ، لكنه بعد أن استمع لجميع البحوث التي قدمت، ساهم بمداخلة قائلا: ما أقل فهمكم أيها البيولوجيون وما أضيق بصيرتكم، كيف يهرب الدب الرمادي من القطب الشمالي وهو أقوى حيوان في تلك المنطقة، فإنه لا يخاف من أي حيوان آخر هناك، وتقولون أن الدب الوحيد الذي يستطيع البقاء في تلك البيئة هو الدب القطبي الأبيض لأن لديه القدرة على التمويه، فلماذا يموّه الدب الرمادي وهو الأقوى؟

هذا كان سؤال القس واعتراضه على الانتخاب الطبيعي، غير أنهم أجابوه بقولهم: أنه لا يموّه على حيوان أقوى منه، إنه يا أبانا يموّه على فريسته، والدب يتغذى بالفقمات التي تخرج خارج المحيط شبه المتجمد فلو كان لونه رماديا لاستطاعت الفقمات التهرب منه لأن حركته ستكون مكشوفة بالنسة لِلّون الأبيض الذي يغطى أرض المكان، أما الدب الأبيض فإن الفقمات لا تستطيع رصد حركته وهو يتجه بخفة إليها ليقتنصها، وهكذا سكت القس ولم يستطع المضي في الحجاج. وهذا الجواب كان سبب هجرة الدببة غير البيضاء إلى المناطق اليابسة الرمادية أو البنية التربة.

مقابل هذا النوع من التفسير الذي يعني عماء الطبيعة، ويؤيده البيولوجيون بوقائع منها، وتشريح في المختبر ، وهو عمل حسّي ملموس كما تلاحظ ويمكن البرهنة عليه، أقول مقابل هذا العماء، وقف اللاهوتيون موقفين:

الأول يعترف بوقوعه لكن مشروطا بتخطيط من الله لهذا الذي يجري في الطبيعة، وهو ما أسموه "سيرورة الخلق"، أي إن الله ما زال يخلق ، ومازال يُعمل يده في الخلق تغييرا وتطويرا.

والموقف الثاني هو: الاستناد إلى مبدأ "الجمال" الذي مررت به قبلا، أي جمال الطبيعة كبرهان حسي على تصميم الخالق مقابل "العماء" في البيولوجيا الذي لا يقيم وزنا ليد الله في فيها. ودع عنك اللاهوتيين الرافضين للانتخاب الطبيعي من أساسه بناء على فهمهم لما جاء في الكتب المقدسة.

أ سيرورة الخلق و الانتخاب الطبيعي:

من اللاهوتيين الذين كتبوا في تقديم فهم جديد للتطور وتحدثوا عنه بصراحة وبنوع من المصالحة اللاهوتية –العلمية: اللاهوتي كوستي بندلي، ففي الفصل الثالث من كتابه "مدخل إلى العقيدة المسيحية" يقدم لنا درسا علميا جيدا

حول التطور الداروني في البداية تمهيدا لنقضه فيما بعد ، فيتحدث عن بداية الخلق من الخلية الأولى وتجمّع ذرات الهيدروجين- على ما يذكر- لتكوينها وتكوين الحمض النووي الذي أسس الحياة على الأرض، ويعرض للتطور بشكل يمكن فهمه ببساطة وأمانة في الشرح، لكن مغالطات بسيطة أدت به إلى الوصول إلى نتائج لاهوتية توفّق بين التطور كسيرورة في الخلق، وبين تخطيط الله، وهو كلاهوتي طبعا يعارض فكرة العماء، مع أنه يقر كما ذكرت لك بفكرة التطور الدارونية، واعتراضه يأتي من أن المادة ليست شخصا عاقلا يخطط للتطور حتى تبدو الكائنات التي نراها اليوم على هذه الهيئة من التنظيم الدقيق في أجهزتها الحيوية فضلا عن شكلها وتكوينها الذي يبدي هندسة دقيقة بحيث يؤدي عمل كل جهاز من أجهزة الجسم بتوافق مع الأجهزة الأخرى.

يقول: " إذا كانت المادة قد سلكت، فى تاريخها الطويل، تلك المسيرة التصاعدية التى قادتها من سُحُب الهيدروجين الأولى إلى الدماغ الإنسانى، فقد تم ذلك بلا شك بتأثير عوامل فيزيائية وتفاعلات كيمائية عديدة، أوضحها العلم وسيوضحها أكثر فأكثر...ولكن يبقى هذا السؤال: ما هو سر انتظام تلك العوامل والتفاعلات فى خط تصاعدى؟...ما هو سر " برمجة" المادة فى مسيرتها المتواصلة نحو كائنات أكثر فأكثر تعقيداً؟...البرمجة التى بموجبها يتكوّن الكائن الحىّ والمرتسمة فى نواة خليته الأولى قد أتته بالوراثة من كائن حىّ من نوعه (أو كائنين) وجد قبله...فمن أين لمادة الكون برمجتها المذهلة؟..."[1]

فالتطور الداروني عنده معادل للتطور التقني كتطور الهاتف من الهاتف ذي القرص إلى الهاتف المحمول اليوم، بمعنى أن خط التطور دائما تقدمي للأفضل، فإذا كان الأمر كذلك فإن صفة "العماء" تنتفي وتثبت حكمة الله في الخلق وتطويره للأفضل دائما، ويلفت بندلي النظر إلى أنك مهما قمت بعمليات تشريح

---

١) مدخل إلى العقيدة المسيحية. كوستي بندلي. وآخرون.كتاب إلكتروني. الفصل الثالث: الخلق والسقوط. إسلاميات دوت كوم.

ودراسة فلن تكشف عن الله إنما أنت تكشف عن نواميس الله التي تعمل يده من خلالها. يقول بصريح العبارة :

" ولكن فعل الله هذا فى المادة يجب أن يُفهم على حقيقته...ليس هو، كما يتصوّر العديد من المؤمنين وغير المؤمنين، فعلاً يُضاف إلى نواميس الطبيعة ليكمل نقصها...هذا التصوّر يتنكّر بآن واحد لتعالى الله ولحضوره فى صميم الكون...لذا، فمن الخطا أن نتصوّر تصميمًا مضافًا من الخارج إلى العناصر الطبيعية لتوجيهها وتقويم مسيرتها، كما يوجّه السائق سيارته...فالله يعمل، لا إلى جانب نواميس الكون، بل من خلالها، لأنها منه ومنه وحده تستمد، فى كل لحظة، وجودها وانتظامها...بهذا المعنى، الخلق عملية مستمرة، كما أشار الرب بقوله: [أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ][1]...والتطوّر هو المظهر الحسّى لاستمرار الخلق..."

على أية حال فكلامه لا يخرج عن منطق وليم بالي في الهندسة المتقنة في الكون، وهو مستوحى من "ساعة" بالي التي مر ذكرها، ولكنك تستطيع أن تقول إن كلامه جميل من حيث هو محاولة للتوفيق بين التطوّر وبين تصميم الله الحكيم، لكنه يقع في مغالطات:

الأولى جاءت في تعويمه لمفهوم "المادة" ، فلا يميز بين المادة الحية (الكائنات الحية) ، وبين الطبيعة أي البيئة التي تحيا فيها الكائنات، فالجنسان عنده سواء، لذلك أخطأ خطأً فادحا لكنه خطأ خفي لا يكاد يظهر، لأنه بخلطه بين نوعي المادة الحية وغير الحية توصل إلى أن المادة لا يمكن أن تكون واعية وتخطط للانتظام الذي نراه، فأنا لا أعلم هل يتحدث عن المادة الحية أم عن الطبيعة التي تعني البيئة، والحقيقة إذا ميّزنا بين نوعي المادة فإنك ستلاحظ أن أحداهما فاعلة والآخرى منفعلة، فالطبيعة هي مادة فاعلة بلا وعي وتفرض أجواءها على من فيها، والمادة

---

١) [يوحنا ٥ : ١٧]

الحية (الكائن الحي) منفعلة؛ لأنها متأثرة بلا أدنى شك بالبيئة وهي النوع الثاني من المادة، فأنا أستطيع بكل ثقة –ولست بيولوجيا- أن أثبت لك أثر البيئة في الكائنات، فقط قارن بين لون بشرة الإفريقي بلون بشرة الأوربي، وقارن بين عرض ورق الشجر الصحراوي بعرض ورق الشجر الذي يعيش في أوروبا. وفي مثال أبسط من ذلك سأقول لك كيف تتأثر بالبيئة: أنت تعيش في بلاد الشام ، وبيئة بلاد الشام المتوسطية مناخها معتدل كما تعرف، فإذا انتقلت لتعمل في السعودية مثلا ومناخها صحراوي، فإنك لن تحاول تغيير الطبيعة، بل ستحاول التأقلم معها بالتحايل على حرارة الجو التي لا تحتملها فتقوم بشراء مكيف هواء وتعليقه على جدار الغرفة، فقد أثرت فيك البيئة ثم فرضت شكلا معينا على تصميم البيت وهو إضافة مكيف الهواء له.

فأنت على قول بندلي مادة والطبيعة مادة، وبلا تمييز - كما فهمت من كلامه- بين المادتين، وسؤالي لك: عندما انتقلت إلى السعودية وواجهت الطبيعة فيها، هل كنت فاعلا أم مفعولا؟ أي مؤثرا أو متأثرا؟ لقد كنت متأثرا لا مؤثرا في البيئة. السيد بندلي سقط في هذه المغالطة ليقول في "المادة" بعد أن خلط الأوراق: "ننسب لها القدرة على التحوّل، بحد ذاتها، من الأقل إلى الأكثر، ناقلة ذاتها بذاتها من نظام إلى نظام أرقى وحسب، بل من صعيد وجود إلى صعيد وجود آخر مختلف عنه بالكلية، أي من مادة جامدة إلى مادة حيّة ثم إلى مادة مفكّرة...وبعبارة أخرى نجعل من المادة شخصًا إلهيًا يخلق ذاته باستمرار..."

بمعنى أنك ككائن حي لا تتميز عن البيئة المحيطة بك، ولا تستطيع أن تفعل إزاءها شيئاً لأنك مادة من جنس مادة البيئة. ويتضح في الاقتباس السابق أيضا: رجوعه إلى محاكمة البيولوجيا التطورية إلى مبدأ الصدفة الذي لا يمكن أن ينتج من مادة ميتة مادةً حية، وهنا يشارك الشيخ الزنداني في هذه المغالطة التي لا تغتفر، ولا يمكن أن ننسبها إلا إلى الجهل بالتطور، لأن بداية الحياة بظهور خلية واحدة بالصدفة هي الخلية الأولى أو بغير الصدفة ليس من مباحث التطور أو الانتخاب الطبيعي، وهو إقحام لما ليس من المسألة في المسألة. ولا أعلم لماذا يصر

اللاهوتيّون على تحويل الحديث من الانتخاب الطبيعي إلى الحديث عن مبدأ الصدفة في نشأة الحياة عندما يتحدثون عن آليات التطور؟ وهي مغالطة فكرية لا يمكن أن تقبل في النقاش، لذلك يتوجب على هؤلاء أن يكونوا موضوعيين ويتعرفوا حدود المسألة التي يناقشونها من أين تبدأ وأين تنتهي قبل خلط الأشياء ببعضها.

أما الثانية: فيكفي أن أشير إلى أن قبوله بمبدأ التطور كيفما أراد أن يفهمه - بالمنطق اللاهوتي- يتعارض وصريح ما جاء به سفر التكوين، ثم إن فهمه لعبارة يوحنا : [أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ][1] لا تدل ولا بأي شكل على أن الله يتدخل في تحسين المخلوقات عبر نواميس الطبيعة، لأنه رأى ما خلق حسنا كما صرح سفر التكوين، وهذا يعني أن الله لا يحتاج لتحسين الخلق لأن خط التطور يسير إلى الأفضل على الدوام في منطق بندلي، ولا بد هنا من أن تلاحظ أن كلام بندلي يتضمن توجيه نقيصة إلى الله تعالى عن كل نقيصة؛ لأن الله مع الأيام- كما نفهم من استمرارية عمل (أبي) في قول يوحنا- يكتشف أخطاءً في صناعته للمخلوقات، فيقوم عبر الزمن ونواميس الطبيعة بتحسين مخلوقاته بتطويرها إلى الأفضل. هذا ما يدل عليه صريح قوله.

والمغالطة الثالثة هو نظر اللاهوتي إلى ما هو موجود حالياً على أنه من الكائنات فائقة التصميم، دون أن يتذكر أن هناك من يولد ويموت، وهذا الذي يولد ويموت يحدث له ذلك لأنه امتلك أعضاء لا تساعده على البقاء، أو لوجود قصور في أعضائه، فهو ينظر إلى النتائج النهائية للانتخاب الطبيعي ولا ينظر في المراحل الزمنية التي مرت بها الكائنات وما كان يجري عليها من تطور، وبتعبير دوكنز فهو لا يتبصر إلى الخلف، مع أن الإقرار بمبدأ التطور هو إقرار بتأثير التاريخ في حركة التطور، وهو العنصر الرئيسي الذي يقوم عليه الانتخاب الطبيعي.

---

١) [يوحنا ٥ : ١٧]

اسمح لي أن أنقلك إلى الجانب الاجتماعي وأريك كيف يفكر معظم الناس بمنطق بندلي ويبنون علاقاتهم الاجتماعية ويتخذون قرارتهم في علاقاتهم انطلاقا من هذا المنطق الذي لا يتبصّر إلى الوراء قليلا، عبر هذا المثال العابر من أجل توضيح مغالطة بندلي:

لك صديق حميم، ومنذ سنوات علاقتكما الحميمة تزداد عن طريق إسداء خدمات كثيرة يقوم بها صديقك تجاهك على مر الشهور والسنين الطويلة، فلا شك في أنك ستقدر هذه الخدمات في حينها إلى أن تعجز عن شكره، فجأة وفي هذا اليوم يخطئ صديقك في حقك، أو يقصّر في جانب، ما كنت تنتظر منه الخطأ فيه، فتقوم أنت وبأغلظ الأيمان تقسم بأن لا تكلمه أبدا، ولن تبادله الزيارة والمجاملة ولن تعينه إن طلب منك المعونة، ولن تسمح له أصلا أن يكلمك. فقد أخطأ في حقك، وخطؤه هذا لا يغتفر.

ماذا فعلت أنت بالضبط؟

لقد حكمت على النتيجة النهائية للعلاقة التي استمرت سنين، وبنيت موقفك منها على موقف واحد سلبي ونسيت التاريخ الإيجابي الطويل. فصار خطؤه في نظرك هو الشخص نفسه، وهو بذلك لا يصلح أن يكون صديقا، ولكن لماذا تجاوزت التاريخ؟ تاريخه معك مشرق، وإحسانه لك لا يقدر بثمن وكنت تعجز عن شكره أيام كان محسنا، لكنك ألقيت بهذا كله في سلة المهملات، وأخذت الموقف الأخير ليكون هو معيار الاختبار الذي وضعت صديقك فيه من حيث لا يدري.

ولو استشرت شخصا آخر فيما فعل صديقك، ولم تحدثه عن تاريخ الصداقة الحميمة، عرضت عليه الموقف الأخير فقط، الذي أساء لك فيه، وبناء على ما فهم الشخص المستشار من كلامك والخطأ الذي ارتكبه صديقك في حقك فقدأشار عليك بوجوب قطع العلاقة مع هذا الشخص. السؤال : هل هذا تصرف حكيم وصحيح وعادل؟ الجواب: لا... لأنك لم تضع الشخص المستشار في صورة الأحداث كلها منذ البداية، لذلك أخفيت عن ناظريه أشياء إيجابية كثيرة، وبناء على جهله هذا بإيجابيات صديقك تجاهك أطلق الحكم بضرورة إنهاء العلاقة.

هذا ما فعله بندلي بالضبط، فقد نظر إلى ما يمكن الحكم عليه اليوم ونسي التاريخ المديد الذي أدى إلى الأشكال الحية التي يراها اليوم.

ملخص ذلك أن هذه محاولة لإخراج الموضوع من مناطق النزاع إلى مناطق الوئام بين الطرفين. ولكنها في الحقيقة محاولة ضعيفة ولا تقوم على أساس متين لأنها تجمع المتناقضات في ثناياها، وهي جديرة بالاحترام فقط من وجهة نظر لاهوتي مؤمن مسبقا، ويمكن أن تمر على أتباع بندلي لا على الباحثين. يطرح دارون هذه التساؤلات أمام نظرية الخلق، تمعّن فيها وحاول أن تجيب عنها، يقول:

" وبناء على نظرية الخلق، فلماذا يتحتم أن يكون هناك هذا الكم الكثير من التنوع، وهذه الكمية الضئيلة من الأشياء الجديدة؟ ولماذا يتحتم على كل الأجزاء الجسدية والأعضاء الجسدية الخاصة بكثير من الكائنات المستقلة التي من المفروض أن كلا منها قد تم خلقه بشكل منفصل من أجل شغل مكانه الصحيح في الطبيعة، أن تكون مترابطة مع بعضها بهذا الشكل الشائع بواسطة خطوات متدرجة؟ ولماذا لا يتحتم على الطبيعة ألا تأخذ قفزة مفاجئة من تركيب إلى تركيب؟"[١]

من أهم التساؤلات المطروحة في قوله ، وهو ما ينتظر الإجابة عنه هو السؤال الآتي: لماذا لا نرى انفصالا تاما بين "المخلوقات" الكائنات الحية إذا كان كل منها مخلوقا ليستوطن منطقة ما في الطبيعة بناء على نظرية الخلق؟ فإن الله قادر على ألا يجعل بين هذه المخلوقات أعضاء مشتركة أو متشابهة أو توحي بأن بعضها قد جاء من سابق عليه أو متأثر بنوع آخر من حيث بنيته الجسدية؟

ثم: لماذا لا ترى في الطبيعة فروقاً كبيرة بين النوع والنوع، أي لماذا ترى تشابهاً في البنية بين القط الأليف والنمر المتوحش مثلاً؟ ولماذا ترى تشابهاً كبيراً في البنية الجسدية بين الكلب والذئب؟ وقس على ذلك. هذه تساؤلات يريد دارون من ورائها

---

١) أصل الأنواع: ص ٣٢٠

أن يقول إن نظرية الخلق لا تجيب عليها، في حين أن الانتخاب الطبيعي يفسرها بسهولة.

ويتابع أيضاً استكمالا للاقتباس السابق قائلاً:

"وبناء على نظرية الانتقاء الطبيعي فإنه من الممكن لنا أن نفهم بوضوح لماذا لا يجب على الطبيعة فعل ذلك، وذلك لأن الانتقاء الطبيعي يعمل فقط عن طريق انتهاز الفرصة الموجودة في التمايزات البسيطة المتتابعة، فالطبيعة لا تستطيع على الإطلاق أن تأخذ فقزة هائلة مفاجئة، ولكن يتحتم عليها أن تتقدم بواسطة خطوات قصيرة وثابتة ولو أنها بطيئة"[1].

وفي ذلك إجابة واضحة عن أسئلة اللاهوت حول الكائنات وتنوعها، وفيه تفسير للتمايزات التي تراها بينها، وتفسير للترابط الموجود أو التشابه بين أفراد النوع، وعدم ظهور نوع بشكل مفاجئ، فظهور النوع المستقل فيما يبدو لنا إنما هو نظر إلى النتيجة النهائية لفعل الانتخاب الطبيعي عبر زمن طويل، لذلك لا بد من أن ترى فرقا واضحا بين النوع والنوع الآخر، كالنظر إلى الفيل مثلا والأفعى، فإنك تستطيع أن تقول مع اللاهوتي: لاحظ الفرق الهائل بين هذين النوعين، وما هو الجامع بينهما؟

وعند دارون يستطيع التطوريون أن يقولوا لك: لاحظ أنك نسيت الخط التطوري، والزمن، والبيئة التي فرضت نوعا من التطور في الكائنات السالفة قبل هذين النوعين، والذي أدى بدوره لظهور أسلاف الفيل كنوع مستقل عن أسلاف الأفعى، وهذه عوامل لا يأخذها الناظر في الطبيعة اليوم بالحسبان، إنما ينظر إلى ما هو موجود على أنه مصمم هكذا كما يراه، وهي فكرة التصميم التي ما زالت حجة على نظرية الخلق ، وحجة لها أيضا عند الرافضين للتطور.

وعلى أية حال فمن منظوري الشخصي للأمور، أستطيع أن أقول لك إن تفسير دارون وارد، والتفسير الديني أيضا وارد ولا مانع من أن يكون هو الحقيقة مع الاشتباه الذي يوقعنا فيه البيولوجيون، وبما أن كتابا القرآن الكريم ليس كتابا

---

١) المرجع السابق: ص ٣٢١

في البيولوجيا ولم يتنزل ليضحد مقولات التطوريين، فإن لهم دينهم ولنا ديننا، والحمد لله رب العالمين. فنحن نأخذ بما جاء فيه قرآننا لأنه فيه ما يقنعنا عقلا ونقلا.

ب- مبدأ الجمال في الطبيعة:

مبدأ الجمال هو استناد إلى ظواهر محسوسة لإثبات الهندسة الإلهية المنظمة في الكون مقابل الاستناد إلى المحسوسات لإثبات حقيقة الانتخاب الطبيعي، الذي بدوره يلغي ما يسمى بالهندسة ويصف الطبيعة بالعشوائية، لأنه كما مر سابقا يتصف بالعماء، فكان لا بد للمنطق اللاهوتي أن يحاول إثبات نفسه حسيا أيضا لأنه يعتمد في الأساس على المبادئ غير الحسية التي لا تقوى على البرهان كما يفعل البرهان الحسي، لأن ما تستطيع أن تتبيّنَه بحواسك أثبت وأقوى في البرهان من مجرد عبارة مسطورة في كتاب ولا مستند لها في الحس، فذهب كثير من العلماء اللاهوتيين إلى الاعتماد على ما في الطبيعة من جمال في التصميم يدل- من وجهة نظرهم- على مهندس بارع قام بتصميم هذه الأشياء بالجمال الذي نراه في الطبيعة، فيصير "الجمال" بذلك دليلا على مهندس فنان لا طاقة للبشر أو المادة القاصرة بذاتها على خلقه. "والنظرة الجديدة لا تقتصر على تأكيد أولية العقل، بل تؤكد أيضا أن الجمال جزء من بنية العالم، وهذه النظرة الجديدة تقودنا كذلك إلى الأدلة على وجود الله. أن الطبيعة تزخر بالجمال. ففي عالم الجماد مثلا تُظهِر الجيودات والأحجار الكريمة والبلورات جمالا في التناسق واللون والإشراق لا سبيل إلى إنكاره".[1] ويمكنك أن تلحظ تفسير الجمال تفسيرا هندسيا بارعا من أجل إظهار براعة المهندس الفنان في قول بروتمان حول الزخارف اللونية على ريش الطيور على النحو الآتي: " أنه ساد الاعتقاد مدة طويلة من الزمن أن

---

١) العلم في منظوره الجديد. روبرت م. أغروس. ترجمة كمال خلايلي. عالم المعرفة. فبراير ١٩٨٩. ص٦٤ .

الريش ليس له دور سوى تيسير عمليتَي؛ تعديل الحرارة، والطيران. ولكن علينا الآن أن نضيف دورا ثالثا وهو التعبير عن الذات لأن هناك أصنافا كثيرة من الريش تغلب على تركيبها الخارجي الزخرفة."(١)

ليت آغروس لم يسق قول بروتمان هذا هنا لأنه لا ينسجم مع مبدأ الجمال الذي يريد إثباته في الطبيعة، لأن قول بروتمان حول الدور الثالث الذي يريد إضافته إلى الدورين السابقين لريش الأجحة عند الطائر هذا الدور الثالث هو التعبير عن الذات على حد تعبيره، والتعبير عن الذات ينسجم تماما مع المبدأ الذي يريد نقضه والانتخاب الطبيعي، فالزخارف التي يتحدث عنها من منطق الجمال هي بالفعل تعبير عن الذات لأن لها دورا عظيما في استقطاب الذكور إلى الإناث من أجل عملية التناسل وحفظ النوع، وهذه الزخرفة توجد في الجنسين، فالذكر يثير إعجاب الإناث بها و العكس صحيح، فتقوم الأنثى بجلب الذكور نحوها.

بمعنى أننا يمكن أن ننظر إلى الجمال بنظرة بيولوجية محضة لتحقيق غرائز الحيوان وليس من أجل هندسة مرسومة كي ينظر إليها الإنسان ويسبح بقدرة المنهدس الفنان، وانبهار الإنسان بهذه الزخارف غير مقصود وهي نتيجة عرضية تقع في نفس الإنسان الناظر إلى هذا الطائر المزخرف بالألوان. وهذا بدوره لو أقررنا بمبدأ الجمال فعلينا أن نقر أيضا أنه نتيجة للانتخاب الطبيعي لأن ذلك محتمل وغير منتفي، يهدف إلى تحقيق غرائز الحيوان وليس المقصود منه أخذ لب الإنسان بالإعجاب والانبهار. ولا تنس أن في أعماق البحار وعلى أرضية المحيط الأطلسي من هذه الزخارف على أجساد الأحياء البحرية التي لا يمكن لأي إنسان أن يراها بحكم مكان عيشها، فهل الجمال الذي تمتلكه على أجسادها هدفه إظهار بديع الفن لكي يتحقق الإنسان من هذه الهندسة الفنية الرائعة؟ والحقيقة أن من رآها بأم عينه

١) نقلا عن المرجع السابق ص٦٥ .

هم عدد قليل من الغواصين ولا يشكلون نسبة تذكر إذا قسناها بأعداد البشر اليوم. كل ذلك من ناحية.

والناحية الأخرى هي: هل كل ما في الطبيعة يمكن أن يكون جميلا؟ إذا كان مبدأ الجمال حقيقة واقعة فإنه يجب أن يلازم كل مظاهر الطبيعة، والحقيقة أن في الطبيعة ما ينافي مبدأ الجمال، بل يذهب بها إلى أبشع الصور، فأين الجمال في مظهر الحشرات التي يمكن وصفها بأنها مقزّزة. أين الجمال في مثل هذه المخلوقات؟ ولا أريد التعمق وضرب الأمثلة في ذلك لأنها ستثير مشاعر من القرف فيك. ولكنك تستطيع مشاهدتها في كل مكان، ثم لا تنس طبيعة سلوك الحيوانات تجاه بعضها حتى ترى نقيض الجمال يتحدث عن نفسه في الطبيعة. والإنسان ليس استثناءً من ذلك، فإذا كانت الأنثى هدفا للذكر فأنت أيها الرجل تقر في نفسك إلى أي شكل من أشكال إناث الإنسان تميل، ومن هي التي تأخذ عقلك، وفي مقابل ذلك ترى منهن ما لا تحب أن تنفق ثانية من وقتك في النظر إليها. فإذا كان الجمال دليلا على خلق الله، فإننا نستنتج أن المرأة الحسناء خلقها الله، أما البشعة فمن هو الذي خلقها؟! لذلك فإن مبدأ الجمال في الطبيعة سواء في جمادها أو أحيائها ليس دليلا قاطعا على نظرية الخلق ، وهذا بيولوجيا مفسر تماما بالوراثة، فالمرأة الحسناء تتوقع أن تكون أمها جميلة أو أن أباها وسيم، أو قد يبتعد العرق أبعد من ذلك فيمتلك صفة الجمال أحد أجدادها .

سأسوق لك رأي دارون في ذلك، دعني ألفت نظرك إلى أنني أقتبس من الطبعة السادسة له، وهي التي أضاف دارون عليها ردودا كثيرة على أسئلة واجهها من اللاهوتيين الرافضين لنظريته عندما صدرت الطبعة الأولى من كتابه، على أية حال فهذا قوله في مبدأ الجمال:

" أما فيما يتعلق بالإيمان بأن الكائنات المتعضية قد تم خلقها بشكل جميل من أجل إبهاج الإنسان- وهو إيمان قد تم إعلانه على أساس أنه مدمر لمجمل نظريتي- فإني من الممكن أن أعلق أولا على أنه من الواضح أن الإحساس بالجمال يعتمد على الطبيعة الخاصة بالعقل، بغض النظر عن أي جودة حقيقية موجودة في الشيء

المثير للإعجاب، وأن الفكرة المتكونة عما هو جميل، ليست شيئا غريبا أو غير قابلة للتعديل"[١] .

وهو كما ترى يرد الجمال إلى الطبيعة الشخصية والنظرة النسبية للأمور أو الأشياء التي تحس بالجمال فيها، فما تراه أنت جميلا، قد لا يلفت نظري ولا أرى فيه هذا الجمال الذي تتحدث عنه، والعكس صحيح، أي قد أنظر إلى نبتة على أنها غاية في الجمال والإبداع، ولا ترى فيها أنت شيئا من ذلك، هذه واحدة والثانية أن النظرة إلى الجمال كما جاء في الاقتباس السابق قابلة للتعديل أي أنك قد لا تعود ترى الجمال فيما كنت تراه جميلا، والعكس صحيح بالنسبة لطبيعة العقل الواحد (الشخص الواحد)، فقد يلتفت إلى جمال شيء كان قبلا لا يرى فيه هذا الجمال الذي بدأ يتنّه إلى حديثا. ويؤيد ذلك بقوله :

"وعلى سبيل المثال فنحن نرى هذا في الرجال التابعين لأجناس مختلفة الذين يعجبون بمقاييس مختلفة تماما للجمال الموجود في نسائهم."

ونقطة مهمة أخرى يضيفها ردا على مبدأ الجمال وهي:

" وإذا كانت الأشياء الجميلة قد تم خلقها لمجرد مرضاة الإنسان، فإنه يتحتم القول (إظهار) أنه قبل ظهور الإنسان قد كان يوجد جمال أقل على سطح الأرض من الموجود منذ أن تم ظهوره على خشبة المسرح."[٢]

وهو منطق سليم كما ترى، فهو يتساءل عن الجمال الموجود قبل ظهور الإنسان إذا كان المقصود من وراء الجمال أن يستدل الإنسان منه على صحة نظرية الخلق، فالإنسان في العصور الجيولوجية الأولى لم يكن موجودا في حين أن الجمال في الأصداف المخروطية الجميلة كانت موجودة منذ عصر الأيوسين، والأصداف الأمونية المتحجرة الجميلة كذلك، ويعلق دارون قائلا: " فهل كانت هذه الأشياء مخلوقة من أجل أنه قد يتم فحصها والإعجاب بها تحت قدرات التكبير الكبرى

---

١) أصل الأنواع: ص ٣٢٢

٢) المرجع السابق: ٣٢٢

الخاصة بالمجهر؟ فإن الجمال الموجود في الحالة الأخيرة، وفي الحالات العديدة الأخرى يبدو أنه في مجموعه نتيجة للتناسق في النمو."[١]

قد تلاحظ –على شاشات التلفاز- أن من أكثر الأشياء التي تستند إليها الدعوة اللاهوتية هو لفت نظر المشاهد إلى الجمال الموجود في الزهور، ولطالما سمعت شخصيا حثا من الدعاة على التفكّر في خلق هذه الأشياء الرائعة والألوان البديعة، إدهاشاً من الخالق للمخلوق ولفتاً لنظره للقدرة والإبداع، ولكن لدارون في هذا قولاً مختلفاً.

" والزهور تُصنّف من ضمن أكثر منتجات الطبيعة جمالاً، ولكنها قد جُعلت ملفتةً للأنظار بالتغاير مع أوراق الشجر الخضراء، وهي بالتالي تبدو جميلة في نفس الوقت، وذلك ممكن من أجل أن تصبح سهلةَ الملاحظة بواسطة الحشرات، وأنا قد توصلت إلى هذا الاستنتاج لأني وجدت أنها قاعدة ثابتة: أنه عندما يكون تلقيح الزهر عملية تتم بواسطة الريح فإنه لا يمكن أن يكون لها تويج ذو ألوان زاهية. والكثيرُ من النبات المختلف ينتج بشكل معتاد صنفَين من الزهور، أحدُ الصنفين مفتوحٌ وملوّن، وذلك لكي يجذب نظر الحشرات، والصنفُ الآخر مغلق وغير ملون، وخالٍ من الرحيق ولا تزوره الحشرات على الإطلاق، ومن ثم فإنه يمكن لنا أن نستنتج أنه إذا ما لم تكن الحشرات تم تكوينها على سطح الأرض، فإن نباتاتنا –من الممكن أن نستنتج بناء على ذلك- ما كانت تصبح مُحمّلة بالأزهار الجميلة، ولكنها سوف تنتج مثلَ هذه الأزهار الفقيرة فقط التي نراها على أشجار التنوب والبلوط والجوز والدردار والنجيلات والسبانخ..."[٢]

ويتابع دارون ضرب الأمثلة على ذلك من الطبيعة رادّاً كل ما يظهر للعين من جمال إلى أنه يكمن وراءه غرض بيولوجي، وهو تناسل هذه النباتات وحفظ نوعها، ويوضح ذلك بقوله :" ولكن هذا الجمال سوف يتم استخدامه كدليل للطيور والهوام من أجل احتمال التهام الثمرة وانتشار البيوض الناضجة. وأنا أستنتج من

١) أصل الأنواع: ص ٣٢٣

٢) المرجع السابق: ص ٣٢٣

ذلك أن هذه هي الحقيقة، وذلك نتيجة لعدم عثوري إلى الآن على أي استثناء من القاعدة التي تنص على أن البذور تنتشر بهذا الشكل عندما تكون مدفونة بداخل ثمرة.."[1]

مرة أخرى نعود إلى "الجمال" كمبدأ يؤيد نظرية الخلق وقارن ما مر ذكره بالنظر اللاهوتي الآتي الذي يُمَكّنُك ببساطة من أن تقول إن الجمال نسبي، بمعنى أن النفس هي التي تلعب دور المعيار في تحديد ما هو جميل وما هو غير جميل من المظاهر التي يتحدثون عنها بلغة شاعرية لا علاقة للعلم بها. : يقول ثورو : " السماء تمطرنا وتسقط علينا ثلوجا كالدرر يا له من عالم عجيب هذا الذي نعيش فيه! أين متاجر الجواهر والحلي من ذلك؟ ليس هناك ما هو أجمل من ندفة ثلج أو قطرة ندى. أكاد أقول إن صانع هذا العالم تتجلى براعته في كل ندفة ثلج أو قطرة ندى يسقطها علينا، ونحن نظن أن الأولى تتماسك بطريقة ميكانيكية وأن الأخرى تسيل فتتهاوى بكل بساطة، ولكنهما في الحقيقة حصيلة حماس ونتاج نشوة أضيف عليهما اللمسات الأخيرة بأقصى مهارة فنان"[2]

ولا بد أن ألفت نظرك إلى طبيعة اللغة الأدبية التي يحدثنا بها ثورو كما ترى في الاقتباس السابق، ولكن يبدو لمن يتغزل بقطرة الندى وندفة الثلج نسي أن الفنان الذي يتحدث عنه يرسل الأعاصير الهوجاء أيضا التي تقتلع الدور والشجر والإنسان وتسحبه برياحها العاتية وسيولها المتدفقة، أم أن هذا ليس من عمل الفنان الذي صنع ندفة الثلج بفنية رائعة وأن الإعصار من عمل شخص شرير؟ ألا ترى المظهرين موجودين في الطبيعة؟ أم إنّ المسألة انتقائية؟ ولا أريد أن أذكرك بالزلزال والبركان وتسونامي. فكل ما نتحدث عنه من شيء يمكن وصفه بالجمال وآخر يمكن وصف بضد الجمال موجود بالفعل في الطبيعة، فلماذا لا تسري قوانين

---

١) أصل الأنواع: ص ٣٢٤ .

٢) نقلا عن المصدر السابق. ص٧٢

الجمال على كل ما في الوجود؟ ولماذا ترك الفنان أشياء كثيرة لم يضع فيها لمساته الرائعة؟

أخيرا؛ فإن معيار الجمال لا يمكن أن يكون دليلا حسيا على هندسة مقصودة، لوجود ما يناقضه في الطبيعة، وإلا فإن المسألة انتقائية وانطباعية، ولا تقوم على أساس متين يمكن أن نعدّه دليلا على وجود هذه الهندسة كما قيل في بداية هذا المبحث على لسان بروتمان. فلا يصلح أن يدرّس مبدأ الجمال ضمن العلوم الطبيعية إنما مكانه الصحيح هو دروس الفنون والرسم. وخلاصة الكلام في ذلك أن على الفكر اللاهوتي ألا يتقدم أكثر في الخوض في المحسوسات لأنه سيخرج خاسرا، وهي عملية جريئة مليئة بالمخاطر على هذا الفكر، لأن كل ما يقال في الجمال ينقضه التفسير البيولوجي على مستوى الأحياء وينقضه التفسير الجيولوجي وعلوم البيئة على مستوى الأجواء كالغيوم الملامسة لسطح الأرض، والضباب الذي يغطي بستان القمح ويظهر لعينيك عندئذٍ منظر بديع لا يمكن إلا أن يثير في نفسك مشاعر الدهشة والروعة، وهو ما أثار قرائح شعراء وصف الطبيعة كما تعلم.

وعلى النقيض من ذلك يفسر العلماء هذه الظواهر لا على أنها مظاهر تحمل توقيع المهندس الأعظم والفنان البارع على حد تعبير ثورو، بل يدرسون فيها كثافة بخار الماء، وتيارات الرياح وحرارتها، واصطدامها بسفوح الجبال وارتفاعها إلى الأعلى التي تعمل على تكثيف بخار الماء ليتحول في درجة الحرارة التي تقارب الصفر إلى ندف ثلجية يظل وزنها في ازدياد حتى لا تستطيع مقاومة قوة الجاذبية فتسقط إلى الأرض.

وتلاحظ هنا الفرق في منهج النظر إلى هذه المظاهر، فبينما هي مظاهر جمال في الطبيعة، فهي عمليات تحدث في الأجواء بفعل عوامل فيزيائية، عوامل تكثيف بخار الماء على ورقة الشجرة التي تشكل قطرة الندى التي يتغزل بها الجماليون، هي ذات العوامل التي تَحدث في إعصار جورج وكاترين، والتي تشكل

منظرا جميلا في مركز الإعصار اللولبي الشكل والذي يتجه بسرعة الرياح التي تقوده لإحداث دمار وموت، إذا كنت رأيت صورة الدوامة الهائلة التي تشكلت في إعصار تسونامي فستشهد لها بالجمال لأن شكلها جميل بالفعل، ولكن عليك أن تعرف أن شكلها الجميل هو الذي ساقها وأعطاها الطاقة التدميرية التي أحدثتها في الجزر التي أتت عليها. إذن؛ ما قيمة هذا الجمال؟ وهل هو جمال بالفعل أم أشكال تحكمها قوانين الطبيعة التي يمكن رصدها وقياسها؟

ثانياً-الفيزياء الحديثة:

١- حلم آينشتاين[١]:

"إذا اكتشفنا نظرية مكتملة، وجب أن تصبح ذات يوم مفهومة في مبدئها العام لدى كل إنسان، وليس لدى قلة فحسب. وعندئذٍ سنكون جميعا فلاسفة وعلماء، حتى الناس العاديين، فإنهم قادرون على المساهمة في مناقشة سبب وجودنا ووجود الكون. وإذا وجدنا الجواب وعرفنا السبب، فسيكون ذلك أسمى نصر حققه العلم البشري لأننا عندئذٍ نكون قد عرفنا بحق كيف فكّر الله عندما دبّر الكون."[٢]

كان آينشتاين يحلم بما أسموه الفيزيائيون - منذ الثمنينيات- بعده بنظرية واحدة لكل شيء في الكون: a theory of every thing ، أي نظرية لها القدرة الحقيقية على جمع القوى الطبيعية الأربع، تَذكّر هنا أننا نقصد بالطبيعية الكون كله، أما القوى الطبيعية الأربعة هي الجاذبية والكهرومغناطيسية والقوتين النوويتين: القوية، والضعيفة. وهذا الكلام في حاجة إلى توضيح.

---

١) من المصادر الرئيسية في هذا الجزء من الفصل على برنامج وثائقي بعنوان " الكون الأنيق"، أنتجته شركة نوفا الأمريكية، بالتعاون مع العلماء المشتغلين في نظرية الأوتار الفائقة. يقدم البرنامج أحد أساتذة الفيزياء بجامعة كولومبيا واسمه : برايان جرين. يضاف إليها مصادر مثل : مقالات **ستيفن هوكنغ** المترجمة، ومصادر مثل: **الفيزياء المسلية**: ياكوف بيريليمان، الكتاب الأول والثاني، و"**أسطورة المادة**". بول ديفز. " **ميكانيكا الكم** . أرفن شرودنجر. و" فلسفة الفيزياء النيوتونية.عبد القادر بشتة. فلسفة العلم في القرن العشرين. يمنى الخولي. **الكون والثقوب السوداء**. رؤوف وصفي وزهير الكرمي. **ميكانيكا الكم**. سعود اللحياني، وغيرها الكثير الكثير. لا سيما الدوريات الصادرة عن مجلة SCIENCE . ومقالات في الفيزياء من موقع الذاكرة.

٢) "موجز تاريخ الزمن". ستيفن هوكنغ. نقلا عن بول ديفز. "الله، والعقل والكون".ترجمة سعدالدين خرفان. دار علاء الدين. دمشق.٢٠٠٧ .ص٦.

لقد حدد الفيزيائيون تأريخ نشأة الفيزياء كعلم حقيقي يستند إلى الملاحظة والقياس ثم صوغ القانون منذ أعمال نيوتن في الجاذبية[١]، وقد تم ذلك لنيوتن سنة ١٦٦٥ م، وهي الحكاية المشهورة عن سقوط التفاحة، لقد وضع نيوتن قوانين الجاذبية وفسر - استنادا إلى ما يجري على الأرض- ما يجري على المستوى الفلكي، وسبب دوران الكواكب حول السمش، لكن ما كان ينقص نيوتن هو بالضبط كيفية عمل هذه القوة أقصد الجاذبية، مع أنه عرف كيف يُقَوْلِبُها بقوانين لازالت معتمدة حتى اليوم، وتطبيقاتها تعمل بشكل جيد، وكما أشرت سابقا، فإن علماء الفضاء في وكالة ناسا لا يحتاجون غيرها عند إطلاق مكوكاتهم إلى الفضاء وتعليق الأقمار الاصطناعية في مدارات حول الأرض.

قصور فهم عمل الجاذبية تم حل مشكلته على يد آينشتاين الذي صور الأجسام الكونية تتدحرج على نسيج كوني، هذا النسيج مشابه تماما لورقة مطاطية رقيقة، فلو وضعت عليها كرة فسوف تتسبب في حصول تجويف في وسط سطح الورقة (انظر الصورة أدناه).

ولو وضعت كرة أقل وزنا من الأولى على الورقة نفسها فسوف تدور حول الكرة الأثقل في الحفرة التي أنشأت التجويف الأعمق، انقل هذه الصورة عبر عقلك إلى الشمس والأرض، الشمس أكبر حجما وأكثر وزنا، فهي تسبب انحناءً في المكان الذي تستقر فيه، والأرض تدور في هذا الانحناء لأنها أقل وزنا من الشمس وقس على ذلك بقية أفراد المجموعة الشمسية وباقي المجرات في الكون.

١) يذكر أن كلمة عالم scientist بمفهومها الجديد التي تعني المتخصص في العلوم الطبيعية وضعها وليم وول في القرن التاسع عشر، وقبله كانت تطلق على أي شخص متخصص في العلوم أو في الفلسفة أو اللاهوت ....

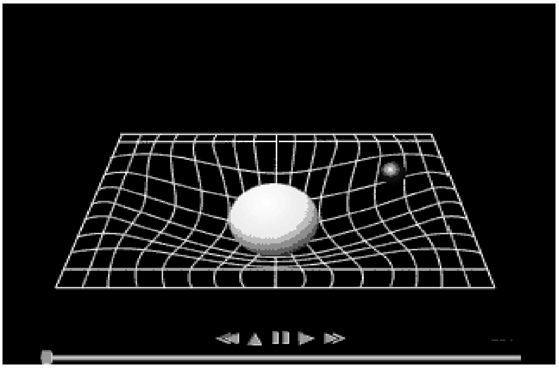

من هنا صرنا نسمع بشيء يسمّى انحناء المكان، وانحناء المكان هذا يتسبب في انحناء الزمن.... كيف؟

لقد أثبت آينشتاين مرة أخرى أن أكبر سرعة في الكون هي سرعة الضوء، فإذا كان الضوء يصدر عن السمش أو ينعكس عن القمر أو الأرض فلا بد أن يمر بالانحناء المكاني، أي التجويف الذي تحدثه الأجرام الكبيرة، وعليه فإن الضوء في هذا المستوى لا يسير في خط مستقيم، وبالتالي سيتسبب ذلك بتأخير وصول الضوء من مكان إلى آخر . ولو قارنا بين فهم نيوتن للجاذبية وفهم آينشتاين فسوف يتضح لك الآتي عبر هذه الحادثة التخيلية:

لو افترضنا أن الشمس اختفت من مكانها فجأة، هذا يعني طبقا لنيوتن أن الأرض ستخرج من مدارها فور اختفاء الشمس، ولكن حسب نظرة آينشتاين فإن الأرض ستخرج عن مدارها بعد ٨,٣ دقيقة، أي بعد وصول الموجات النسيجية التي سببها اختفاء الشمس.

وقد تم إثبات ذلك بالنسبية العامة لآينشتاين، مما أدى منذ بداية القرن العشرين إلى فهم جديد للجاذبية، وأن هناك ما يسمّى بالنسيج الكوني أو الغشاء الكوني الذي تدور عليه الكواكب والشموس، فكان لا بد من معرفة طبيعة هذا النسيج، هنا يجب أن نتوقف قليلا عند القوة الثانية في الطبيعة كي نتمكن من رسم صورة كاملة لما يجري اليوم في علم الفيزياء، والحلم الذي يتحدث عنه

الفيزيائيون ويسعون إلى الوصول إليه وهو حلم آينشتاين، والحقيقة اليوم في الفيزياء الحديثة أنهم وصولوا إليه نظرياً، لكن لم يتم التحقق منه تجريبياً، مما أضفى على المشروع نزعة هي أقرب للفلسفة منها إلى الفيزياء، حتى الآن، ومفاعل سيرن المقام على الحدود الفرنسية السويسرية يستعد الآن لتنفيذ تجارب لإثبات تحقق الحلم الذي سيتضح أكثر بعد قليل.

القوة الثانية هي الكهرومغناطيسية، وهو اصطلاح منحوت من الكهرباء والمغناطيس، الكهرباء قوة متولدة عن الإلكترون، والمغناطيس قوة متولدة عن تجاذب يقوم على تبادل جسيمات لا كتلية بين المغناطيس والمعدن، و هذه القوة تتولد عبر تمرير تيار كهربائي في سلك موصل، فقد لا حظ العلماء أن مجالا مغناطيسيا جَذْبِيّاً يتولد جراء ذلك، وهما في الحقيقة قوة واحدة لأن المغناطيس والكهرباء يعتمدان على حركة إلكترونية في الذرة. وطالما وجدت هذه القوة المتولدة عن المادة فكّر العلماء بالمنطق البسيط أن هذه القوة يجب أن تخضع للقوانين ذاتها التي تخضع غيرها من المادة لها. فنشأة فكرة توحيد القوى في الطبيعة بصياغة معادلة واحدة تجمعها.

أما القوّتان النوويّتان : فالأولى هي القوة التي تجمع البروتونات والنيوترونات داخل نواة الذرة، وهي أشبه بالمادة اللاصقة، والضعيفة: هي الإشعاعية التي تستخدم في التصوير الطبي لعظام المرضى. مثل أشعة X ، ولها تطبيقات أخرى كصور الرنين المغناطيسي، وما يسمى بالطب النووي.

لم يواجه العلماء صعوبة في جمع القوى الثلاث، لقد كانت الصعوبة بين هذه القوى الثلاث: النوويتين والكهرومغناطيسية من جهة، والجاذبية من جهة أخرى، فالجاذبية أضعف هذه القوى، وضمها إلى القوى الثلاث في معادلة أو نظرية واحدة تفسر القوى كلها كان أمرا متعسّرا، وظل مستعصيا على العلماء. وهو الحلم ظل

يراود آينشتاين رغم صعوبة تحقيقه ، وقد توفي على سريره في المستشفى وهو يفكر فيه ماسكا في يده الورقة والقلم.

علق ستيفن واينبيرغ على محاولات آينشتاين التي لم تسفر عن شيء بقوله لم يكن باستطاعة آينشتاين إيجاد الحل، أو تحقيق هذا الحلم، لأنه ببساطة كان يفكر بالطريقة نفسها التي كان يفكر فيها في الجاذبية ونسبيته، ولتحقيق هذا الحلم كان على آينشتاين أن ينظر إلى الأمور من زاوية مختلفة تماما عن تلك التي كان يقف فيها.

- هل ثمة ضرورة لجمع هذه القوى في نظرية واحدة؟ وما الداعي لجمعها؟

الجواب : نعم، لابد من جمع هذه القوى في نظرية واحدة، والسبب أنها هي القوى التي تسيّر المادة بشكل منسجم في الكون، ولو كانت هذه القوى تعمل بشكل منفرد عن بعضها لما رأيت تناسقاً في الكون ولَتَصادمتْ هذه القوى ببعضها، مما يؤدي إلى خوارق طبيعية لا يمكن فهمها ولا تفسيرها، إذن فالقوى الطبيعية تعمل مع بعضها بشكل منتظم فتبدو لنا حركة المادة وتفاعلها على المستوى الكيميائي والفيزيائي والبيولوجي حركة طبيعية منسجمة في عالم يمكن أن نعيش فيه.

لذلك كان لابد للفيزيائيين من إيجاد هذه المعادلة السحرية التي تجمع القوى الأربع، وتصف التآلُف الحاصل بينها. وكما ذكرت سابقا كانت العقدة تتمثل في ضم قوة الجاذبية إلى القوى الثلاث الأخرى. فهم يشبّهون تعارض القوى في الطبيعة كإشارة ضوئية تضيء باللون الأحمر إشارة إلى وجوب التوقف، وتضيء بالأخضر إشارة إلى وجوب الحركة في الوقت نفسه، فلو رأيت هذا المشهد في الواقع كيف تتصرف؟ هل تسير أم تقف؟ وهذا يعني التعارض، وهو غير موجود في الكون بالفعل. فلابد إذن من أن تكون تفاعلات هذه القوى ليست على شاكلة الإشارة

الضوئية لأنها عندئذ ستتسبب بكوارث وانهيار في الكون. ولكن هذا ما لا يحدث بالفعل.

يدخل اللاهوت إلى علم الفيزياء عبر عبارتين ذكر فيهما اسم "الله" أو "الرب"، الأولى جاءت على لسان نابوليون عندما سأل الفيزيائي الفرنسي لابلاس سؤالا مهما. لقد استدل لابلاس أن الكون يسير بانتظام شديد بمعنى أن اللحظة الحاضرة للكون يمكنها أن تعطيك تصورا دقيقا عن مستقبل الكون، بمعنى أن هناك هندسة محكمة تنظم الكون وحركة أجرامه، وهو ما استثمره وليم بالي للتدليل على وجود الله كما مر آنفا، فقد سأل نابوليون لابلاس عن دور "الرب" في هذا النظام الكوني ، فأجاب لابلاس: سيدي ، أنا لست بحاجة لتلك الفرضية ". أي؛ فرضية الرب.

على أن ستيفن هوكنغ يفهم من ذلك بأن لابلاس لم يقصد أن ينفي وجود "الرب" الذي دبّر بحكمته نظام الكون، بل إن هذا الانتظام تفسره القوانين لا إرادة الرب، أي إن كلمة (فرضية) في قول لابلاس تتوجه إلى "إرادة" الرب على أنه يتدخل بيده في تسيير الكون، وهو(لابلاس) يقصد أن الرب يتدخل عبر القوانين التي وضعها في الكون. على أن ظاهر عبارته يفيد بأن وجود الرب فرضية، ولكن الظروف التي كانت تعيشها أوروبا في عهد لابلاس- القرن الثامن عشر- يستنتج منها هوكنغ أن لابلاس لم يكن يجرؤ أن ينفي بسذاجة وجود الرب.

أما العبارة الثانية التي ذكر فيها "الله"، فقد أطلقها آينشتاين، وهي على جانب كبير من الخطورة، وهي قوله: " إن الله لا يلعب النرد". وخطورتها ليس في معناها إنما لأن الذي أطلقها عالم بحجم آينشتاين، وسيتضح موقف آينشتاين من الدين في شرح نظرية الأوتار الفائقة فيما يأتي؛ لأننا سنقف عند مبدأ الارتياب الذي كان سبب إطلاق آينشتاين لعبارته هذه.

نظرية الأوتار الفائقة : (غابرييل فينيتاسيانو- سَسْكِند- إدوارد ويتن)

نظرية الأوتار الفائقة التي تم لها التوفيق نظرياً ولم يتم تجريبياً حتى هذا العام ٢٠١٠ كما أشرت لك سابقا، كانت نواتها نظرية الكم، التي جاء بها الألماني ماكس بلانك، سنة ١٩٠٠ ، وأضاف هاينزبيرغ إليها مبدأ الارتياب أو (عدم التأكد)، وقد مررنا بذلك قبلا ولكن لا بأس من بسط الكلام قليلا هنا.

إن مبدأ الارتياب يفيد بأن القوانين الفيزيائية التي يتعامل بها العلماء مع المادة التي تفوق حجم الذرة لا تصلح للتعامل مع المستوى تحت الذري أي التعامل مع مُركِبات الذرة بعد أن أصبحت الذرة مركبة - في نظر العلماء- وليست الوحدة الصغرى التي تتألف منها المادة ، ويفيد هذا المبدأ أن هناك عنصرين يجب السيطرة عليهما في المستوى تحت الذري، وهي سرعة الإلكترون، ومكانه. يقول المبدأإننا إذا استطعنا قياس سرعة الإلكترون فإننا لا نتمكن من تحديد موقعه ، والعكس صيحيح، فإن استطعنا تحديد مكانه فإننا لا نستطيع تحديد سرعته فضلا عن الاتجاه الذي يمكن أن يسلكه. فصارت المسألة مردودة إلى الاحتمالات الإحصائية، من هنا لم يقتنع آينشتاين بهذا المبدأ لأنه يتسبب في عشوائية الحركة والكتلة، ويدخلها في مسألة الاحتمالات كما قلنا؛ لذلك قال عبارته المشهورة : "إن الله لا يلعب النرد". لأن النرد كما هو معروف يقوم على احتمالات الحصول على أرقام (قياسات في الفيزياء) محددةٍ نتيجةً للصدفة عن رمي قطعتي النرد.

لكن مبدأ عدم الارتياب ثبت بعد أن أجرى جون بل تجربة أظهر فشل "نظرية المتغيرات المتخفيّة" التي وضعها آينشتاين مقابل "ارتياب" هايزنبيرغ في ميكانيكا الكم، حتى قال هوكنغ : فعندما نفذت التجربة بعناية، ظهرت النتائج متناقضة مع نظرية "المتغيرات المتخفّية" .

وقد ظهر هذا القول بعد أن كان آينشتاين قد فارق الحياة وهو يحلم بتحقيق الحلم الذي أقر الفيزيائيون جميعا أنه لابد من تحقيقه لكي نستطيع تفسير انسجام الحركة في الكون. والارتياب الذي يتحدث عنه هايزنبيرغ لم يقنع آينشاين وفهمه على أنه عشوائية احتمالية بالنسبة لنا كمشاهدين، ولكن وراءه لغز ا، وهذا اللغز هو الذي يرينا الأمور بهذا

الارتياب أو عدم الدقة، وأن الفوضى التي نراها في المستوى تحت الذري هي منظمة ولكنها غامضة، لذلك قال هذه العبارة، وفيها نفي للنرد، أي؛ لعبة " الاحتمالات"، لأن "الله" لا يلعب النرد. من هنا استدل اللاهوتيون على أن آينشتاين مؤمن متدين بناء على الفيزياء التي صار من أعظم أعلامها بعد النسبية، فضموا هذه العبارة إلى الدلائل التي تؤيد مذهبهم في أن العلم يثبت وجود الله.

لقد كتب مجموعة من الفلاسفة والفيزيائيين حول نظرة آينشتاين للدين، وكان أكثرهم مقاربة لتلك النظرة جريبانوف ، فلماذا نؤوّل ونجتهد بالفهم والرجل نفسه صرح بنوع التدين الذي يقصده، إذ يقول آينشتاين:

"أن تشعر بوجود شيء يمكن اختباره وراء شيء من الصعب أن تبلغه أرواحنا شي يصل جماله وكماله بشكل غير مباشر ، أشبه بالصدى الضعيف، هذا هو التدين، وبهذا المعنى فأنا متدين"[1]

يقول جريبانوف تعليقا على فلسفة آينشتاين : " ولم يجد آينشتاين أي مبرر للجوء إلى الدوغما الدينية لتفسير الظواهر الغامضة.(إن الإنسان المقتنع تماما بالعملية الشاملة لقانون السببية لا يمكن أن يفكر للحظة واحدة بفكرة الخالق الذي يتدخل في سياق أو مجرى الأحداث) فقد اتجه إلى (الدين الكوني)"[2].

ويظهر لنا أن آينشتاين كان مقتنعا بما سماه (الدين الكوني)، وهو الغموض الذي يكتنف الكون في جميع أبعاده، فبعد الحديث عن التحرر وإكبار الفلاسفة ، يقول حول الغموض وهو الدين الكوني كما أشرنا قبل قليل: "إن الطريق إلى الفردوس لم يكن مريحا ومغريا مثل الطريق إلى الفردوس الديني، لكنه أثبت استحقاقه وجدارته بالثقة ولن آسف أبدا على اختياري له".[3]

ويضيف جريبانوف الذي أسهب في مقالته في توضيح موقف آينشتاين من الدين لاسيما أن آينشتاين نفسه كتب في الدين والعلم مقالة، يقول جريبانوف :" كتب آينشتاين:(إن الوضع سيتغير عندما تكون هناك ضرورة لاستبدال أحد المفاهيم المألوفة

---

١) آينشتاين والقضايا الفلسفية لفيزياء القرن العشرين. د. ب جريبانوف وآخرون . ترجمة ثامر الصفار . دمشق. ط١. ١٩٩٠. ص١٤.وتجد في ملحق الكتاب مقالة لآينشتاين بعنوان " العالم كما أراه". وأوردها بلا تعليق.

٢) المصدر السابق ص ١٥ .

٣) المصدر السابق ص ١٥- ١٦

بمفهوم آخر أكثر وضوحا ودقة بما يتلاءم وحاجات التطور في نظام أية مسألة، وعندئذٍ سيقوم أؤلئك الذين استخدموا نفس المفهوم بصيغته الفضفاضة بحملة كبيرة شاكِين من الخطر الذي يتهدد الأشياء المقدسة، وتختلط مع هذا النحيب أصوات أولئك الفلاسفة المعتقدين باستحالة العمل دون هذا المفهوم لأنهم وضعوه في خزانتهم للمطلقات والبدهيات."(١)

وكي لا أتقوّل على الرجل ولا أدع لأفكار جريبانوف تأخذني يمينا ويسارا أقتبس لك هذا النص الذي كتبه آينشتاين بيده، وضمير المتكلم فيه هو لآينشتاين نفسه:

"The most beautiful experience we can have is the mysterious. It is the fundamental emotion that stands at the cradle of true art and true science. Whoever does not know it and can no longer wonder, no longer marvel, is as good as dead, and his eyes are dimmed. It was the experience of mystery -- even if mixed with fear -- that engendered religion. A knowledge of the existence of something we cannot penetrate, our perceptions of the profoundest reason and the most radiant beauty, which only in their most primitive forms are accessible to our minds: it is this knowledge and this emotion that constitute true religiosity. In this sense, and only this sense, I am a deeply religious man...

I am satisfied with the mystery of life's eternity and with a knowledge, a sense, of the marvelous structure of existence -- as well as the humble attempt to understand even a tiny portion of the Reason that manifests itself in nature."

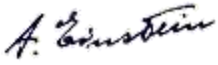

---

١) المصدر السابق ص ٢٩ .

والتفكير المستقيم الذي أنادي به كما لاحظت خلال قراءتك لهذا الكتاب، وتكرار هذا المصطلح مرارا يقتضي بأن نقول : يمكننا الاعتماد على آينشتاين كفيزيائي، ولكن نظرته للدين لا تلزمنا بأن نأخذ بها. فلا يعني إن جاء آينشتاين بحقائق وثورة في عالم الفيزياء بأنه سيفعل ذلك في الدين، فنأخذ ديننا عنه.

وعودا إلى نظرية الأوتار الفائقة بعد أن تبيّنا مفهوم الدين عند آينشتاين، بخاصة ما يتعلق بعبارته التي فهمت بشكل ليس صحيحا تماما، فكما يتضح من مقالته فإن دينه هو كشف الغموض وسر الكون، ومن هنا نريد أن ندخل إلى نظرية الأوتار الفائقة التي عدها كثير من الفيزيائيين تحقيقا لحلم آينشتاين وكشفا لسرّ الغموض الذي يكتنف الكون، وهو الدين الكوني، بمعنى أن هذا الدين الكوني قد يكون معادلة رياضية أو نظرية فيزيائية، تلخص القوى الأربعة في الطبيعة كما أشرت لك سابقا.

لا أريد أن أسرد عليك قصة علم الفيزياء منذ الفلاسفة و الفلكيين الأوائل إلى العصر الحديث والفيزيائيين الجدد، ولكن ملخص هذا التاريخ الطويل يدل على أن الفيزياء صارت علما حقيقيا مستقلا بذاته عن مسلمات مقررة منذ نيوتن ثم لابلاس وصولا إلى بلانك ونظرية الكم ونيلز بور وديراك ثم هايزنبيرغ واينشتاين واعتراضه على هايزنبيرغ إلى فينيتاسيانو إلى سسكند إلى ستيفن واينبيرغ إلى هوكنغ إلى مايكل دف إلى ويتن والأسماء أكثر من ذلك أضعافا مضاعفة من ناحية ، ومن مسارع (فيرمي لاب Fermi lab) إلى مسارع (سِرن CERN) الأوروبي الأحدث في العالم من ناحية أخرى، بعد المرور بهذا التاريخ الطويل الحافل بالتطورات والنظريات وإثبات بعضها وضحد بعضها وتعديل بعضها، وظهور فكرة الانفجار العظيم بعد اكتشاف إدوين هابل سنة ١٩٢٠ أن الكون في اتساع، هذا التراكم العلمي الذي أنجزته هذه الأسماء الكبيرة وغيرها الكثير التي لم أذكرها لأنني لست بصدد التأريخ لعلم الفيزياء، فهناك مراجع كثيرة تؤرخ له [١] ، قادت في النهاية إلى ما يسمى بنظرية الأوتار الفائقة.

---

١) انظر مثلا موسوعة مشاهير العالم في العلوم والفكر والسياسة.ج.ج. باكسون. ترجمة: فريد حمدان. دار الصداقة .بيروت.ط٢٠٠٢. تشمل الموسوعة الأعلام في مختلف العلوم وتؤرخ لسيرهم الذاتية ومنجزاتهم العلمية.

ملخص الكلام في النظرية أن الذرة تحوي جسيمات غير تلك التي ظلت مألوفة لنا منذ رذرفود وبعده بقليل: البروتونات والنيوترونات والإلكترونات، إذ تم تفكيك النواة وأظهرت التجارب وجود هذه الجسيمات وسميت الكواركات، لم يقف الأمر عند الكواركات، بل ظل الدرس الفيزيائي يدخل إلى الأعماق حتى يكشف عن طبيعة تلك الجسيمات تحت الذرية، وتبين مرة أخرى لهايزنبيرغ أنه لا يمكن ضبطها بدقة، على أية حال، فإن فينيتاسيانو وجد معادلة رياضية تعود إلى ما قبل مئتي سنة تصف سلوكا لجسيمات أصغر من البروتونات، وشارك في فهم هذه المعادلة سسكند الذي كتب بحثا أكاديميا تحدث فيه عن الجسميات على أنها عبارة عن أوتار لا تكف عن الاهتزاز، ولقد قوبل بحثه بالرفض إلى أن تمت البرهنة على صحة أقوال سسكند أخيرا مع تعديل على شكل الأوتار التي هي طاقة، والتعديل كان بأن جعل الأوتار مغلقة على نفسها أي إن أطرافها ليست حرة خلافا لسسكند.

ما الجديد الذي قدمته هذه النظرية؟

الجديد هو قدرتها على توحيد جميع قوى الطبيعة الأربعة التي ذكرناها، ولكن العلماء اشتغلوا على شكل أفراد ومجموعات أحيانا، وتوصلوا إلى خمس معادلات تجمع القوى الأربع، وهو ما كان موضع حيرة شديدة لأن المطلوب معادلة واحدة؛ لأن الكون منتظم ويسير بشكل منسجم ولا يمكن أن تحكمه خمس معادلات، تم توحيد هذه المعادلات في معادلة واحدة على يد آينشتاين العصر الحديث وهو (إدوارد ويتن) سنة ١٩٩٥، حيث استطاع أن يفهم أن المعادلات الخمس لم تكن إلا أربع نسخ عن نسخة أصلية كأنك تُوْقِف رجلاً أمام أربع مرايا وتنظر من الخارج فسوف ترى خمسة رجال، هكذا استطاع ويتن توحيد المعادلات في واحدة لها القدرة على تفسير وربط قوى الطبيعة جميعها.

لم يكن عمل ويتن سهلا، لقد تطلب الأمر منه أن يكون للجسيمات تحت الذرية أحد عشر بُعداً تدور وتهتز فيها لا أربعة أبعاد، وذلك يفسر تميّز مادةٍ ما عن غيرها. بمعنى أن طبيعة اهتزازات الأوتار الطاقوية هذه هي التي تحدد المادة او العنصر الكيميائي، لذلك ترى له عدداً من الإلكترونات مختلفاً عن غيره، فما الذي يميز النحاس عن الحديد عن

الذهب، إنها حركة أوتار الطاقة الكامنة في الجسيمات التي تختلط بالبروتونات والنيوترونات في نواة الذرة، هذه الاهتزازت الحركية في الأبعاد الأحد عشر هي سر التمايز بين المادة والمادة. وإلا فإن بروتونات الحديد هي ذاتها بروتونات الالمنيوم مثلا، والنيوترونات هي النيوترونات ذاتها في كلا المادتين، فما الذي يميز كلٍّ منهما؟ مع اختلاف عدد الإلكترونات الذي يجب أن يطابق عدد البروتونات، إذن فالمميز هو طبيعة اهتزازات الأوتار الطاقوية في المستوى تحت الذري.

السؤال الذي يجب طرحه الآن هو :

كيف استطاعت نظرية الأوتار الفائقة جمع قوة الجاذبية إلى القوى الثلاث الأخرى لأنها أضعف القوى على الإطلاق، وكان من العسير جدا أن يتم ضمها في تلك المعادلة السحرية أو النظرية الشاملة؟

كانت صيغة هذا السؤال عند الفيزيائيين هي : ما هي قوة الجاذبية؟ مع أن نيوتن سنة ١٦٦٥ وضع قوانينها، ولكن ماهية هذه القوة ظلت غامضة، وفسرها آينشتاين على المستوى الفلكي، لكنها ظلت على الأرض في حاجة إلى المزيد من الفهم.

آخر ما توصل إليه الفيزيائيون في هذا الصدد هو أن الأجسام المتجاذبة يتم بينها تبادل في الجسيمات، هذه الجسيمات أسموها (جرافيتونات) مفردها جرافيتون (Graviton)، وهي جسيمات لا كتلية (massless)، هي التي تقوم بدور الوسيط بين الجاذب والمجذوب بحيث تأخذ الجسم الأقل وزنا باتجاه الأكبر وزنا، وهي موجودة في كل الأجسام على الإطلاق، فظهر للعلماء أن قوة الجاذبية قوة هائلة ولكنها تبدو لنا ضعيفة، ونتعامل معها بيسر فإننا نستطيع رفع كيلو من الحديد مثلا عن الأرض دون أن نشعر بقوة هائلة أقوى من عضلات أيدينا تجره إلى الأرض، والسبب في ظهور الجاذبية بهذا الضعف يأتي بسبب ضياع كم كبير من الجرافيتونات وهروبها إلى خارج الغشاء الكوني.

حاول الفيزيائيون اكتشاف هذه الجسيمات (الجرافيتونات والأوتار الفائقة التي تكون أجزاء الذرة) في مسارع فيرمي الأمريكي ذي الأنبوب الذي يبلغ سبعة كيلومترات طولا،

وقد كانوا يدركون مسبقا أنهم لن يروها بل كانوا يبحثون عن آثارها في غرف خاصة مُعدّة لهذا الغرض إلا أنهم لم يفلحوا، وعزوا ذلك إلى أن طول الأنبوب الذي يقذفون فيه ذرتي الهيدروجين بشكل متعاكس لم يكن كافياً لأحداث السرعة المطلوبة وقوة التصادم إذ إن عددا كبيرا من التجارب كان يفشل بسبب مرور الذرتين باحتكاك إحداهما بالأخرى ولم يقصدوا ذلك، كانوا يريدون أن تصطدم إحداهما بالأخرى لتولّد انفجارا يسبب تناثر الجسيمات الخفيّة في الذرة.

أدرك الأوروبيون ذلك فقاموا ببناء مسارع عظيم هو مسارع (سِرن CERN) بين فرنسا وسويسرا، وجعلوا طول إنبوب التسريع ٢٧ كيلومترا، وفي هذه الأيام التي أكتب فيها هذه الكلمات كنت سمعت أن مفاعل سرن في مراحل بنائه النهائية وسوف يستعد قريبا للبدء بإجراء التجارب، التي تطمح أن ترى آثار الجسيمات تحت الذرية وترصد أيضا آثارا للأوتار الفائقة أي أوتار الطاقة واهتزازاتها.

وملخص القول في ذلك أن توحيد القوى قد تم فهمه ذهنيا والتعبير عنه رياضيا، وبقي التحقق منه مخبريا، مع طموحٍ يحدو العلماء الذين سيجرون هذه التجارب أن يتحقق لهم التثبُّت التجريبي لما عبرت عنه الأوتار الفائقة من تصور لسلوك المادة الذي بدا لأول وهلة بعيداً عن أن يقبل الجمع بين قواها المتنوعة لتباين طبيعة كل قوة وسلوك المادة بتناسبها مع حجمها، فالعمل على مستوى الأجرام السماوية والكتل المتوسطة الحجم شيء، والمستوى الكمّي شيء آخر، على أية حال أوصلتهم الجهود المضنية إلى "الأوتار الفائقة"، وهي كما قلت قبلا عبارة عن طاقة على شكل أوتار مهتزة مغلقة على نفسها.

السؤال الآن هو : ما علاقة هذا كله بالثوابت اللاهوتية المطلقة؟

العلاقة تتلخص في النتائج المترتبة على الصورة التي ترسمها نظرية الأوتار الفائقة للكون. وهي مدار حديثنا فيما يلي:

الأوتار الفائقة هي عبارة عن طاقة تشمل الكون وتتسبب في إعطائه شكل الغشاء الذي يبدو هادئا منتظما، ولو أنه في وسعنا أن نمعن التدقيق في الجزيئات الذرية وتحت الذرية

لهذا الغشاء فسوف نرى العجب من العشوائية في الحركة على مستوى الجزء فلا المكان مكان ولا الزمان زمان، وليس هناك اتجاهات يمكن رصدها، أما على مستوى الكل فإنك لا تلاحظ شيئا من ذلك، من هنا استنتج العلماء أن الحركة العشوائية الدقيقة لا تظهر للعيان إنما يظهر شكلها الخارجي الهادئ، الذي هو الغشاء الذي لم تعد النجوم والكواكب تسبح فوقه إنما هي مغمورة فيه، وهذا بدوره لا يمنع وجود غشاء كوني آخر يشبه قطعة من الخبر المستطيل الشكل الذي يشبه الشرائح (slide)، وهو يشتمل على كل ماتراه عيناك وتلسكوباتك من أجرام، ولا يمنع كما قلت لك أن يجاور الشريحة الكونية التي تضم كوننا ومنه مجرتنا، لا يمنع وجود شريحة كونية ثانية و ثالثة ورابعة وخامسة...

والسبب في ذلك هو اختفاء كميات كبيرة من الجسيمات أو فنائها في الكون المعروف، وظهور جسيمات جديدة متلاحقة يعني أيضا أن كوننا يتبادل هذه الجسيمات مع كون مجاور، بمعنى أن نظرية الأوتار لو كتب لها التوفيق ستثبت وجود أكوان وليس كونا واحدا هو كوننا، ولا يستبعد أيضا وجود حياة أخرى في تلك الأكوان ولا يستبعد في الوقت نفسه أن تكون تلك الأكوان محكومة بفيزياء غير هذه التي نعرفها.

ماذا يعني ذلك؟ لقد اعترض (شيلدون لي) على ذلك بقوله: إن هذه فلسفة وليست فيزياء، والمسألة ما زالت –حقيقة- تدور بين الفلسفة والفيزياء إلى أن يتم إثبات ذلك في مختبر التجارب، أكثر من عالم فيزياء صرح بأن الأدلة على نجاح التجربة كثيرة وقوية، وإن أخفقنا فالسبب سيكون في معداتنا وقدراتنا التقنية وليس في النظرية.

سنعد "الأوتار الفائقة" فرضية وليست نظرية، أي فلنهبط بها درجة إلى الأسفل طالما أنها لم تثبت في التجربة وليست- إلى الآن- حقيقة نركن إليها في فهم الكون، فحسب هذه الفرضية فإن لدينا أكونا متعددة، فما الذي يعنيه ذلك في اللاهوت؟ وهل تقبل المسلمات اللاهوتية وجود أكوان غير هذا الكون الذي أرسل إليه المسيح وهو الرب متجسدا؟ وهل ذهب ليتجسد في كون آخر من هذه الأكوان؟ وهل رسالة خاتم النبيين ومعجزة القرآن وصلت إليهم؟ ووصلهم أن الدين عند الله الإسلام فنتوقع أن يكونوا قد عرفوا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام؟ وبلغتهم الرسالة الخاتمة؟

هذا على افتراض وجود حياة أخرى في الأكوان التي تتحدث عنها الأوتار الفائقة، فإن لم توجد حياة في تلك الأكوان، فالكل في حل من الإجابة عن تلك الأسئلة.

قد يقول قائل إن في خلق أكثر من كون واحد من معجزات الله؛ ليري الإنسان قدرته العظيمة، والحقيقة أن هذه القدرة لن تتجلى لكل إنسان لأنه لا علم لأغلبية الناس في العالم بما يتم في الفيزياء، ولن يفهموا شيئا من الأوتار الفائقة وغير الفائقة، فهي لا تعني لهم شيئا، ولا يستطيعون فهم المعجزة، ومعجزة كمعجزة ناقة سيدنا صالح عليه السلام هي أبلغ في أفهام الناس وأعينهم من معجزة خلق أكوان كثيرة، وأدل على قدرة الله وعظمته في نفوسهم لأنها أقرب إليهم وأبسط من نظريات الفيزياء التي تتحدث عنها البحوث العلمية التي تراها على شكل ألغاز مكتوبة بلغة غير بشرية عندما ترى التعبير الرياضي بالرموز لهذه القوانين والتصوير البياني لأطوال الموجات وكميات الطاقة عند الحديث عن الكهرومغناطيسية ومستوى الإشعاع الذري. وعليه فليس في خلق أكوان كثيرة إن صحت النظرية أي قيمة إعجازية، ولكن علي أن لا أطيل في طرح مثل هذه التساؤلات لأنها مبنية على فرضية ليس أكثر.

لا أشك- شخصيا- أن تكون الفرضية أو النظرية مرفوضة في اللاهوت، والسبب بسيط، لأن الأرض مهد المسيح، والأرض تقع في كوننا هذا، وقد نزلت الرسالة الخاتمة والرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم هنا على الأرض، في حين يمكن –نظريا- في اللاهوت أن تكون هناك رسالات سماوية أخرى لأقوام يعيشون في كون قريب من كوننا وأن الله عز وجل قد أرسل إليهم رسلا، مع أن كتبنا المقدسة لا تشير إلى ذلك مطلقا، ويجوز نظريا أيضا أن لا تكون هناك حياة غير هذه التي نعرفها على الأرض. وعليه؛ فالإشكالية والجدلية قائمتان حتى لو ثبتت صحة نظرية الأوتار الفائقة.

٢ - الثيرموديناميكا : القانون الثاني.

الثيرموديناميكا هي ميكانيكية انتقال الحرارة، والحرارة طاقة في المفهوم الفيزيائي، القانون الأول في الثيرموديناميكا معروف ومفهوم، ويقول: إن المادة لا تفنى ولا تستحدث، إنما تتحول من شكل إلى آخر.

ما معنى هذا الكلام؟ يفيدنا القانون الأول بأن المادة موجودة أزليا: (لا تستحدث)، وستبقى أيضا أزلية :(لا تفنى). وستظل موجود:(تتحول من شكل إلى آخر)، ويمكنك فهم ذلك ببساطة إذا أخذت قالبا من الثلج مثلا وأخرجته من ثلاجتك ووضعته في جو الغرفة الذي تبلغ حرارته ٢٠ درجة مئوية مثلا، فستلاحظ أن شكل المادة تغير، فتحول من الصلابة إلى السيولة بعد فترة من الزمن، وإذا قمت بتعريض الماء الناتج لحرارة غاز الطبّاخ في مطبخك فسوف تتحول المادة من حالة السيولة إلى الغازية (البخار)، وهذا يجري ويسري على جميع مواد الطبيعة حتى الضوء الذي طالما احتار العلماء في كُنهه، إلى أن وصولوا إلى نتيجة عظيمة في ذلك صاغها آينشتاين بعد أن ذاق ماكسويل المرار وهو يحاول اكتشاف طبيعة الضوء، على أية حال عرف آينشتاين أن للضوء طبيعتين؛ مادية (فوتونات)، وطبيعة موجية، ولم يخرج الضوء عن القانون الأول وهو ما سمي بحفظ الطاقة، لأن الضوء يتحول إلى إشعاع وحرارة في سيرورة تحول المادة من شكل إلى آخر كما ينص القانون الأول.

المشكلة التي عاناها العلم مع اللاهوت تقع في القانون الثاني وهو ما سمي بالأنتروبي، إي فقدان الطاقة، أو الطاقة المهدورة، أو اللاانتظام (الفوضى)، إذ ينص القانون الثاني أن هناك جزءً من الطاقة سيتحول –في حال تحول المادة إلى طاقة أو العكس- إلى طاقة مهدورة تسبب لا انتظام في كل منظومة كونية، وهي طاقة لاتزال في ازدياد داخل أي نظام مفتوح على غيره من الأنظمة الكونية، خذ مثلا مجرة درب

التبانة، فهي تشكل نظاما، حيث تدور الكواكب في حركة منتظمة حول الشمس، و المجرة هي نظام في حد ذاتها، لكنها نظام مفتوح بمعنى أنها تتأثر بغيرها من الأنظمة الكونية أو هي جزء من نظام شامل، ويفهم اللاهوتيون من ذلك أن الأنتروبي ستظل في ازدياد حتى يعم الكون حالة من الفوضى لا يمكن أن تبقي على أي نظام فيه مستقرا، وهو ما تقول به الكتب المقدسة عن انهيار الكون وقيام الساعة. وانتقال الحرارة (الطاقة) المهدورة هذه من جسم عالي الحرارة إلى جسم قليل الحرارة سوف يتسبب بالتعادل الحراري، وهذا بدوره يسبب موت الكون، لأن حرارة الأرض سوف تساوي حرارة الشمس في يوم من الأيام بعد أن تفقد الشمس حرارتها، وقس على ذلك بقية المجرات ونجومها، مما يتسبب في شلل في جميع أجزاء الكون. يقول فيكتور ستنجر:

"هذه الحجة كانت إحدى أقوى الحجج على الخلق حتى العام ١٩٢٩ . في هذا العام، اكتشف عالم الفلك Edwin Hubble بأن المجرات تبتعد عن بعضها البعض، والذي أشار إلى أن الكون يتوسع. قدم هذا الاكتشاف أول الأدلة على الانفجار العظيم ، ما يعني أن الكون يمكن أن يكون قد بدأ في فوضى كاملة، وما زال النظام يتكون طبقا للقانون الثاني للديناميكا الحرارية".

ويعود فكر اللاهوتيين إلى اللعب بالمفاهيم مرة بعد مرة، فقد وافق على مبدأ الانفجار العظيم بحسبانه بداية الكون التي أرادها الله في لحظة ما كما ترى، وهذا الانفجار عند الفيزيائيين يمثّل أعلى قمة للأنتروبي، فالكون يسير بالعكس، من حالة الأنتروبي العالي إلى الأقل لأن الأنظمة الكونية بدأت تتشكل بعد الانفجار العظيم وما زالت تتشكل إلى اليوم، بمعنى أن الأنتروبي في الكون مع اتساعه سيمكّن الأنظمة من المحافظة على بقائها، فمقدار الأنتروبي في النظام المغلق ثابت، والكون في اتساع، ومعنى ذلك أن الأنتروبي يقل على اعتبار أن المكان يتسع، وتصوير الفكر اللاهوتي لنتائج الانتروبي على أنها نتائج تدميرية للكون يعني أن هذا الكون نظام مغلق له حدود كالجدران يقف عندها، مع أن القرآن الكريم لم يرسم لنا نموذجا فيزيائيا للكون ويخبرنا كيف سيتحطم إنما استخدم الصورة الفنية واللغة المجازية، لذلك لا يصح

عقليا أن نستخلص من تشبيه القرآن الكريم نموذجا كونيا ونقابل به النموذج الفيزيائي الذي لا يتمتع أصلا بثات مطلق، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ، فإن ازدياد الأنتروبي سيفضي في النهاية إلى تدمير محتويات هذا الكون الذي يشبه الغرفة المغلقة في التصور اللاهوتي ، مع أن لدينا آية في القرآن الكريم يقول فيها الله عز وجل: ((والسماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لَموسعون))[1]، فالتفسير الإعجازي للآية- في حال قبلنا به- يقول بأن الكون يتسع، وهو ما لا يتفق مع النتيجة التي تنبني عند اللاهوت على الأنتروبي وهي انهيار الكون، لأن الاتساع يعني المحافظة على الأنظمة، فإما أن نصدق أن في الآية إعجازا، وعليه فنتيجة الأنتروبي اللاهوتية خاطئة، وإما أن ننفي إعجاز الآية الكريمة، ونخالف ما يجري في الواقع من توسع في الكون، أما أن نأخذ بالاثنتين معا فلا يصلح لأن ما يترتب عليهما من فهم سيكون متناقضا.

ويضيف ستنجر:

"تفشل إحدى الحجج التي كانت تستخدم للتدليل على وجود خالق مرة أخرى من الناحية العلمية . إذا كان الكون مخلوقا ، فإنه قد تطلب درجة معينة من النظام في لحظة الخلق . تندرج هذه الحجة والتي يطلق عليها " النظام في الكون " تحت قانون الديناميكا الحرارية الثاني والذي ينص على أن مجموع الأنتروبي أو الفوضى للنظام المغلق يجب أن يبقى ثابتا أو يزداد مع الوقت .يمكن تطبيق نص القانون على الكون لو كان الكون نظاما مغلقا . ما يريد أن يصل به أنصار هذه الحجة هو أن النظام في الكون تم خلقه أو منحه إلى الكون من خارج الكون بواسطة خالق ما".

يضاف إلى ذلك هروب أو اختفاء جسيمات الجرافيتون ، وتفسير ذلك فيزيائيا هو خروجها إلى خارج الغشاء الكوني ذي الأبعاد الأحد عشر التي تحدثت عنها نظرية الأوتار الفائقة، وإدوارد ويتن بشكل خاص.

---

١) [الذاريات: ٤٧]

ويصور لنا الفيزيائيون أن جسيمات الجرافيتون قد تكون مؤشرا على قدرتنا في المستقبل على الاتصال بالأكوان المجاورة إذا تم إثبات رحيل الجرافيتون إلى خارج الغشاء الكوني تجريبيا، وللتذكير أقول أن العلماء يعرفون مسبقا أنهم لن يروا الجرافيتون بل يطمحون إلى تسجيل آثار له في مختبر سرن، وهي نتيجة تترتب على إثبات صحة نظرية الأوتار الفائقة في حال تمكن هذا المسارع من ذلك في قابل الأيام. على أية حال نحن ما زلنا نتحدث عن "خيال" علمي، أو فلسفة على قول شيلدون لي.

هنا يقع الفكر اللاهوتي في تناقض مع نفسه إضافة لمناقضته لمفهوم قانون الثيرموديناميكا الثاني، ولا تنس أن في القانون الأول أيضا معضلة علمية لاهوتية حول أزلية المادة وحفظها. فالتحول من شكل لآخر لا أحد ينكره، ولكن المشكلة في استحداث المادة وفنائها، وهي مشكلة اللاهوت والعلم والفلسفة أيضا، على أنه علميا لم يسجّل أي مختبر تجارب في العالم استحداث مادة.

والمعضلة الفيزيائية تكمن في اختفاء الجرافيتون، أين يذهب بالضبط؟ أو لعله يفنى؟ مع أن كلمة (الفناء) لا تعرفها الفيزياء، فإذا كان يفنى نهائيا فإن ذلك يتصادم مع القانون الأول (حفظ الطاقة/المادة)، وهذا القانون الذي حاول أورخان محمد علي أن يفهمنا إياه في قوله : " إن الطاقة الحرارية تنتقل من الأجسام الحارة إلى الأجسام الأقل حرارة، ولا يحدث العكس. لذا يستحيل في أي منظومةSystem انتقال الحرارة من جسم درجة حرارته منخفضة إلى جسم درجة حرارته مرتفعة ما لم يبذل شغل خارجي على المنظومة. أو نستطيع التعبير عن هذا القانون كما يأتي :
(لا توجد هناك عمليات تحول في الطاقة دون ان يكون هناك تحول جزء من الطاقة إلى شكل لا يمكن الاستفادة منه)"

وانطلاقا من هذا القانون تجد معظم الفيزيائيين لا يقبلون فكرة الفناء هذه، لذا يحاولون إثبات انتقاله إلى محيط كوني آخر، على أنهم ما زالوا على مسافة من هذه المعضلة لأنهم يحتاجون أولا لإثبات وجود الجرافيتون تجريبيا، لا نظريا- فهو موجود

على الورق، وفي المعادلات الرياضية- لكي يثبتوا أن قوة الجاذبية عظيمة وليست ضعيفة كما تبدو لنا، ، فهل يمكن أن يوجد في المختبر ؟ هذا هو التحدي أمام الفيزياء قبل أن يكون تحديا لاهوتيا، ولكن إذا لم يتم إثبات وجود الجوافيتون، ولم يعثر العلماء على أي أثر له، سيعود التاريخ بهم إلى أواسط القرن العشرين، وسيعاد النظر في نظرية الأوتار الفائقة برمتها، وسنعود لنقول إن حلم آينشتاين لم يتحقق، والشك في القانون الثاني للثيرموديناميكا سيكون شكا حقيقيا، أو سيتحول من قانون إلى نظرة فلسفية للكون، لأنه يعتمد على انتقال الطاقة وهدرها على شكل عشواء مضادة للنظام، ببساطة لأن مفهوم الطاقة سيعود غامضا كما كان من قبل، وسيعود العلماء للبحث عن نظرية أخرى تجمع القوى الأربع في الطبيعة.

لم يُبْقِ أورخان الأمور في حقل الفيزياء، بل ذهب بها أبعد من ذلك، لقد وصل بالأنتروبي إلى التطور البيولوجي، وحاول إفهامنا أن الأنتروبي يتحقق في التطور ، ويطبق على الكائنات الحية التي تنهار بشكل درامي. ولكن بشكل يدل على قلة فهمه للتطور والانتخاب الطبيعي، ويسوق أقوالا لإسحق أزيموف ويناقش هذه الأقوال ليصل إلى ما يريد، ثم لماذا نأخذ بالأنتروبي وننسى القانون الأول ما دام ثابتا إلى الآن وهو: حفظ الطاقة، فإن ما تعنيه الأنتروبي من فناء وانهيار منقوض بحفظ الطاقة ، لأن فناء جثة كائن في الطبيعة لا يعني إطلاق الأنتروبي كليا، ففناء الجثة (الأنتروبي المتعلق بها) سينتج عنه نظام آخر، وهو تغذية كائنات أخرى على الجثة الفانية، ويتحول ذلك إلى طاقة في هذه الكائنات.

ولكن أروخان محمد علي جعله حماسه الشديد ضد نظرية التطور وميوله الديني الجارف جعله يتجاهل القانون الأول، ويبدو أنه ليس متخصصا في هذا المجال لأن استنتاجته يعتورها الضعف والتناقض، فلم يظهر من كلامه إلا حماسه الشديد ضد التطور وصناعة الأنظمة بالكون بدليل الأنتروبي وقد عممها إلى حد الإطلاق في الكون وذلك باختيارات مقصودة وغير موضوعية لعلماء ساق أقوالهم مجزءة، انظر رأية في "

إسحاق أزيموف "[1] ، في البداية كان أزيموف عالماً حقيقا لأنه وافق نظرته في الأنتروبي ، ، ثم انظر كيف يعود ليحارب هذا العالم لأنه حاول الدفاع عن التطور[2] ، يقول أورخان محمد علي : " هذا هو أهم مبرر وأهم محاولة للتوفيق بين قانون الأنتروبيا وبين فرضية التطور.

يقول "إسحاق أزيموف" :

"Life on earth has steadily grown more complex, more versatile, more elaborate, more orderly, over the billions of years of the planet's existence...How could that vast increase in order (and therefore that vast decrease in entropy) have taken place? The answer is it could not have taken place without a tremendous source of energy constantly bathing the earth, for it is on that energy that life subsists...In the billions of years that it took for the human brain to develop, the increase in entropy that took place in the sun was far greater than the decrease that is represented by the evolution required to develop the human brain."

أي: (لقد تطورت الحياة على الأرض - ضمن بلايين من سنين وجودها - بشكل مطرد وراسخ نحو زيادة في التعقيد والتنوع والإتقان والنظام ...كيف تسنى حدوث مثل هذه الزيادة الكبيرة والواسعة في النظام (أي حدوث نقصان كبير وواسع في الأنتروبيا)؟ والجواب على هذا هو أنه ما كان بالإمكان حدوث هذا (التطور) لولا وجود مصدر هائل للطاقة التي تغمر الأرض بشكل دائم . ذلك لأن الطاقة هي التي تمد الحياة بأسباب البقاء والاستمرار...وفي خلال البلايين من السنين التي استغرقها الدماغ الإنساني لكي يتطور كانت زيادة الأنتروبيا في الشمس أكبر بكثير من نقصان الأنتروبيا الذي يمثله التطور المطلوب لارتقاء الدماغ الإنساني)[3].

إذن؛ فهذا هو التفسير الذي يقدمه(إسحاق أزيموف) لحدوث التطور في الأرض (أي حدوث زيادة في النظام) على الرغم من وجود قانون الأنتروبيا (الذي يعني تناقص دائم

---

١) "**مناقضة علم الفيزياء لنظرية التطور**". أورخان محمد علي. انظر ص٩و ص١٩ ، حيث يشيد بعلم أزيموف. ثم يعود وينسبه إلى الجهل والكذب.

٢) المصدر السابق ص ٢٥

٣) المصدر السابق ص ٣٥

في النظام) ويتلخص التفسير في أن الأرض نظام مفتوح تأتيه الطاقة من الخارج بشكل دائم.

وأن مجيء الطاقة من الشمس يؤدي إلى زيادة الأنتروبيا في الشمس (أي زيادة في الفوضى)كما يؤدي إلى نقصان الأنتروبيا في الأرض (أي زيادة النظام فيها). ولكنه يؤكد فيقول إن كمية زيادة الأنتروبيا في الشمس أكبر بكثير من نقصان الأنتروبيا في الأرض، أي إننا إذا أخذنا حاصل ونتيجة العمليات في الشمس والأرض لوجدنا أن المجموع الكلي يشير إلى زيادة في الأنتروبيا .

وهكذا يحسب (إسحاق أزيموف) أنه حل المعضلة، وحل التناقض الموجود بين قانون الأنتروبيا وبين التطور، فمع أن الأنتروبيا تزيد في الكون إلا أن التطور يحدث في الأرض على الرغم من ذلك لأن النظام فيها مفتوح وتصلها الطاقة من الخارج.

أليس هذا حلا علميا رائعا ؟

كلا ....مع الأسف !

بل إن الإنسان ليعجب أشد العجب من محاولة الخداع والغش العلمي الذي يمارسه هذا العالم المعروف ، وهو يعلم علم اليقين أن ما يقوله ليس صحيحا وليس علميا على الإطلاق "[1]

لم يفسر أورخان لماذا لا يعد هذا كلاما علميا، ويعده من الغش والخداع العلمي، وأنه كاذب لأنه يعلم أن الحقيقة خلاف ذلك! وإن تعجب فعجب من قول أورخان هذا.

فما يسمّى تطورا في البيولوجيا ما هو إلا اختلاف في بنية الكائن الحي، وزيادة في الأنواع، لا يزيد معنى التطور البيولوجي عن ذلك، لكن أورخان يفهم التطور كما فهمه اللاهوتيون من قبل من أنه يسير في خط تصاعدي باستمرار اتفاقا مع فهم بندلي في اللاهوت المسيحي للتطور، وينسون أن الانتخاب الطبيعي قد يرتد بالكائن إلى الخلف ويتسبب في موته نتيجة تطور عضو غير مناسب للبيئة لأنه كما قال البيولوجيون أعمى، وهو بالتالي نظام مضطرب أصلا لا منتظم كما يعتقد أورخان، الذي يحاول رمي أزيموف بالجهل من هذه الجهة. والحقيقة أن التوقف كثيرا عند أورخان ومفهومه

---

١) المصدر السابق ص٣٦.

للتطور لا يستحق الكثير من الوقت والجدل، لأن هناك بدهيات يتجاوزها ليثبت قوله، فحصر الأنتروبي في نظام مغلق بين الشمس والأرض هو عين المغالطة لأنهما لا يشكلان نظاما مغلقا حتى نحكم بازدياد الأنتروبي بينهما حتى نصل إلى ضحد التطور بهذه الصورة الساذجة للغاية.

سواء صدر هذا التفسير عن أزيموف أم عن غيره. هذا من ناحية ، والناحية الأخرى أنه جرد الكون من الثقوب السوداء وتأثيرها في الأنتروبي، ولأسأل أورخان هذا السؤال؟ ما هي الميزة الكبرى للثقوب السوداء؟

ألا تعد مصدرا هائلا للجاذبية أو مركزا لها؟ حتى أن الضوء لا يستطيع الإفلات من الثقب الأسود، أي إن الثقوب هذه قادرة على جذب الضوء وامتصاصه داخلها، وهي مصدر أيضا كالنبع الذي يصدر الجسيمات الكونية، والعلماء يعدون الثقوب السوداء مصدرا يمد الكون بالطاقة، فهو ينثر الجسيمات تحت الذرية في الفضاء، وهذه الجسيمات تدخل في تفاعلات وتساهم مرة أخرى في إعادة الطاقة ومدّ الكون بالمادة/الطاقة المظلمة في نموذج شتاينهارد وتوروك.

في مقالة لحمدي الراشدي يقول[١]:

" ... من المثير أن باحثي معهد (Massachusetts –MIT) التكنولوجي في الولايات المتحدة الامريكية راقبوا أحد الثقوب السوداء لفترة طويلة ليظهر أنه مستقر للغاية، الأمر الذي أثار التباسهم. الجسم الفضائي المسمى GROJ1655-40 ، تم اكتشافه عام ١٩٩٦، وإلى عام ٢٠٠٥ تم مراقبته لمدة ٥٥٠ ساعة. لايوجد أي ثقب أسود حصل على الاهتمام نفسه. المراقبة أعطت نتائج مثيرة ومعلومات غيرت الصورة عن الثقوب السوداء

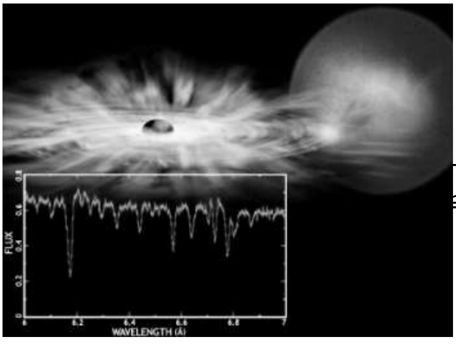

١) حمدي الراشدي. موقع الذا

من حيث إن الغاز موجود دائما حول الثقب الأسود ومن حيث إن الغاز يأتي من المدارات القريبة إلى الثقب الأسود مطلقة الأشعة الرونتغينية بكميات مختلفة ارتباطا مع حركتها وتغييرها لمسارها، يخلق ذلك فرصة لملاحظة التغيير ودراسته. الأشعة الرونتغينية تتغير موجاتها طبيعيا من يوم إلى آخر، بسبب أن الثقب الأسود فوضوي، غير أن موجات GROJ1655-40 حافظت على مستوى موجاتها خلال التسع سنوات من المراقبة، الأمر الذي يدهش الباحثين ويحيرهم. هذا الثقب الأسود يتصرف بالعكس عن بقية الثقوب المعروفة، إنه يحافظ على النظام عوضا عن خلق الفوضى".

وهذا الثقب كما ترى من كلام الراشدي يحافظ على النظام بدلا من إشاعة الأنتروبي التي ينتظر منها اللاهوتييون أن تكون بداية لانهيار الكون وقيام ساعة الحساب .

شتاينهارد وتوروك يعترضان على النموذج القياسي للكون الذي بدأ بانفجار عظيم وهي الفكرة السائدة واعتراضهما له وجه حق، يقول آلان وودز:" يضيف شتاينهاردت: "في الصورة النوذجية، من المفترض أن الضربة الكبرى هي بداية الزمن و المكان؛ و أنه كان هناك عدم، وبعد ذلك فجأة ولد من العدم المكان الزمن، المادة، و الإشعاع، إلخ." وهذه الطاقة المظلمة هي التي تدفع بالمجرات بعيدا عن بعضها، في تسارع مقيس ومثبت بالتجربة، ويضيف وودز :

"يقول بول شتاينهاردت متحدثا للبي بي سي : " في النهاية ، يبدأ الحقل بإنشاء الطاقة إلى نقطة حيث تصبح غير مستقرة و فجأة تنفجر مكونة المادة والإشعاع، فيملآن

الكون، ويفتتحان فترة تالية للتوسّع." وينتهي نموذج شتاينهارد وتوروك للكون بأن الانفجار العظيم الذي طالما عده العلماء بداية للكون ما هو إلا مرحلة من سلسلة مراحل يمر بها الكون وتقع في أماكن كثيرة منه، وهي ما زالت تمد الكون بالطاقة بعد أن تنكمش ثم تنفجر وهكذا في عملية لا نهائية.

بمعنى أن الطاقة المهدورة التي يتحدث عنها أورخان هي مهدورة في مقاييسه، لأنه عندما لخص القانون الثاني للثيرموديناميكا قال لا يمكن أن يتم تحول المادة إلى طاقة أو العكس لا بد أن يكون هناك جزء من الطاقة مهدور لا يمكن الاستفادة منه. وفي حسابات شتاينهارد فإنه لا وجود لطاقة مهدورة، لأنه هذه الطاقة تتجمع في المادة المظلمة وتبقى في الكون لتشكل في النهاية المادة المظلمة التي بدورها أيضا قوة دفع للمجرات على الغشاء الكوني باتجاهات متباعدة عن بعضها، وأن انكماش هذه الطاقة يمكن أن يؤول بها إلى نقطة صغيرة تنفجر مرة بعد مرة، وبذلك فالانفجار العظيم لا يمكن أن يكون هو بداية الكون لأن ذلك يتطلب إلغاء للزمان والمكان قبله، فما الذي حدث في الدقائق الأخيرة قبل الانفجار العظيم؟

يقول شتاينهارد هذا السؤال ليس له أي معنى على اعتبار أن الانفجار العظيم هو بداية الكون لأن الزمان لم يكن موجودا قبله، وهو عيب مخل في اعتبار الانفجار العظيم بداية للكون. ويقول شتاينهارد أيضا : "في هذه النقطة من الرحلة،تكون جزيئات المادة متناثرة- وتبتعد عن بعضها البعض بسرعة كبيرة- بحيث لا يمكنها التفاعل و عمليا تتفرق إلى اكوان مستقلة. يدعو شتاينهاردت وتوروك مرحلة شبه الفراغ هذه " الانطواء العظيم ".

يثير الفراغ الطاقة المظلمة فتتجسد مادة وإشعاعا من خلال انفجار عظيم آخر، ينعش دورة او مرحلة التوسّع."[١].

ويقول أيضا في حديثه للبي بي سي المشار إليه أعلاه : "ما نعرضه في هذه الصورة الجديدة هو أنّ الانفجار العظيم ليس بداية الزمن وإنما في الحقيقة هو آخر ما في

---

١) المقالة منشورة في (National Geographic News عدد ٢٥ . أبريل/ نيسان ٢٠٠٢)

سلسلةٍ لانهائيةٍ من المراحل، مر خلالها الكون بفترات من الحرارة والتوسّع، والرطوبة، و الركود، و الإفراغ، وبعد ها عاد ليتوسّع ثانية و هكذا."[١]

ومما يثبت هذا أو يدعمه هو ولادة النجوم من الثقوب السوداء، إذ يذكر الراشدي في مقالته التي اقتبسنا منها النص السابق، إن نجوما من النوع الثقيل وجدت قريبة من ثقب أسود كان محلا للمراقبة من التلسكوبات الأوروبية، واستنتج العلماء أن هذه النجوم تتكون من الغبار الفضائي والغازات المتجمعة قريبا منه، ولم تكن مجذوبة من قِبَله ، لأنه لم يكن من بينها نجوم خفيفة كما هي العادة حول الثقوب السوداء، وهي في طريقها إلى الابتلاع.

ووجود هذا النوع من النجوم أدى إلى فهم أن سبب ولادة هذه النجوم هو الثقب الأسود، ثم يقول: " غير أن هذه الفرضية تجلب معها مشكلة يجب توضيحها. من أجل أن تتمكن هذه النجوم من القيام برحلة مقدارها ١٠٠ سنة ضوئية يجب أن تكون هذه المجموعة تتضمن أعداد كبيرة من الأجسام الكونية وتحتوي على مئات الآلاف من مايسمى النجوم الخفيفة. وبالنظر إلى عدم وجود نجوم خفيفة بين أعضاء المجموعة بالتالي لايمكن أن تكون قد جاءت من مسافات بعيدة. علماء ناسا يعتقدون أنها نشأت من الغاز والغبار الذي يحيط بالثقب الأسود نفسه."[٢]

ويقول بول ديفز:

"ما إن نقبل وجود منشأ للزمن، يتضح أن السؤال المطروح: "ما الذي حدث قبل الانفجار الكبير؟" خالٍ من المعنى. لا توجد حقبة "قبل الانفجار الكبير"، لأن الزمن قد ابتدأ مع الانفجار الكبير. إننا، للأسف، غالبًا ما نجيب عن هذا السؤال بالملاحظة الجوفاء: "لم يكن هناك شيء قبل الانفجار الكبير"، الأمر الذي يؤدي إلى الكثير من الأفكار المغلوطة. لقد فسَّر الناس الـ"لاشيء"، في هذا السياق، على أنه مكان فارغ؛ ولكن،

---

١) للأسف لم يذكر ألان وودز تاريخ نشر التقرير على محطة البي بي سي. لكنه يشير في بداية الكلام أن شتاينهارد وتوروك نشرا بحثهما في مجلة : science المعروفة على مستوى العالم كله.

٢)حمدي الراشدي. موقع الذاكرة. الفيزياء الكونية: الثقوب السوداء.

كما تبيَّن لنا من الكلام السابق، لم يكن المكان موجودًا قبل الانفجار الكبير، مثله كمثل الزمن. هل تدل كلمة "لاشيء" هنا، إذن، على شيء أدق، أشبه بمكان قَبْلي، أو بحالة مجرَّدة ما قد يكون المكان انبثق منها؟ لا. فكما أشار الأستروفيزيائي الإنكليزي ستيفن هوكنغ نفسه على سؤال: "ماذا يوجد شمال القطب الشمالي؟" يمكن لنا أيضًا أن نجيب: "لا شيء"، ليس لأن هناك أرضًا ما غامضة قوامها "لاشيء"، بل لأن المنطقة التي نشير إليها غير موجودة أصلاً. إنها عديمة الوجود، ليس فيزيائيًّا فحسب، بل ومنطقيًّا أيضًا. والأمر نفسه ينطبق على الحقبة التي سبقت الانفجار الكبير. إن هذه المرحلة، بالتعريف، غير موجودة. وبالتالي، فإن السؤال حول ما حصل فيها هو سؤال فارغ من المعنى بقدر فراغ السؤال حول شمال القطب الشمالي."[1]

وخلاصة الكلام هنا في قانون الثيرموديناميكا الثاني أنه كان موقعة خسر الفكر اللاهوتي فيها سجالاً آخر في حربه الدائرة على مستوى العلوم الفلكية والفيزيائية التي ما كان عليه أن يدخلها ، لأن منهج الحوار اللاهوتي غير مستقيم، ويقوم على اجتزاء الحقائق أو الأقوال أو الأفهام المغلوطة للنظريات أو الحقائق العلمية مرة، وتزويرها بقصد مرة أخرى من أجل الحفاظ على مواقعه، وثوابته، وهي كما أحسب جدلية لن تنتهي ما دام يمتلك اللاهوت الأداة ذات القدرة على ممارسة الخديعة الخفيّة؛ وهي اللغة، لأنه هو الراعي الأول لها، وهو الذي يتصرف بها كيفما شاءت الأحوال وتغير أمور العلم، فكما رأينا كيف تلاعب اللاهوت المسيحي على يد بندلي في التطور، نرى أورخان يتلاعب بالثيرموديناميكا كي يثبت أن يوم القامة سيقع فيزيائيا وفلكيا، ثم يعود ليثبت انهيار نظرية التطور، ولكن للأسف... بسذاجة[2]، وحتى لو أن العلم عارض ذلك وأثبت عكسه كما قال شتاينهارد من أن الكون لا نهائي ولا بداية له.

---

١) "ما قبل الانفجار العظيم ". بول ديفز. ترجمة: ليلى نشواتي. موقع الذاكرة. وفي كتابه: "**الله، والعقل**، والكون". يشرح بول ديفز بإسهاب نموذج هوكنغ وهارتل بوضوح، وبخاصة لحظة ميلاد الزمان والمكان. انظر الكتاب المشار إليه . ص ٦٨- ٦٩.وخلاصة فكره أنه تحول إلى اللاأدرية بعد أن كان ديفز ذا ميول لاهوتية غير واضحة في تفسير نشأة الكون.حيث صدر كتابه الأخير سنة٢٠٠٧.

٢) التفكير الأعوج يوّلد مخاطبة عوجاء. انظر : التفكير المستقيم والتفكير الأعوج.روبرت ثالوس.ص ١٢.

إلا أن اللاهوتيين عن طريق المناهج اللغوية وتحليل النصوص الثابتة لديهم، وما يسمى بإعادة قراءة النص سيبقون على النص حيا ولكن للأسف بشكل مشوّه ، لأنهم في كل حين يذهبون عندما يحشرون في زاوية يصعب عليهم الخروج منها إلى تأويل النص أو تحويله إلى رموز، ويتركون ظاهر النصوص كي تتلاءم مع المعطى العلمي الذي يعارضهم بقوة لا مناص من التهرب منها، وهذا ملاحظ بشكل كبير فيما سمي بالإعجاز العلمي حديثا.

ثانيا-أخطاء علمية في التصورات اللاهوتية للكون.

لأبدأ بمقولة للفيزيائي ستيفن هوكنغ وهو من هو في هذا العلم، الجميل أنه يتحدث في فلسفة الكونيات أيضا، يقول :

"تقول نظرية الانفجار الكبير بأن منشأ الكون الذي نعيش فيه هو تلك اللحظة الفريدة، عندما أدت "تقلُّبات كوانتية"، دون سبب مسبَّق، إلى ظهور زمكان، بطاقته ومادته اللتين نرصدهما اليوم. قبل ذلك، لم يكن يوجد "أي شيء"، مثلما لا يوجد أي شيء في شمال القطب الشمالي! يكون الزمن، بحدِّ ذاته، منتهيًا، ولكن ليس له منشأ، بما أنه قد اتخذ بالتدريج الخصائص التي يتصف بها الآن، مستغنيًا عن الخصائص المتعلقة بالأبعاد المكانية. إن علماء الفيزياء، في محاولة منهم لإيجاد السلسلة التفسيرية للعالم، ينطلقون من قوانين الفيزياء التي يطرحونها على أنها لازمنية و"خارجة" عن الكون، غير أن طبيعتها العميقة هي موضع بحث يؤول إلى أهل الميتافيزيقا".

سأضع مقابل قول ستيفن هوكنغ نص مقتبس من "العقيدة الإسلامية من منظور الإمام الخميني" لتقارن بين كلام الفيزيائي وأحد أعظم اللاهوتيين في المجتمع الإسلامي المعاصر، وهو الخميني، يقول آية الله الخميني والكلام على ذمة الشيخ إبراهيم الأنصاري شارح كتابه:

"الرؤية الكونية: هي مجموعة من المعتقدات و النظريات الكونية المتناسقة حول الكون و الإنسان، بل حول الوجود بصورة عامة.**ثم لا يخفى أن القوّة المُحرّكة للرؤية الكونية هي أمرٌ واحد وذلك الأمر هو القُدسيَّة والرّوْحانية المتواجدة فيها ، فلو لم تكن لتلك الرؤية الكونية قدسِيَّةً لا يمكنها أن تنجح و لا يمكنها أن تكسِب أُناس يتبَنَّونَها** ، لماذا؟ ... لأنّ الرؤية الكونية تريد ترسيم خط للإنسان بحيث تجعله يفعل شيئاً ولا يفعل شيئاً آخر وتريد منه أن يسير طِبْق مقرّرات وطِبق نظام خاص." [1]

---

١) العقيدة الإسلامية من منظور الإمام الخميني(التوحيد) بقلم الشيخ إبراهيم الأنصاري.ص٢

لاحظ أنه (لا يخفى) –حسب قوله-   أن الرؤية الكونية تقوم على قوة قدسية روحانية متواجدة فيها. لكن بالنسبة لي فإن الأمر خافٍ خلافا لقوله : لايخفى. أما بالنسبة لك فلا أعلم فقد يكون الأمر غير خاف عليك، وقد اطلعت على الغيب الذي يتحدث عنه ورأيت أن النظرة الكونية التي يتحدث عنها تحركها القدسية والقوة الروحانية حسب تعبير آية الله الخميني، وليست قوانين فيزيائية.

من الكلمة الأخيرة في اقتباس هوكنغ يبدأ عمل اللاهوت وهي (الميتافيزيقا)، وأنا في هذا الجزء سأعكس المنظور الذي قدمته في الفصل السابق حيث كنت أضع اللاهوت قاضيا على العلم، الآن سأطرح مناطق جديدة للنزاع، وأجعل العلم هو القاضي على اللاهوت، أي فلنقلب زاوية النظر للأمور، فنجعل اللاهوت تحت الاختبار وليس العلم.

قلت قبل أسطر أن عمل اللاهوت يبدأ من الكلمة الأخيرة لهوكنغ وهي الميتافيزيقا، ولكن ما هي الميتافيزيقا؟

يقول جواد البشيتي في مقالة "بين الفيزياء والميتافيزيقا": :إنّ "النقطة المفردة" هي "العدم" Nothingness الذي بفضل "الانفجار الكبير" وعبْره تحوّل إلى "وجود" و"مادة". "لقد انفجر العدم فخُلِق الكون"!

هذه هي الميتافيزيقا تماما، الخلق من العدم، وهي النظرة الخاطئة التي يتصورها اللاهوت عن الكون، لأنه يعتقد أن النقطة الأولى التي انطلق منها الكون كانت سابحة في الفضاء، وقرر الله أن تنفجر في لحظة ما. والخطأ في الفكر اللاهوتي هنا مركب، وذلك أنه قبل بفكرة الانفجار العظيم منذ البداية، ولكنه رفض ما يترتب عليها، وأكرر مرة أخرى أن ذلك أتى من إقحامه للنص المقدس في الفيزياء ووقع معها في عراك كان في غنى عنه منذ البداية.

سأعود لاقتباس هوكنغ لتوضيح المسألة وبيان النموذج الكوني، والمغالطة اللاهوتية في الفهم، لقد قدم هوكنغ وهارتل نموذجا لميلاد الزمان والمكان، أي إنه لا شيء موجود قبل الزمان والمكان، وهذه لازمة طبيعية لمبدأ الانفجار العظيم الذي يعوّل عليه اللاهوت كثيرا في خلق الكون من نقة بداية ، لكن هوكنغ يقصد عندما يقول:

ماذا يوجد شمال القطب الشمالي؟! لا شيء طبعا. ماذا كان يجري قبل الانفجار؟ كيف كان الزمان يسير؟! هذه أسئلة ليس لها أي معنى. سأحاول فيما يلي رسم نموذج هوكنغ وهارتل للكون على مشقة في الرسم لأنني لا أجيده لا بالقلم ولا بالحاسوب، علما أنه مبني على تصور فيزيائي محدود بما وصل إليه هذا العلم حتى اليوم، ولا يعني ذلك أن هذا النموذج هو النهائي والصحيح الذي لا يأتيه الباطل.

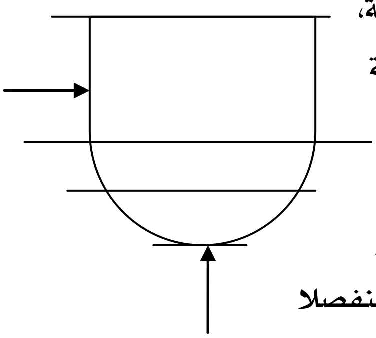

السهم الصاعد من الأسفل يشير إلى نقطة البداية، الخط الأفقي فوق رأس السهم مباشرة يمثل لحظة الانفجار، وتلحظ أن الزمان والمكان لم يكونا قد انفصلا بعد، أي إنهما شيء واحد
الخطوط الأفقية تمثل المكان بعد حدوث الانفجار متناسبة مع مسيرة الزمن التي بدأت تأخذ شكلا منفصلا مستقلا عن المكان وهي حدود المخروط التقريبي الذي تراه الذي يشير إليه السهم الأفقي من جهة اليسار وما يقابله طبعا على الطرف الآخر. الشكل الإجمالي يبين انتشار المادة وتشكل الفضاء، لأن الفضاء لم يكن موجودا قبل الانفجار، لسبب بسيط هو أن الفضاء لا يعني فراغا يسكن فيه المهندس الأعظم. بل هو المادة أو الطاقة السوداء في الكون، التي كانت في حالة انكماش كامل، وبعد الانفجار صار عبارة عن غشاء، وحسب نظرية الأوتار الفائقة التي تحدثنا عنها قبلا يحوي هذا الغشاء على المستوى الكمي أحد عشر بعدا حسب إدوارد ويتن.

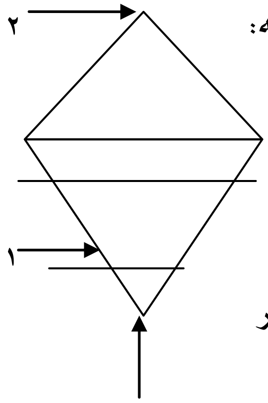

وهنا النموذج حسب التصور اللاهوتي للكون ، علما أنه: لم يأت في القرآن الكريم . تأمل الشكل المجاور.
السهم الصاعد من الأسفل يشير إلى النقة البدائية وهي عبارة عن تكثف كبير للمادة فقط ويحيط بها الفراغ وهو تصور اللاهوت للفضاء، أي إن هذه النقطة تسبح في الفراغ (الفضاء)، السهم ١ من اليسار يشير إلى الزمن. الخطوط الأفقية تشير إلى المكان.

السهم ٢ يشير إلى نقطة نهاية الكون. لنقارن الآن بين النموذجين، وأرجو منك عند المقارنة أن تعود إلى الشكلين وتنظر فيهما لتلاحظ الفرق:

١ - في نموذج هوكنغ النقطة الأولى هي كل شي.

٢ - في النموذج اللاهوتي النقطة الأولى سابحة في الفضاء، أي أنها محتواة داخل مادة يسمونها "الفراغ".

٣ - انفصال الزمان عن المكان في نموذج هوكنغ بدأ بالتدريج مع تشكل الأنظمة الكونية.

٤ - انفصال الزمان عن المكان في النموذج اللاهوتي بدأ فجأة (لاحظ زاوية المثلث من الأسفل).

٥ - النموذجان يتفقان على تقاطع المكان مع الزمان والفرق في البداية فقط بينهما.

٦ - خارج حدود النموذج اللاهوتي يسكن في مكان ما منه مهندس الكون.

٧ - حدود نموذج هوكنغ قد يكون بداية لحدود كون آخر، وليس هناك شيء اسمه فراغ (فضاء) يسكن فيه أحد.

٨ - الانفجار في النموذج اللاهوتي عائد إلى مشيئة الله، الانفجار عند هوكنغ عائد إلى عشوائية الحركة في المستوى الكمي.

٩ الكون في النموذج اللاهوتي محدود بحدود المثلث ومنته بنقطة بناء على **تزايد معدل الأنتروبي في الكون.** (الجملة الأخيرة بالخط الداكن وظّفها اللاهوت بطريقته المزاجية من فهمه الخاص للفيزياء الحديثة.)

١٠ -الأنظمة في الكون عند هوكنغ غير محدودة ولا نهائية لأن الأنتروبي تزداد في مكان وتنقص في مكان آخر، وحركة تشكل أنظمة جديدة محتملة جدا.

١١ -النموذج اللاهوتي لا يفسر وجود الأنظمة في الكون إلا بإرادة الله.

١٢ -نموذج هوكنغ يفسر وجود الأنظمة بتناقص معدل الأنتروبي منذ لحظة الانفجار.

وهناك نقاط أخرى يمكن إضافتها بين النوذجين لكن حسبي ما وضعت لك هنا، وسأقف عن النقاط الجوهرية في هذه الموازنة.

أولا- النقطة رقم ٢ ، تم إثبات مناقضتها للحقيقة رسميا، أي إن الفضاء ليس فراغا، وهناك دليلان علميان مجربان رسميا؛ الأول تفسير آينشتاين للجاذبية بالنسبية العامة، وتفسر تفاصيل أبعاد الغشاء الكوني بنظرية الكم. وانتهى الأمر.

ثانيا- تم إثبات أنه لاشيء يسمى فراغا في الكون؟ وعليه فمهندس الكون العظيم لابد أن يكون خارج الفضاء في مكان بعد اللانهاية. وهو مكان خرافي غير موجود لحد هذه اللحظة.

ثالثا- ميكانيكا الكم الثابتة علميا تؤكد اختلاط الزمان بالمكان في المستوى تحت الذري، وانعدام معرفة الاتجاهات، في اللاهوت يفسر النموذج انفصال الزمان عن المكان فجأة أي بقرار، وهذا لو كان متحققا بالفعل والحقيقة أنه لا يمكن أن يكون، فإنه راجع لطبيعة عشوائية احتمالية خلافا لما قال آينشتاين "إن الله لا يلعب النرد"، وتصديقا لهايزنبيرغ ، وتذكر أن هوكنغ أكد عدم صحة مقولة آينشتاين في المختبر والتجارب في المستوى الكمي. وتذكر أن آينشتاين صرح بأن الخطيئة الكبرى التي ارتكبها في حياته هي إضافة الثابت الكوني.

تكفي هذه النقاط الثلاث لكي تستطيع التمييز بين النوذجين، وتؤهلك للحكم بأيهما يمكن أن تثق، على أنني تجنبت أي نتيجة أو نموذج مبني على نظرية الأوتار الفائقة لأنها لم تثبت لحد هذه اللحظة في المختبر، أما ما سقته لك من كلام على نظرية الكم فهو حقيقي ومجرب ومضمون النتائج ومرتكز على حقائق لا على فلسفة أو توقعات.

إجمالا: النموذج اللاهوتي مبني على تشويه اكتشاف هابل بالميتافيزيقا، ونموذج هوكنغ مبني على حقائق فيزيائية محضة وتجارب تم التثبت من صحة نتائجها، دون أن تلعب الميتافيزيقا دورا فيها.

الآن أترك الحكم إليك، أما أنا فدعني أختار لنفسي فهم هوكنغ ونموذجه، مع عدم إغفال جهود هارتل أيضا في هذا النموذج، على أية حال سأستشهد بمقولة جميلة لكارل ساغان حيث يقول: لا تستطيع أن تقنع المؤمن بأى شيء، فإيمانه لا يستند على أدلة، وإنما على حاجة ماسة للإيمان.

والحقيقة إن العبارة عميقة المعنى، فنحن - كما يرى ساغان - في حاجة إلى الإيمان، وحاجتنا الروحية الماسة هذه، هي التي تصور لنا غير المعقول معقولا، والمستحيل ممكنا. لذلك لا عجب إذا آمنا بما لا يمكن أن يكون حقيقيا، ولا دليل على صحته.

سأقف هنا عند المغالطات في الفهم اللاهوتي للنموذج الذي استنتج العلماء منه أن الكون بدأ بانفجار عظيم وأضاف اللاهوتيون على ذلك الاكتشاف أن الانفجار أراده مهندس الكون الذي كان يقف في أعلى البرج في مثال توماس إكويناس إذا ما زلت تذكره، واكتشاف هابل هذا مؤرخ رسيما بسنة ١٩٢٩ بعد رصد انزياح الأشعة التي كان يتلقطها تلسكوبه عن طيف الأشعة الحمراء بدرجات مختلفة، الأشعة الحمراء كانت هي معيار الفصل بين البعيد والقريب والسرعة التي يتسع فيها الكون، وثبت أيضا بهذا المعيار أن السرعة في أرجاء الكون ليست ثابتة، بل تتسارع أي تزداد حسب المكان الذي ترصد منه الجسم المتحرك، وساعد ذلك في فهم تسارع حركة الأجرام السماوية وفي انطلاقها في اتجاهات متعددة، ومنه استنتج العلماء وجود انفجار صدرت عنه المادة، إلى أن وصل الأمر لتفسير علاقة المادة بالزمان والمكان. سأسجل فيما يلي ملاحظات بعد تأمل الفهمين: الفيزيائي واللاهوتي:

أولا- لا يعتمد اللاهوت على ما يسمى بالتجريب الذي ما هو إلا امتحان للنظرية، والعلم يفعل بكل تأكيد، لذا فالعلم يقدم حقيقة، واللاهوت يقدم فهما ما لجملة مكونة من كلمات مترابطة حسب نظام اللغة، مكتوبة في كتاب موروث من جيل إلى جيل.

ثانياً- العلم موافق في طبيعته للطبيعة الكونية من حيث حركة الزمن. اللاهوت يعاني من وقوف إجباري في لحظة تاريخية عندما سجلت العبارات المقدسة على الحجارة وأوراق الشجر ثم ساعده العلم على وضعها في كتب مطبوعة بعد اختراع الطباعة الآلية، أي لم يكن اللاهوت بقادر على نشر كتبه إلا لما مكنه العلم من ذلك. من هنا يقع اللاهوت في مغالطات مع نفسه عندما يريد تحديث فهم العبارات التي نزلت إلى العباد في زمن ولى أدباره وحل محله زمن جديد. وإن لم يقم اللاهوت بهذا العمل فإن كتبه ستتحول إلى كتب تاريخ فقط ولن تعود كتب دينية بعد ذلك. من هنا فحياة الدين مرهونة بأفهام

الأشخاص وتفسيراتهم المتعددة وأنظارهم وثقافتهم في تحديث فهم العبارات اللاهوتية كي تناسب هذا الزمن، وهي عملية تنحو بالدين من حالة الموت السريري إلى إنعاش كي يتوافق والمعطى العلمي. وليست هذه العملية بسيطة، بل تنطوي على مغامرات كثيرة قد لا تحمد عقباها.

ثالثاً- يعاني العلم من فقدان حاد لما يسمّى الحاجة الروحية، ولا يقدم حيالها شيئاً ولا يؤخّر، والإنسان بطبعه في حاجة لها، وهي حاجة مبررة بيولوجياً. مع ذلك ليس في جعبته شيء منها، بمعنى لا يقدم أكثر من تفسير وجودها.

رابعاً- يعاني اللاهوت من مشكلة حقيقية وهي اعتماد خصمه على المحسوس واعتماده هو على اللغة وحدها وأدوات تأويلها، والإنسان بطبعه ميال إلى تصديق ما يستطيع معاينته أو ما يستطيع التأكد بأحاسيسه من مصداقيته، لذلك تكتسب العلوم الطبيعية قوة هائلة في مواجهة اللاهوت الذي كثيرا ما يحتاج إلى التأويل والترميز كي يخرج نفسه من مواقف حرجة.

خامساً- وهو الأسوأ أن اللاهوت أحيانا يلجأ إلى الأضاليل والأكاذيب عن سبق إصرار لتمرير عباراته وما يسميه " حقائق" أو أسرار الله في الكون.

سادساً- التلاعب المقصود المحتمل في اللغة لتأييد ما يذهب إليه، وقد مررت بذلك فيما مضى ولكن سأطرحه هنا في مضمار العلم لا في الموضوعات الإنسانية، وهو مطبق بشكل كبير جدا- بخاصة :التطور الدلالي- فيما يسمى بالإعجاز العلمي، وسأمر به في الفصل القادم.

النقطتان الأخيرتان - أقصد الخامسة والسادسة- تحتاجان مني إلى برهان وأمثلة كي لا أكون متعسفا في إلقاء التهم على اللاهوت، فأنا شخصيا لست متحاملا على اللاهوت، بل أدعي أنني موضوعي، لذلك علي أن أثبت كلامي هذا وإلا فسأفقد الثقة

بنفسي قبل أن يفقدها قارئ كلماتي، ولكن على القارئ بالصبر والاحتمال، لأنني أعرف مسبقا أن كثيرا من كلامي سيلاقي معارضة شديدة ولكن تأكد أن معارضتك لكلامي نابعة من عاطفة وجدانية جارفة تربيت عليها، وعزائي أني أقدم حقائق موثقة ولا أتقول على أحد ما لم يصدر عنه وهو في كامل قواه العقلية، وليكن الفصل التالي هو موضوع البرهنة على ما قلت وإثباته.

لكن لا بأس سأعرض لك نقطة واحدة يظهر لك فيها تناقض اللاهوت مع نفسه منطقيا من ناحية وعلميا من ناحية أخرى، وسآخذ نصا من كبير القوم، آية الله الخميني وهو من هو كما تعلم في اللاهوت الإسلامي ، يقول :

"نستنتج بأن التوحيد يمتلك خصوصيتين:

- أحدُهما رؤية كونية وفهمٌ كوني متكامل.
- وثانيهما أنه هدفٌ وقضية مقدّسة للإنسان.

من خلال ما ذكرنا نصل إلى نتيجة مهمة جداً وهي: **أن هناك ارتباطا وثيقا بين الرؤية الكونية الإلهية والأيديولوجية الإسلامية ، وهذه الخصوصية لا نجدها في أي مدرسة من المدارس المادية وحتى المدارس الأخرى التي تدَّعي أنّها إلهية كالمسيحية واليهودية وغيرها**"[1]

لاحظ أنني وضعت الكلام الذي أريد التعليق عليه بخط داكن، ماذا تفهم من هذا الكلام؟

بالنسبة لي فأنا لا أستطيع فهم أكثر من تهمة صريحة يوجهها القائل لله، تعالى عن ذلك علوا كبيرا، لأن الله- عنده- قد وضع خصائص مهمة جدا للمسلم، وترك عباده الآخرين الذين أرسل إليهم رسلا وكتبا مقدسة بلا هذه الميزات، فالله –في منظور الخميني للتوحيد- حرم أولئك الناس من الارتباط الوثيق بين الرؤية الكونية الإليهة، وأيدولوجياتهم، لأنه قصر هذه الرابطة على الأيدولوجية الإسلامية فهذه الميزة كما يقول لا توجد في المسيحية واليهودية، ونحن نعلم أن الديانتين من عند الله لا من عند الشيطان،

---

١) المصدر السابق.ص٣

فهو ينكر أن المسيحية ديانة من عند الله حسب قوله : **وحتى المدارس الأخرى التي تدّعي أنّها إلهية كالمسيحية واليهودية"**[1]

فهل هذا صحيح؟ هل يوافق المسلم السني والشيعي على أن تكون المسيحية ديانة اختلقها عيسى بن مريم في الأرض وادّعى أنها سماوية، ولا هو رسول من رب العالمين؟! غريب هذا القول! والكلام ينطبق على اليهودية أيضا، ثم ألم تتنزل على سيدنا موسى التوراة التي فيها حكم الله؟! أوليست التوراة كتاب سماوي أيضا؟! وهل من أصول عقيدة التوحيد الإسلامية نكران أنبياء الله السابقين على محمد عليه الصلاة والسلام والكتب التي أنزلت عليهم؟! ألا يعد هذا خلافا صريحا لأركان الإيمان؟!
هذا كان على المستوى المنطقي البسيط.

أما العلمي فإننا نلاحظ أنه يتحدث عن "نظرة كونية"، وأنا أعلم أنه لا يتحدث من منطلق فيزيائي محض لكنه يخلط بين النظرة الفيزيائية التي لا أشك أنك تعلم أنها تتعامل مع مادة الكون بقوانين واصفة لسلوك المادة ، ونظريات تفسر الظواهر، وتتنبأ بها أيضا، وبين الميتافيزيقا الخاصة به، بطريقة مضللة لأتباعه وهم عامة من الناس أسبغوا عليه صفة لم يتصف بها رسول الله وهي أنه " آية الله"، وأنت تعلم إذا تكلم آية الله، على أي درجة من المصداقية سيكون كلامه عند أتباعه، وهل يمكن أن يتفكروا في كلامه، وهل يمكن أن يجدوا مغالطات في أقواله؟!

سأوضح الخلط بين الفيزياء واللاهوت في "التوحيد" الذي يتحدث عنه، التوحيد عنده يمتلك ميزتين:" أحدُهما رؤية كونية وفهمٌ كوني متكامل، وثانيهما أنه هدفٌ وقضية مقدّسة للإنسان". وهو يشرحهما في أربع مراحل انظرها في الكتاب المذكور والصفحة المذكورة في الحاشية وما بعدها متمنيا لك قراءة ممتعة ناقدة. لكني سأضع لك القاعدة

---

١) قد يقول قائل: إنه يقصد مسيحية اليوم كذلك اليهودية ، فهما ديانتان محرفتان. أقول : حتى لو وافق من وافق ورفض من رفض موضوع التحريف، فإنهما تقومان على التوحيد. فالله في المسيحية واحد ولكن له ثلاثة أقانيم، ويستطيع المسيحي المتبصر بدينه اليوم أن يقول بثقة: لا إله إلا الله. وقد قالها علنا القمّص القبطي زكريا بطرس وسمعتها منه مرارا. لأن بُنُوّة المسيح لله، ليست كعلاقة الأب البشري بابنه في اللاهوت المسيحي اليوم. واليهودية كذلك أساسها التوحيد. فلا يحق لأي كان أن ينسب هاتين الديانتين لغير الله.

التي سيشرح انطلاقا منها مفهوم التوحيد والميزتين، يقول: "عندما نتأمل في المراحل الأربعة في التوحيد نشاهد أنّ هذه المراحل متسلسلة تبدأ من الغيب المطلق وتنتهي إلى عالم الشهود."

إذا تأملت كلامه في الاقتباس السابق تستطيع أن تقول: إن الغيب هو بداية السلسلة العلمية المعرفية، كي تفهم الرؤية الكونية الخاصة بالميزة الأولى غير المفهومة أصلا. فما معنى فهم كوني متكامل؟ لا أشك أنه يقصد بالغيب فرضية المهندس الأرسطية، وهي الكامنة في ذهنه وأوحت له بذلك، كي يهدي الناس بهذه العبارة التي تعني أن الرؤية الكونية تبدأ بالغيب، فلا مكان عنده لدرس الطبيعة الموجودة أصلا، قبل فرضية الرؤية الغيبية، لأنه –كما يقول عنها- تنطلق من الغيب إلى "المشهود" أي الوجود المادي. فالفيزياء والبيولوجيا مثلا توضع في مكان ما في الفراغ - غير الموجود أصلا- ثم تهبط إلى "المشهود"، وتعمل فيه عملها، بمعنى أن " المشهود" لم يكن مشهودا قبل أن يفسر لنا ماذا حدث كرؤية كونية خاصة بالمسلم دون المسيحي واليهودي، لأن التوحيد الخاص بالمسلم يمكنه من هذا الفهم المتكامل للكون حسب قوله.

ونستطيع إدانة المؤلف والشارح بهذا القول أن الله فرضية لتبرير الوجود، ومجردُ تعريفه وتوحيده يعنيان وجودَه، وعلى ذلك فهو موجود في اللغة، وعالم الظِّلال، هكذا كان يتفلسف إنسلم، وهايدجر وديكارت، فهل يوافقهم على ذلك فإن في كلامهم كثيرا مما نسبغه على الله من صفات كالكائن المطلق السيادة عند ديكارت، و المطلق اللامتناهي عند هيجل وأسبينوزا، والكائن الذي لا يمكن تصوّر شيء آخر يفوقه عظمة كما يذهب إنسلم؟

هذه صفات لا يمكن لنا أن نأخذ منها شيءً ونترك شيئاً، بل يجب أن نجمعها في ماهية واحدة، مع استثناء كلمة (كائن) من كلام ديكارت والقديس إنسلم.

أما الثانية فلا علاقة لها بالفيزياء لكنها قاعدة في المعرفة، لأن التوحيد كما يذهب هدف! وهذا غريب بعض الشيء.

كيف يكون التوحيد هدفا؟ وهو لا يتحدث عن توحيد المعادلات الخمسة التي وُضعت ضمن إطار نظرية الأوتار الفائقة الفيزيائية، إنه يتحدث عن توحيد الله، فإن كان التوحيد

هدفا للمسلم كما يقول، فمعنى ذلك أن عليه أن يجمع شظايا إلهه ويمزجها مع بعضها ليخرج بإله واحد.

يقال في اللغة المحكية: وحّد الله يا فلان. وهذا مقبول على أنه طلب من القائل للمقول له بمجرد الاعتراف والإقرار بأن الله واحد، وليس هناك آلهة غيره، أما أن يكون التوحيد في حد ذاته هدفا فهذا هو الغريب.

كيف جعل الخميني وشارحُ كتابه التوحيدَ هدفا ؟ أنا لا أعلم، أما أنت فلك أن تفهم من كلامه ما تشاء[1].

ذكرت في النقطة السادسة شيءً عن التلاعب المقصود باللغة ، في حين أن الدلالة اللغوية كما يعرف اللغويون قابلة للتحول بالظرف السياقي الذي تقع فيه الكلمة، أو تحول نتيجة حراك زمني اجتماعي أو علمي..إلخ. وسأمثل لا على التحول الدلالي إنما على الاحتيال الدلالي من أجل إثبات غاية مسبقة نحن - في نظري- في غنى عنها ومن خلال التنازع الحاصل بين العلم واللاهوت سأضرب لك المثال الآتي في استثمار اللاهوت للّغة بمناهج تفسير متعددة.

خذ المثال الآتي :

يقول الله تعالى: ((والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون))[2]، بعد أن استقر في علم الفلك والفيزياء أن الكون في اتساع، استدل اللاهوتيون على ذلك بأن الآية السابقة تتحدث عن هذا الاتساع، واستمرار الكون في الاتساع كذلك مفهوم من اسم الفاعل أي: ما نزال نوسع في السماء. والأمر متوقف على دلالة السعة، من وسع، والمعنى مفهوم ومطابق لدلالة الكلمة عند العرب بلا حاجة للتأويل والتعسف، وهذا قول جميل سديد، وقوة التفسير اللاهوتي

---

1) لا مجال لي أكثر مما ذكرت، فالكتاب مليء بالغرائب التي لا يمكنني فهمها ، على أنه أحيانا يتكلم بكلام جيد لكن للأسف يرجع وينقضه بالافتراضات الغيبية مع أنه يضع مكانا للعلم التجريبي في المعرفة لكنه يضيق عليه الخناق إلى أبعد حد ، وإذا أردت أن ترى تقزيم العلوم فانظر في صفحة ٧ وما بعدها. وانظر في المقابل معنى التوحيد عند أهل السنة ، الذي يبدو أكثر عقلانية وقبولا منه عند الخميني، فهو على الأقل لا يقحم التوحيد في النظرة الكونية ولا ينكر الأديان الأخرى فيما للتوحيد من ميزات . انظر "القول المفيد على كتاب التوحيد". محمد بن صالح العثيمين.مؤسسة الرسالة.ط١. ١٩٩٨.ج١ .ص١- ١٣ .

2) [الذاريات: ٤٧]

تنبع من دلالة اللفظة المعجمية والاستعمالية وقت نزول القرآن الكريم إلى الآن، ومطابقتها للواقع الكوني. ففي لسان العرب ما مختصره أن (السعة نقيض الضيق...وأوسعه ووسعه صيره واسعا)، مع أنه يذكر خلاف ذلك عندما يمر على (موسعون) في الآية السابقة فيقول:" (وإنا لموسعون) أي أغنياء قادرون "[1]، ولكن مادام المعنى المعجمي قد أورد أن السعة نقيض الضيق فلا بأس أن نترك القول في المعنى الذي جاء به لسان العرب في (موسعون) وهو قادرون ، ونأخذ بالمعنى الأول فهو وارد ومعنى ذلك أنه في لغة العرب معقول بهذه الدلالة، فلا مانع من فهمه على هذا النحو. ويتحصل في النهاية أن المفهوم من الآية هو التدليل على أن الكون في حالة اتساع، وهو ما يتوافق مع المعطى العلمي الثابت اليوم.

ولكن إذا اعتمدنا هذا المنهج في النظر في غير هذه الآية فسوف نقع في ورطة، سأوضح ذلك فيما يلي :

يقول الله تعالى: ((وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون))[2].

ويقول عز وجل في آية أخرى : ((ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه))[3].

تصور لنا الآيتان السابقتان أن السماء تشبه سقف الغرفة، وهي عبارة عن سطح مستوٍ يعلو الأرض ويظللها، تماما كسقف البيت الذي يغلق غرفه من الجهة العليا، ولننظر في المعاجم الأمهات في معنى السقف، وأنت تعلم أن هذه المعاجم أتت بالمعاني والدلات من لغة العرب واستعمالهم لها.

جاء في لسان العرب (مادة: سقف):

"السَّقْفُ: غِماءُ البيت، والجمع سُقُفٌ وسُقُوفٌ، فأَما قراءة من قرأ: لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبُيوتهم سَقْفاً من فِضَّة. فهو واحد يدل على الجمع، أَي لجعلنا لبيت كل واحد منهم سَقْفاً من فِضّة، وقال الفراء في قوله سُقُفاً من فضة: إن شئت جعلت واحدتها سَقِيفةً،

---

١) لسان العرب: مادة وسع.

٢) [الأنبياء: ٣٢].

٣) [الحج: ٦٥]

وإن شئت جعلتها جمع الجمع كأَنك قلت سَقْفاً وسُقُوفاً ثم سُقُفاً كما قال: حتى إذا بُلَّتْ حَلاقِيمُ الحلُقْ وقال الفراء: سُقُفاً إنما هو جمع سَقِيفٍ كما تقول كَثِيبٌ وكُثُبٌ، وقد سَقَفَ البيتَ يَسْقَفُه سَقْفاً والسماء سَقْفٌ على الأَرض، ولذلك ذكِّر في قوله تعالى: السماء مُنْفَطِرٌ به، والسَّقْفِ المرفوعِ. وفي التنزيل العزيز: وجعلنا السماء سَقْفاً محفوظاً."

والسَّقِيفةُ: كل بناء سُقِفَتْ به صُفَّةٌ أَو شِبْهُها مما يكون بارِزاً، أُلْزِمَ هذا الاسمَ لِتَفْرِقةِ ما بين الأَشياء. والسَّقْفُ السماء."

ولو دققت النظر جيدا في المعجم كما فعلنا في الآية التي تحدثت عن اتساع الكون فمعنى (موسعون) كان محتملا في الاستعمال مع أنه فسر الآية خلافا لما يتفق مع اتساع الكون في المعطى العلمي، ولكن نعرف أن ذلك لم يكن يخطر ببال ابن منظور والآخرين الذين صنفوا المعاجم الأخرى المعتمدة عند أهل اللغة، هنا نحن نفتقر إلى الدلالة اللغوية التي تسمح لنا بأن نفهم حقيقة "السماء" كما يصورها القرآن كي نوائم بينها وبين العلم، فالسماء في المعطى العلمي ليست سقفا، إنما هي غشاء جُسيمي محيط بكل شيء، وهذا الغشاء لن يسقط على شيء وليس في حاجة إلى أعمدة تحمله، فهو فضاء- لا فراغ- مفتوح، ومما يؤكد حقيقة كونه في الآيات سقفا كما وصفت آيات أخرى كقوله تعالى : ((الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها))[1] ، أي أنه جعل هذه الأسقف (جمع سماء) مرفوعة بلا أعمدة تحملها، أو أنها مرفوعة بأعمدة لكنكم لا ترونها. هذا المفهوم من الآية.

قال الثعالبي في تفسير الآية قولا أوجز فيه قول المفسرين في ذلك :" الذي رفع السموات بغير عمد الآية، قال جمهور الناس: لا عمد للسموات البتة، وهذا هو الحق والعمد اسم جمع". أي ينفي الاحتمال الثاني أن تكون مرفوعة بأعمدة ليست مرئية وهذا ما اتفق عليه المفسرون، وهي من قدرات الله تعالى أنه رفع هذه الأسقف بلا أعمدة تحملها. وهي ليست سقفا واحدا كما نعلم، بل سبعة أسقف متتالية في العلو يعلو بعضها فوق بعض : ((وبنينا فوقكم سبعا شدادا))[2].

---

١) [الرعد : ٢]

٢) [النبأ : ١٢]

من هنا يستطيع أي باحث أن يدخل علينا من مدخل تأثر القرآن بهندسة إقليدس المستوية التي وُلدت في اليونان وانتقلت إلى الحضارات الأخرى كعلم، لأن إقليدس يجعل الأشياء مسطحة في هندسته ومنها مفهوم السماء كسطح يظلل الأرض، أضف إلى ذلك أيضا أن السماء في المعطى العلمي لا توصف بالشدة، لأن الغشاء الكوني لا سمك له ولا شكل.

وتسطيع أن تسوق هذا على الأرض نفسها، ففي قوله تعالى ((والأرض مددناها)) أي جعلناها ممدودة كسطح يشبه سطح الطاولة. وهو فهم غير مستبعد من حيث اللغة، أي إنها محدودة ببداية ولها نهاية يمكن أن تسقط عنها الأشياء، من هنا وجدنا اختلاف الفهم أيضا حول ذي القرنين عندما وصل إلى نهاية الأرض ووجد الشمس تغرب في عين حمئة.

ملخص الكلام أنه إذا أردنا أن ننهج منهجا واحدا في تفسير ما يسمى بالآيات الكونية في القرآن الكريم فسنقع في مغالطة مع العلم واصطدام مباشر، لأن مفهوم "السماء" في القرآن مخالف لمفهومه في الفيزياء، فلا بد من أن يكون أحدهما مخطئا والآخر مصيبا بالطبع، أو أن نلجأ إلى منهج آخر لتفسير هذه الآيات وهو التأويل و كل ما يقع تحت مصطلح الفهم "المجازي" أو اللغة المجازية كي لا نصطدم بالواقع العلمي، وعليه قد نسأل هنا: هل نسلك هذا المسلك في الآيات التي قد يخالف فهمها المعطى العلمي، ولماذا لا نسلكه في الآية التي استطعنا تطبيقها بكل بساطة مع حقيقة اتساع الكون؟ وهل نلجأ في تلك الآية إلى الفهم المجازي؟ ولو فعلنا ذلك لأخرجناها من دائرة الإعجاز ، فإننا سنقول بقول المعجميين والمفسرين الذين فسروا (موسعون) بـ"قادرون".

وعندئذٍ نجرد الآية من المعجزة العلمية، ولكن المحصلة النهائية في ذلك أننا ننهج منهجين لا منهجا واحدا في الفهم والتفسير، وهذا يعني الانتقائية : فلماذا تقف هنا عند المعنى المعجمي ، وفي غيره تلجأ إلى المجاز؟ وهل يجوز ذلك؟ أي أن نغير مناهج التفسير أو طريقة النظر ، أو المنطلق الذي نفهم من خلاله الآيات ، أن نغيره من آية إلى آية كي لا نقع في اصطدام مع العلم، أو أن نلجأ إلى ما يسمى بالتفسير الرمزي للآيات؟ وفي أية آيات يحق لنا أن نطبق هذا التفسير ؟ وفي أيِّها علينا أن نتركه؟

تعلم أن آيات القرآن منها ما هو مُحكم ومنها المتشابه، ولا مشكلة نعانيها مع المحكم، وإذا لاحظت تميّز محكم الآيات عن متشابهها ستجد أن اللغة هي الفيصل، والدلالة اللغوية هي التي تصنف الآيات إلى الصنفين المذكورين، فالمحكم لا تجد فيه كلمة يمكن أن تتعدد في أفهامها العقول، خذ مثلا قوله تعالى: ((قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد))، فالقراءة "الفطرية" للسورة لا تدخلنا في متاهات التوحيد، والبساطة في الفهم يجعل الآيات السابقة من المحكم لأنها تقول إن الله واحد، ومنزه عن كل شيء. كذلك قوله تعالى ((ليس كمثله شيء وهو السميع البصير))[1]، مع تنوع الأفهام فيها إلا أنها تُجمع على تفرد الله في كل شيء.

بينما ستحتاج لمنهج آخر لكي تفهم قوله (ولمّا يعلم) من قوله تعالى ((أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم...))[2]. لأن ظاهر اللغة في هذه الجملة تعني أن الله لم يعلم بعد الذين جاهدوا من أؤلئك القاعدين، كذلك تحتاج إلى الاستعانة بكثير من جهد المفسرين لتفهم قوله تعالى ((الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا))[3]، لأنك إذا عطف (علم)، على (خفف) ستقع في إشكالية مع علم الله الأزلي. كما وقعت في الآية السابقة.

على أية حال فنحن نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نلجأ إلى مناهج مختلفة كي نتفادى الوقوع في التصادم لكننا نقع في مغالطة.

والحقيقة أننا في مأمن من هذا وذاك إذا أبعدنا القرآن الكريم ولم نقحمه في المسائل العلمية، أما إذا أردنا أن نتجشّم عملية مسايرته للعلوم واتفاقه التام معها فسوف نغامر بالكتاب العزيز، ونتعلم المراوغة ونعلمها لغيرنا، وفي ذلك من الضعف والمهانة ما لا يخفى على أحد.

---

١) [الشورى: ١١]

٢) [آل عمران: ١٤٢]

٣) [الأنفال: ٦٦]

الفصل الرابع

علم اللغة الحديث ولغة القرآن

١ إعجاز القرآن في التراث.

٢ الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

١- إعجاز القرآن في المفهوم التراثي.

الحديثُ في إعجاز القرآن بدأ بشكل بحث مستقل منذ النظّام والجاحظ، والخطابي والرماني والرازي، ثم نقله الجرجاني بشكل مفصلي إلى نطاق لغوي بحت بعد أن كان بحثا نظريا استدلاليا بوجه مخصوص عند النظام، وتحوّل تدريجيا إلى لغوي نظمي عند الجاحظ ، واستمر مبحثا مستقلا إلى أن وصل إلى القرطاجني ثم إلى السيوطي في معترك الأقران أخيرا، وبين هذه الأسماء أسماء كثيرة، ولكن السيوطي كما تعرف عنه من جمع وميل إلى لملمة الشتات في أي موضوع، حاول بدوره جمع وجوه الإعجاز التي صرح بأنها وصلت إلى ثمانين وجهاً، والذي يبدأ في معترك الأقران ببداية جوهرية في الإعجاز، لكنه مع شديد الأسف يبدأ بالانحدار بعد ذلك، وسأوضح ذلك بشكل سريع، ثم أنقل الموضوع إلى مناطق النزاع التي تعنيني ، فلا يعنيني أن أضع تاريخا لما قيل في إعجاز القرآن، فتحصيل ذلك اليوم شأن يسير، ودون الحاجة للدخول إلى مكتبة. ابحث عن مصادر ومراجع إعجاز القرآن على شبكة الإنترنت وسوف تحصل على الآلاف منها ما بين أمهات من الكتب إلى بحوث منشورة في مجلات ومنتديات ، وآراء قيمة وأخرى ليست بشيء.

ونستطيع أيضا رسم خارطة زمنية لموضوع الإعجاز منذ بدايته إلى نهايته، فتنظر أولاً في مبدأ الصَّرْفة المنسوب لإبراهيم النّظّام، وتحولات الآراء وتكاثرها بعده إلى أن وصل الأمر إلى عبد القاهر الجرجاني، وما ترتب على نظرية النظم - التي كان مبدؤها عند الجاحظ على الأغلب، ولكن الجرجاني أفاض فيها وفصل مفيدا من آراء سابقه الجاحظ- من شروح وأفهام متعددة ووجوه إعجازية إلى أن تعدت حدود التنظير إلى التطبيق في تفسير آيات القرآن الكريم في عصرنا هذا، والتي تجد الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله كان ينهج منهج الجرجاني في النظم عندما فسّر كثيرا من آيات القرآن الكريم.

النظّام بشكل خاص وخليله الجاحظ كانا يمثلان المحطة الأولى في البحث في إعجاز القرآن، ثم كان عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز، والذي مهد له بـ"أسرار البلاغة"، وكان قد كتب أيضا "الشافية"، وهي رسالة في الموضوع نفسه، خلاصة الأمر أن عبد القاهر كان حجر زاوية في هذا الشأن، وكان المحطة الرئيسية الثانية التي مدت بحث الإعجاز بالكثير من القضايا التي فصل فيها من جاؤوا بعده وفرعوا فروعا منها، وضموا تحت مصطلح الإعجاز إلى ذلك أشياء كثيرة كالإخبار عن الغيب، واشتغلوا بأنواع الغيوب فيما أسموه بالمعجزات العقلية مقابل الحسية؛ فقسموها إلى غيب الماضي وغيب الحاضر وغيب المستقبل، إلى أن قالوا إن القرآن حوى كل العلوم وهو أصلها ومردها، على أنه كلام مبالغ فيه بلا أدنى شك، ببساطة لأنه لم يأت ليكشف عن علوم الدنيا وأسرارها، ونحن نعلم أنه جاء هداية للناس، ولتعريفهم طريق الاستقامة من طريق الضلال. ولم يفرّط في هذا الأمر بشيء ((ما فرطنا في كتاب من شيء))[1]، وإلا فإنك خلافا لمن قال بأنه حوى علوم الدنيا جميعا، تستطيع أن تقول إن قوانين الجاذبية غير موجودة في هذا الكتاب، وهي من علوم الدنيا. ويصبح القول السابق منقوضا بكل بساطة، ويقال إن المقصود بذلك ليس كما فهمت، أي علينا أن نقبل بالعبارة على أنه جاء بالإخبار العام عن الأمور الكونية والطبيعة، إضافة لأصول العقيدة والتشريع لحياة الإنسان.

من وجهة نظري الشخصية فأنا لست مع القول : إن علينا أن نقبل على أساس من التأويل أو الإجمال أو الفهم المجازي. فإما أن يكون كذلك وإما أن لا يكون، أما أن تُغمغم الأمور على شكل صندوق العجائب فهذا ليس بكلام مقبول في التفكير المستقيم، بل بالعكس علينا ألا نقبل بالشيء غير المحدد، أو بشيء ليس ذا ملامح واضحة، وإلا فنحن نرسّخ قيمة من قيم التعالي التي نمتاز بها بجدارة فائقة، ولك أن تنظر في قول السيوطي مُجسِّدا لك هذه القيمة في مُفتَتح معترك الأقران في قوله : " الحمد لله الذي جعل معجزات هذه الأمة عقلية، **لفرط ذكائهم، وكمال أفهامهم، وفضلهم على**

---

١) [الأنعام: ٣٨]

من تقدمهم إذ معجزاتهم حسية لبلادتهم، وقلة بصيرتهم."[1] ولن أعلق على هذا الكلام فأنت كفيل بفهمك أن ترى هذه القيمة واضحة في كلامه، تعرف ذلك إذا قارنت بين معنى كلامه من جهة ، والعربي الأعرابي في العصر الذي سمّوه عصر الجاهلية من جهة أخرى، فكيف يستقيم معنى "الجاهلية" وما يتحدث عنه من فرط الذكاء وكمال الأفهام. أما إذا أردت تسويغ التناقض وتأويله والالتفاف عليه فلن تجهد في ذلك كثيرا ولكنك ستغالط نفسك وتصر على العصبية لا أكثر.

سأعرض الموضوع من زاوية أخرى؛ النظام توفي سنة ٢٢١هـ، بمعنى إن البحث في الإعجاز أو الكلام فيه كان في القرن الثاني الهجري ، وقد يكون قبل ذلك بقليل، على لسان العلاف خال النظام، اللذين عاشا في عصر المأمون (١٩٨- ٢١٨ هـ) وشهدا فتنة "خلق القرآن". ولكن موضوع التسلسل التاريخي ليس مهماً هنا، المهم هو الإعجاز نفسه، ولماذا تحدث الناس فيه.

في هذا الموضوع نقطتان جوهريتان يجب أن نتبنه إليهما، وهما تقعان في الإجابة عن السؤالين الآتيين:

١- لماذا تكلم الناس في الإعجاز؟
٢- أين يقع الإعجاز في القرآن الكريم؟

قبل أن أقدم محاولتي للإجابة عن السؤالين السابقين، سألخص لك كلام أستاذ البلاغة في الأزهر الشريف الذي لخص الموضوعات التي تحدث بها أهل العلم تحت باب الإعجاز، وقد أوجزها في ثلاث جهات منذ بداية الحديث فيه إلى السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ.

---

١) معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدين السيوطي.ضبطه وصححه أحمد سمش الدين.دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. ط١. ١٩٨٨ . مجلد١ . ص٣ .

الجهة الأولى: كما يذهب محمد توفيق[1] هي الكلام في العقيدة ، والكلام في باب العقيدة مردّه إثبات آيات النبوة، وجهودهم في ذلك إنما كانت منصبة على جمع الأدلة والبراهين على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بأن القرآن أعجز الناس أن يأتوا بمثله، وقد نزل على محمد خاصة لا طاقة لبشر أن يأتي بمثله. من هذه الجهة يثبت إعجاز القرآن بالتحدي الواضح للفصحاء وأهل العربية. ويرتبط بالعقيدة من حيث إثبات للنبوة لا بطبيعة التركيب اللغوي والإخبار عن الغيب أو الأساليب البلاغية والتراكيب النحوية في القرآن، فلم تكن هذه الموضوعات من مشاغل هؤلاء القوم، فالقول بالصَّرْفة مثلا، إنما يندرج تحت هذا الباب، تدليلاً على نبوة المصطفى إذ صرف الله ألسنة الناس عن تقليده والإتيان بمثل نصه، فلا هو بالشعر ولا بالكهانة ولا بأي فن عرفته العرب، والقالب اللغوي الذي جاء فيه إنما أعجز الناس بأن ألسنتهم لم تطاوعهم في الإتيان بمثله، وبذلك تثبت النبوة ويتنفي ادعاؤها عن النبي.

أما عن إجابة السؤال الأول: فإنه من المعلوم أن في عهد النبي عليه الصلاة والسلام لم يتكلم أحد في الإعجاز، ولم يخطر ببال أحد أن يبحث الموضوع أو أن يوجه سؤالاً للنبي عن ذلك، وبعد الفتوحات الإسلامية ودخول الناس في دين الله أفواجاً فقد اختلف الأمر، ولما صار المسلمون أخلاطاً من عرب وعجم، وبخاصة الفرس الذين دخل عدد منهم في دين الله تقيةً، وحملوا معهم ثقافتهم الفارسية وما ورثوه من الزرادشتية ، فالظاهر أنه كان لهؤلاء تأثير قوي في الدافع الذي دفع المتكلمين الأوائل في الإعجاز أن يتركوا الحديث في لغة القرآن ومضمونه وعلومه إلى الاهتمام بالأدلة التي تبرهن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، فالظاهر أن الطعن في النبوة قام بين عدد من الناس من أهل الكلام، ولا سيما ابن الراوندي (٢٤٥ هـ) في ذلك العصر، وهو الذي عُرف مرةً بالزندقة، ومرة بالإلحاد، والظاهر لي أنه بدأ زنديقاً شاكّاً ثم تحوّل بعد ذلك إلى الإلحاد العلني، والظاهر أيضاً أنه كان متحاملاً على الإسلام، فإني قد اطلعت على

١) انظر : **إعجاز القرآن الكريم بالصّرفة**. دراسة ناقدة. إعداد : محمود توفيق محمد سعد في جامعة الأزهر الشريف.ص ١٢

أقوال له يطعن فيها في النبوة وفي القرآن الكريم لا يليق بي أن أفصلها هنا، فقد ذهب في الطعن ما تعلم من ملحد رفض دين الله جملة وتفصيلا.

ابن الراوندي عرفناه في التاريخ وقد وضع كتباً أو رسائل في ذلك، لكن يبدو أن السلطة الدينية والفكرية التي سادت قد أتت على ما كتب، إلا بعضاً من أقواله التي تجدها عند الذين كتبوا في الرد عليه من قبيل أنهم يسوقون أقواله ثم يردونها لا من أجل تفصيلها وتوضيحها وشرح ما أراد ابن الراوندي الوصول إليه، كأبي الحسن الخياط مثلا. ثم يأتي بعد حوالي مئتي سنة ابن سنان الخفاجي ليعاود إثارة مذهب ابن الراوندي فيقرر :" أن القرآن الكريم ليس من المتلائم في الطبقة العليا ، وغيره في الوسطى بل أنه ليرى أنّه لافرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية"[١].

إذن؛ لهذا الشك في النبوة جذورٌ بدأت منذ القرن الثالث الهجري، وقد جاء مذهب الصَّرْفة سلاحاً ذا حدين في القضية، فهو من ناحيةٍ يعني أنّ الله عز وجل صرف الناس عن الإتيان بمثل القرآن تأييداً لنبيّه، والحدُّ الثاني لهذا السلاح وهو الجارح أن الناس في الحقيقة قادرون على الإتيان بمثل القرآن لو أُتيح لهم الأمر، أي: لو لم يُصرفوا عن ذلك، بمعنى أن القرآن لم يختلف عن لغة العرب في شيء ولم يعلُ فوقها في طبقة الفصاحة .

---

١) المرجع السابق: ص ٧٢ . وقد ورد هذا الرأي في سر الفصاحة :–تحقيق: عبد المتعال الصعيدي.ط:١٣٨٩-محمد صبيح بالقاهرة . ص ٣ – ٤ . ويضيف د. محمود توفيق : ولا يكتفي بهذا بل يرى أن الرجوع إلى الحق والاعتماد على حسن الفقه لبيان العربية قاضٍ بأن في كلام العرب ما يضاهي القرآن الكريم في تأليفه وأن القول بعلو القرآن الكريم بلاغة وتأليفا ينفرُ عنه من له بالأدب ونقده صلة ، يقول: " ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معلرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه " و إن ادعاء أن تأليف القرآن الكريم في الطبقة العليا التى لاتطاول دعوى فاسدة، فإنَّ " الأمر بحمد الله أظهر من أن يعضده بمثل هذا القول الذي ينفر عنه كلّ من شدا من الأدب شيئا أو عرف من نقد الكلام طرفا" انتهى. وقد جاء كلام ابن سنان في معرض الرد على الرماني.

كان أبو العلاء المعري الشاعر الفيلسوف المعروف أستاذاً لابن سنان ، لكن موقف التلميذ لم يكن كموقف الأستاذ، فأبو العلاء في رسالة الغفران يقرّ بإعجاز القرآن، وأكثر من ذلك فهو يتكلم فيه بكلام لطيف عميق إذ يقول: " أنّ هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى اله عليه وسلم كتابٌ بهر بالإعجاز، ولقي عدوَّه بالإرجاز، ما حذى على مثال، ولا أشبه غريبَ الأمثال، ما هو من القصيد الموزون، ولا الرجز من سهل وحزون، ولا شاكَلَ خطابةَ العربِ، ولا سجع الكَهَنة ذوي الأدب، وجاء كالشمس اللائحة نورًا للمسرة...وأنّ الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كَلِمٍ يقدر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جُنح غسق...."[1]

أما الجهة الثانية فهي تفصيلٌ للأولى، ولا حاجة للوقوف عندها لأنها ليست نقطة مفصلية في درس الإعجاز، يقول محمود توفيق :" وكلام هؤلاء إنما هو مبني على تحقيقات علماء العقيدة وفراغهم من فرائضهم العلمية ويكون مع من آمن بإعجاز القرآن الكريم ، وأنه آية النبوة المحمدية، فإذا ما شغلوا بنافلة من تقرير وجه دلالته على الإعجاز والنبوة المحمدية على حساب تقرير وجوه الإعجاز فذلك انشغال بنافلة عن فريضة وخروج من سياق إلى سياق. سياقهم بيان وجوه الإعجاز المسلم ثبوته ، وسياق علماء العقيدة بيان وجه دلالة القرآن على الإعجاز وصدق النبوة المحمدية غير المسلم من مخاطبهم ."[2].

لذلك دعنا نتجاوزها إلى المرحلة الثالثة، وهي: **بلاغة القرآن وبيانه ونظمه.**

"وعلماء تلك الجهة فريضتهم في النظر في جهة واحدة من جهات إعجاز القرآن الكريم: بلاغته وفصاحته، هم مهمومون ببيان خصائص بيانه التي بها كان القرآن معجزا ، يفصلون بين ما هو عام في كل بيان بلسان العربية ، وما هو خاص لست بالواجده إلا في بيان القرآن الكريم."[3]

---

١) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري . بنت الشاطئ – دار المعارف بمصر. ص ٤٧٢- ٤٧٣ . انظر إعجاز القرآن الكريم بالصّرفة.ص ٧٤ . انظر لذلك الفصل الأول من : إعجاز القرآن للباقلاني. تحقيق : السيد صقر .دار المعارف.

٢) إعجاز القرآن الكريم بالصّرفة.ص١٢ .

٣) المرجع السابق. ص ١٣ .

وسيد هذه المرحلة عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري، الذي وضع لذلك نظرية النظم، وتقوم على قواعد، سآخذها من قلمه وألخص قواعد نظرية النظم التي أقامت الدنيا ولم تقعدها حتى اليوم، فيما يلي مستعملا اصطلاحات علم اللغة الحديث في تسمية هذه القواعد:

- **القاعدة الأولى: التماسك النصي.**

يقول الجرجاني: " معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض."(١)

ثم يفصل بعد ذلك الجرجاني قي "التعلق" وأنواعه بين أقسام الكلم:الاسم والفعل والحرف، وهذا التعلق يؤدي في علم نحو النص إلى "التماسك" على مستوى الجملة، وعلى مستوى النص كله، بحيث يؤدي وظيفة نحوية أولا بانسجامه مع نظام اللغة، ثم يؤدي دوره في الدلالة بناء على ترتيب الكلم في الجملة وتقديم ما تقديمه ممكن وتأخير ما تأخير ممكن لغرض في نفس المتكلم، وعليه تختلف دلالة الجملة أو البناء وهو النظم، والنظم بهذا المعنى ترتيب المتعلقات على نحو مخصوص ليؤدي معنى محددا، وإن تغيير الترتيب سيؤدي إلى تغيير في الدلالة بناء على التغير الوظيفي الذي تسنده إلى الكلم في كل ترتيب محدد على حدة.

- **القاعدة الثانية : الاختيار الأسلوبي.**

يقول الجرجاني :" ...فينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يكون بها الكلم إخبارا وأمرا ونهيا واستخبارا وتعجبا ، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء

---

١) دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. تحقيق محمود شاكر.مكتبة الخانجي. القاهرة.ط٥. ٢٠٠٤ . ص٤

لفظة هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها من صاحبتها على ما هي موسومة به.... وهل يتصور في الاسمين يوضعان لشيء واحد أن يكون هذا أحسن نبأً عنه وأبين كشفا عن صورته من الآخر، فيكون (الليث) أدل على السبع المعلوم من (الأسد)."[1] ويتابع في الصفحة نفسها:" وهل يقع في وهم وإن جهد، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكانٍ تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، ومتلك غريبة، أو أن تكون حروف هذه أخف، وامتزاجها أحسن، ومما يكُد اللسان أبعد؟"

وفيما ترى فهو يركز كثيرا على مسألة اختيار اللفظة، ثم يأتي لنا بأنواع من الاختيارات، كالاختيار الدلالي، أي اللفظتين أبين في المعنى من الثانية، والاختيار الصوتي، وهو ظاهر في قوله أن تكون أحدى الكلمتين أخف في حروفها من الأخرى، وامتزاجها أحسن ومما يكد أي يجهد اللسان أبعد.

- **القاعدة الثالثة هي : الانسجام السياقي :**

يقول الجرجاني: "وهل تجد أحدا يقول : ((هذه اللفظة فصيحة))، إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها"[2].

ويضرب لهذا الانسجام السياقي المثال الآتي :

" وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى ((وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعداً للقوم الظالمين))[3] فتجلّى لك من الإعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض

---

١) دلائل الإعجاز. ص ٤٤

٢) دلائل الإعجاز. ص٤٤

٣) [هود : ٤٤]

لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها وأن الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها"[1].

لا أظن أن في كلامه ما يحتاج إلى توضيح، فهو يمثل على موضع الكلمة من سياقها، والعلاقات القائمة بين الألفاظ، بحيث تقوم علاقة المجاورة بإظهار القيمة الجمالية للفظة المجاورة، من ناحية، وكيف أدت الغرض البلاغي الذي لم يوصل المعنى فقط، بل إن كل كلمة وقعت في هذا النص كان لها أثر أكبر من إيصال المعنى لأنه ممكنٌ بغير هذه الألفاظ، وجمالُ التعبير غير واقع في اللفظة المفردة، بل في السياق الذي هي جزءٌ منه. فلم يأتها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة..على ما ترى. ويؤكد ذلك بقوله : " وإن شككت فتأمّل هل ترى لفظة منها بحيث لو أُخِذت من بين أخواتها وأُفردت لأدّت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل: ابلعي، واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها."[2]

- القاعدة الرابعة : مطابقة البنية السطحية للبنية العميقة:

وهو ما يقصده بقوله :" وذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضٍ عن معنى، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه...وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتّبها على حسب ترتُّب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق.."[3]

---

١) دلائل الإعجاز. ص٤٥

٢) دلائل الإعجاز. ص٤٥. انظر إلى شرحه بلاغة الآية وانسجامها السياقي . ص ٤٦ .

٣) المرجع السابق . ص٤٩ .

فللمعاني ترتُّبٌ في النفس كما يقول، وعليه فالنظم يجب أن يطابق بين ترتّب هذه المعاني والتعبير بما يوافق هذا الترتيب "العميق"، ثم مع مراعاة القواعد السابقة يتحصل في النهاية معنى النظم الذي يريده الجرجاني من وراء هذه النظرية كما يطلق عليها في أوساط الدارسين، أي نظرية النظم. وبها تبلغ اللغة منتهاها في التعبير ، ليس فقط في إيصال المعاني، لا بل وإيقاعها في النفس أحس الموقع. والبشر متدرجون ومتباينون في الإحسان في تطبيق هذه القواعد في كلامهم، إلا أن القرآن الكريم قد بلغ الغاية القصوى في ذلك، وهي غاية تشبه المركز الواحد الذي لا يمكن أن يشغله أكثر من نص، فقد شغله القرآن الكريم بمحكم آيه، وما دون ذلك الموقع مواقع كثيرة يتسابق الآدميون إليها وهي في مستطاعهم، ومهما بلغوا منها فلن يصلوا إلى ما بلغه نظم القرآن الكريم. لذلك –من وجهة نظر الجرجاني كما فهمت منه- كان إعجاز القرآن، فلندع الفصحاء يتكلمون، والشعراء يتبارون، إنما يفعلون ذلك كي يتسابقوا إلى الدرجة التي تقع تحت الدرجة التي شغلها نظم القرآن والتي –كما ذكرت لا تنبغي إلا لنص واحد، وقد وصلها القرآن، أما ما دونه من درجات الإحسان فهي متحصلة للبشر.

في هذه القواعد الأربع يضع الجرجاني النظرية، ولا يزيد عليها شيئا في دلائل الإعجاز، وكل ما فيه إنما يدور في فلكها، ويمثل لها ويشرح ويفصل فيها، ويعاود ذكرها من حين لآخر. بإمكانك الآن أن تعرف حدود نظرية النظم مع اختلاف أفهام الناس فيها، وكلامهم الكثير عليها، لاسيما أن اصطلاحات الجرجاني تتراوح بين الدقة أحيانا والعموم أحيانا أخرى.

من ناحية أخرى لم يغفل الجرجاني الرد على مذهب الصرفة بالنظم، وملخص كلامه في ذلك أنه لو تم صرفهم عن الإتيان بمثل القرآن لما سمعنا منهم عبارات

الإكبار لشأن القرآن ونظمه، ووصفه بما لم يوصف به أعذب الشعر وأبلغ الكلام الذي عرفوه من فصحائهم[1].

عرفنا فيما سبق نظريتين حول إعجاز القرآن في المفهوم التراثي، الأولى : الصرفة على يد إبراهيم النظام، والثانية: نظرية النظم على يد عبدالقاهر الجرجاني، ولم يعد أمر الإعجاز هاتين النظريتين، فكل ما قيل قبلهما وبعدهما كان تفصيلا لوجوه الإعجاز ومظاهرة، تجلياته في القرآن حتى وصلت –كما ذكرت سابقا- إلى ثمانين وجها تحدث عنها السيوطي.

بقي أن نجيب عن السؤال الثاني، ولعلك نسيته مع طول القراءة والتفرع في المسائل، وهو :

- أين يقع إعجاز القرآن؟

وهذا السؤال يستدعي أن تقول قد أجاب الجرجاني عن ذلك، وقال إن الإعجاز في النظم. أو إن شئت أن تتبنى رأي النظام فلك ذلك على ما عليه من مآخذ.

ولكن اسمح لي أن أقول إن على نظرية النظم التي تحدث عنها الجرجاني مآخذ لا تقل بحال عن تلك التي أخذت على مذهب الصرفة.

لقد شكلت لغة القرآن الكريم وبلاغته منطقة خطرة من مناطق النزاع في الدراسات اللغوية والدينية اليوم.

لفت كامل النجار في كتابه "قراءة نقدية للإسلام"، إلى مواضع لا تنسجم مع نظرية النظم مع أنه لم يصرح بذلك ولم يذكر الجرجاني ولا جهوده، ولم يقصد إلى ضحدها، إنما كان يهدف إلى بيان مواضع من لغة القرآن وبلاغته لم تصل إلى القمة العليا في البلاغة، وأن لغة القرآن الكريم كانت أحيانا تميل إلى تفضيل الكلمات

---

١) انظر تفصيل رد الجرجاني على الصرفة ورفضه لها. ص ٣٩٠ وما بعدها من الدلائل.

المسجوعة على غيرها حتى لو خالفت المشهور في لغة العرب، وهذا في واقع الحال يخالف مفهوم الفصاحة، ويضيف إلى ذلك أيضا أنه قد ضم تكرارا لم يكن في موضع الاستحسان، أي لا يتفق ذلك مع مذهب الجرجاني في أن كل كلمة وضعت في مكان بحسب الانسجام السياقي لتؤدي دورها في بلاغة لم يصل إلى قمتها إلا بلاغة القرآن، وهذا بدوره يدل على تفاوت لغة القرآن الكريم من آية إلى أخرى أو من سورة إلى أخرى، وسأمثل على ذلك من ملاحظاته فيما يلي :

١- السجع: لا شك أن السجع له قيمة إيقاعية كبيرة في النص، وهو شائع في القرآن الكريم، بخاصة في السور المكية، ولا ضير في ذلك إذا كان متفقا مع مفهوم الفصاحة من ناحية ومؤديا للمعنى المقصود من ناحية أخرى ، ومن ناحية ثالثة لا تقل أهمية عن الأولى والثانية هو اتفاق الكلمة أو الكلمات المسجوعة مع قواعد اللغة النحوية والصرفية، "فإذا أخذنا مثلاً سورة مريم، من الآية الثانية حتى الآية الثالثة والثلاثين نجد آخر كلمة من كل آية تنتهي ب " يا"

٢ - " ذكرُ رحمة ربك عبده زكريا"

٣- " إذ نادى ربه نداءً خفيا"

ثم في ألآيتين ٣٤ و٣٥ تتغير القافية إلى " ون" :

٣٤- " ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون"

٣٥- " ما كان لله أن يتخذ من ولدٍ سبحانه إذا قضى شيئاً أن يقول له كن فيكون"

ثم تتغير إلى "ميم" في الآيتين ٣٦ و ٣٧ :

٣٦- " وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا سراط مستقيم"

٣٧- " فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يومٍ عظيم"

ثم ترجع إلى النون مرة أخري في الآيات ٣٨ و ٣٩ و ٤٠

٤٠- " إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون"

ثم نرجع للقافية الأولى " يا" في الآيات من ٤١ الى ٧٤

٤١- " واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيا"

ثم تتغير القافية إلى " دا" مثل جُنداً و ولداً إلى نهاية السورة.

وإدخال آيتين أو ثلاثة في منتصف السورة بسجع يختلف عن معظم آيات السورة حمل بعض الدارسين الى القول بأن هذه الآيات أُضيفت الى السورة لاحقاً ولم تكن جزءً منها في البداية." [1]

وهؤلاء الباحثون الذين يتحدث عنهم كامل النجار هم على ما أحسب المستشرق جولد تسيهر المعروف بشدة عدائه للإسلام.

ومن صعوبات السجع أنه أحيانا ما يضطرك إلى تكرار بعض الكلمات عندما لا تجد في اللغة ما يغني عنه، " وفي الآية ١٠ من نفس السورة: " قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام سوياً" وفي الآية ١٧ كذلك: " فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا". وفي الآية ٦٨ نجد: " فوربك لنحشرهم والشياطين ثم لنحضرنّهم حول جهنم جثيا"، وفي الآية ٧٢: " ثم ننجي الذين آمنوا ونذر الظالمين فيها جثيا". وواضح أن التكرار هنا لصعوبة إيجاد كلمات أخرى تماشي السجع."[2]

٢- الاشتقاق المخالف للقواعد الصرفية العربية:

ومثاله في ذلك :

"نجده في الآية ٧٤ من نفس السورة: " وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورءياً". والاشتقاق هنا غريب لأنه من (رأى) والمصدر (رؤية)، ولكن لتماشي الكلمة السجع قال " رءيا". و لغرابة الاشتقاق وجد المفسرون صعوبة في شرح الكلمة، فقال القرطبي في تفسيره: (قال ابن عباس " ورئيا" أي منظراً حسناً. وفيه خمس قراءات: قرأ أهل المدينة " وريا" بياء واحدة مخففة. و روى الأعمش عن ابن عباس " أحسن أثاثاً وزيا" بالزاي. وقرأ أهل الكوفة " ورئيا" بالهمزة. وقال أبو أسحق يجوز " وهم أحسن أثاثاً وريئا" بياء بعدها همزة)"[3].

ومن ذلك أيضا :

---

١) قراءة نقدية للإسلام. كامل النجار. ص٤٨

٢) المرجع السابق. ص٤٨ .

٣) المرجع السابق. ص٤٨ .

وفي سورة النبأ، الآية ٣٥، عندما يصف الله الجنة، نجد:

٣١- " إن للمتقين مفازا"

٣٢- " حدائقَ وأعنابا"

٣٣- " و كواعبَ أترابا"

٣٤- " وكأساً دهاقا"

٣٥- " لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا"

وكلمة " كذابا" مشتقة من كذّبَ، يُكذّبُ، كذباً. والمصدر كما هو واضح " كذبا"، ولكن لتماشي الكلمة السجع كان لا بد من جعلها " كذابا". وقد يلاحظ القارئ هنا أن الآية ٣٤ لا تماشي السجع مما دعا بعض الدارسين إلى القول بأنها أضيفت مؤخراً."[١] وأعود لأقول إن جولد تسيهر يتدخل هنا برأيه المعروف بشدة العداء للإسلام هنا. وبقي أن أذكرك أن هذه المآخذ اللغوية التي يسجلها كامل النجار جاءت بوحي من هذا المستشرق العنيد.

٣- التكرار:

وهو تكرار يصفه النجار بأنه ممل، ولا حاجة لنا به ، ويضرب على ذلك مثالا من سورة الرحمن حيث تتكرر الآية ((فبأي آلاء ربكما تكذبان)). ويقول إنها تكررت ٣١ مرة، ويتساءل: أي غرض يخدم هذا التكرار؟ وقد ذكر أهل البلاغة الغاية من هذا التكرار بعد ذكر كل نعمة من نعم الله ليس فقط على الإنسان بل على الإنس والجن، فقد فسروا ضمير المثنى في قوله تعالى: تكذبان أنه خطاب للإنس والجن، ولا ننسى أن في القرآن سورة مسماة باسمهم (سورة الجن)، وقد سمعوا القرآن ووصفوه بأنه عجيب : ((لقد سمعنا قرآنا عجبا فآمنا به)).

---

١) المرجع السابق ص ٤٩.

٤- استعمال الضمائر:

ويقصد بذلك تحوّل صيغ الخطاب من ضمير إلى آخر في سياق واحد، وهو ما يسمى في علم البلاغة بالالتفات، " فخذ مثلاً سورة الأنعام الآية : ٩٩ " وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نباتَ كلِ شئٍ فأخرجنا منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوانٌ دانيةٌ وجناتٍ من أعنابٍ والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابهٍ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لاياتٍ لقوم يؤمنون".

فبداية الآية يصف الله " وهو الذي أنزل من السماء ماءً "، وبدون أي إنذار تتغير اللغة من الشخص الثالث إلى الشخص الأول ويصير الله هو المتحدث " فأخرجنا به"، وسياق الآية يتطلب أن يقول " فأخرج به".[(١)]

وهذا كما أشرت لك أسلوب معهود لدى العرب البلغاء في تحويل صيغ الخطاب من خلال استعمال الضمائر، وتستطيع أن تستوضح أكثر حول هذا الأسلوب وبلاغته في مراجع البلاغة التراثية، كي تتعرف إلى هذا النوع من البلاغة التي اشتمل عليها القرآن الكريم.

على أية حال أوضحت لك فيما سبق أن نظرية النظم لم تلق الاستحسان وتجيب عن كل المآخذ التي يسجلها البعض على هذه النظرية، أو خوارق البلاغة والإعجاز في القرآن من خلال هذه الأمثلة وغيرها، وهو دأب معروف، ومعهود لدى الكتب المقدسة جميعا، فلا زالت تلاقي العناد من أعدائها، وبذل الجهود لكي ينسبوا إليها النقص، ولكن بالنسبة للقرآن الكريم فمصدره معروف، وهو محفوظ بحفظ الله له لا بحفظ الناس، ومنقول بالتواتر دون أن يكون لموضوع الطعن على نقله أهمية كبيرة، غير ما أثاره المستشرق المذكور سابقا ومن آزره في ذلك، فبقي أن تؤمن أو لا تؤمن، وهنا النقطة الفيصل في الموضوع كمنطقة للنزاع بين علم اللغة الذي ينظر -في منطق البعض- إلى مثل هذه الأمثلة المذكورة على أنها تخالف اللغة أو تخالف بعضا من قواعدها النحوية أو الصرفية أو الصوتية، وبين أن نعد هذه الأمثلة منسجمة تماما والإعجاز طالما أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى.

---

١) قراءة نقدية للإسلام:ص٥٠

٢- الإعجاز العلمي:

بدأ الحديث بالإعجاز العلمي من قاعدتين هما:

- القرآن الكريم نص منزل من عند الله سبحانه وهو صالح لكل زمان ومكان.
- القرآن الكريم نص رباني وجاء بعلوم الدنيا والآخرة.

هاتان القاعدتان القارتان في قلب كل مسلم، تبيح لنا في كل عصر أن نبحث عن المعجزة الملائمة له، فكما تحدى العرب قديما بالفصاحة لأن عصرهم كان عصر الإجادة في الكلام والفصاحة فيه، فقد جاء أعلى مما استطاعوا تحصيله فيها ، ولما كانت معجزة سيدنا موسى من جنس القدرات الهائلة على السحر عند قوم فرعون فقد تحداهم بما برعوا فيه، فكانت عصا موسى معجزة تشبه سحرهم ولكنها لم تكن سحرا.

وهكذا نفهم أنه لا بد من أن المعجزة الخالدة التي في القرآن الكريم لا بد أن توافق هذا العصر الذي يمتاز بعصر العلم، وعليه فلا بد أن القرآن فيه من العلم ما فيه ولكنه بحاجة لمن يتبصر فيه، ويتفكر في لغته حتى يكشف عن المعجزات العلمية التي يحويها، ونقطة أخرى نجنيها من الإعجاز العلمي إذا أثبتناه في القرآن وهي أنه دليل صدق للنبوة ما زال يتجدد في كل عصر، ويؤيد أن الإسلام هو الدين الذي جاء خاتما وناسخا لما قبله، ولا حق إلا الحق. وما غيره إلا الضلال.

من هذا المنطلق حاول علماؤنا البحث في القرآن الكريم عن الآيات الكونية، ومن خلال فهمهم للآية الكريمة :((سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم))، والآفاق ما بعد عن الناس مكانا، وفي أنفسهم ما كان أكثر قربا للناس، فليس أقرب إليك من نفسك، والآية الكريمة تعطي وعدا بأن الله سوف يري الناس هذه الآيات في البعيد والقريب، ومع امتداد الزمن من عصر نزول القرآن الكريم إلى اليوم اختلفت علوم الآدميين وتزايدت بحيث لم يعد بمستطاع الإنسان الواحد تحصيل عدد من العلوم بحيث يجيد كل منها إجادة تامة إلا أن يكون متخصصا في حقل منها أو حقلين، ومعرفته في الأمور الأخرى تكون من قبيل الثقافة العامة لا من قبيل التخصص الدقيق الذي يسبر العلم إلى منتهاه.

ومادام القرآن الكريم جاء من الله تعالى وعلمه الأزلي وهو بكل شيء عليم، فلا يمكن أن تخفى عليه خافية من شؤون العلوم، هذا قول نسلم به جملة وتفصيلا، ولكن السؤال هل أودع الله علومه كلها في القرآن؟ وهل أودع علوم الدنيا جميعها فيه؟

إذا كنا نتحدث عن عصرنا هذا وإذا قلنا بأن الله سبحانه أودع علومه كلها في القرآن فمعناه أننا لا بد أن نكشف –في القرآن– عن أسرار الكون في كل شيء صغر أم كبر، وعلى الأصعدة العلمية جميعها. بلا أدنى ريب، هذا مستند قوي يستند إليه المشتغلون بالإعجاز العلمي اليوم في القرآن الكريم.

ولذلك أقيمت مؤسسة في المملكة العربية السعودية متخصصة في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وانبرى لذلك عدد من الدارسين، وقدموا بحوثا كثيرة في ذلك، تتزايد يوما بعد يوم إلى أن صرنا نسمع بـ"موسوعات" الإعجاز العلمي في القرآن، هذا عدا الجهود الفردية التي تظهر من حين لآخر، وتنشر في الكتب والمنشورات ووسائل الإعلامية بأنواعها.

كل ذلك ممكن أن أقبل به على المستوى الشخصي بشرط أن تكون إجابتا السؤالين السابقين بـ"نعم"، ويُثبت لي أيُّ عالم أو متخصص في ذلك صحة الإجابة بـ"نعم" قبل البدء بمشروع الإعجاز العلمي.

أما عندي فالإجابة عن السؤالين السابقين هي: لا ...مؤكدةً. وبالتالي أنا أضع نفسي في صف المناهضين لهذه الفكرة.

أولا علي أن أثبت أن إجابتي لسؤالي بالسلب سليمة، وباستطاعي بكل بساطة أن أقول : قال الله تعالى : ((قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا))[1] ، وهذا يعني أن عند الله من "الكلمات" (علوم-حقائق) ما لا طاقة للبحور لو صارت حبرا أن تأتي عليها، والله أكبر من أن يحيط به

---

١) [الكهف : ١٠٩]

علم الآدميين، أنا أقول بكل بساطة أيضا أنه لا يمكن أن يكون الله تعالى قد أودع جميع علومه في القرآن الكريم، والهدف أيضا مفهوم وبسيط، وهو أن غرض الله من إنزال هذا الكتاب هو هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور، لا لإعطائهم دروسا في العلوم بأنواعها المختلفة، فقد ترك هذا إلى عمل الآدميين ولم يتكفل بأن يقدم قواعد الفيزياء والكيمياء وقوانين نيوتن والنسبية ونظرية الكم والحديث عن القوى الطبيعية الأربع وطبقات الأرض وتقسيماتها التكتونية، والعصور الجيولوجية وعلم صناعة الدواء والطب إلى آخر ذلك. ولا نشك في الوقت نفسه أن أزلية علم الله تعني أنه يعلم أن سيكون كذا وكذا في شأن العلوم، وأن الإنسان سيخترع الكهرباء، وسيعرف الإنسان التركيب الجيني لنفسه، وسيحاول علاج الأمراض ويخترع لذلك علوما كالصيدلة والطب وما يلزمها من معدات وتقنيات...ولكن هل من الضرورة أن يكون هذا مسطورا في القرآن الكريم.

لو صح النظر إليه من هذه الزاوية وهي زاوية الإعجازيين في عصرنا فإننا أمام أحد أمرين:

الأول: أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يعقد جلسات ودروسا يعلّم فيها الصحابة علوم الفلك والفيزياء والكيمياء والطب، وشرح لهم نظرية الكم وربما تحدث عن نظرية الأوتار الفائقة، ولكن للأسف لم تصلنا هذه الدروس. وكان يتحتم عليه أن يؤسس جامعة ومركزا للبحوث العلمية كنوع من الامتثال إلى أمر الله ((يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك فإن لم تفعل فما بلغت رسالته))[١].

الأمر الثاني : هو أنه كان يعلم مثل هذه العلوم لكنه أخفاها عن الناس، وفي ذلك تهمة لا تليق بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي نزلت عليه الآية الكريمة التي تقول: ((اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا))[٢]، فالإكمال والإتمام في الآية كان للدين لا للعلوم، وهذا يدل بشكل صريح أن محمدا

١) [المائدة: ٦٧]

٢) [المائدة: ٣]

صلوات الله عليه لم يقصّر في أداء الرسالة وحمل الأمانة وإبلاغها امتثالا لأمر الله عز وجل.

مدار رسالته صلى الله عليه وسلم كان إبلاغ ما تحمّله من أمانة، وهي أن يبلغ الناس ويعلمهم شؤون الدنيا التي تفضي بهم إلى مرضاة الله، ويُعْلِمُهم كذلك بما يغضب وجه الله وما حرّم عليهم وينهاهم عن فعله كي لا تكون آخرتهم النار، أما الشؤون العلمية فموكولة إلى عقل الإنسان وجده واجتهاده في الدنيا لتحسين ظروف معيشته، ولم يأت في القرآن الكريم أو في السُّنة النبوية الصحيحة نهي عن الاشتغال في العلوم، بل على العكس، فإن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم تحث على العلم والاستزادة فيه، فمجرد قوله: تداووا عباد الله، يعني التمسوا لأمراضكم علاجات، وهذا يستدعي أن يكون هناك عالمون بالأمراض وعلاجاتها، فإن لم يكن مثل هؤلاء موجودين فعليهم بالسعي لتحصيل هذا العلم، وقس على ذلك.

ولو افترضنا وجود علوم كونية في القرآن الكريم، فالسؤال هل ما احتواه القرآن هو كل ما في الكون من علوم؟ ولا علم سوى ما جاء في القرآن؟

الواقع اليوم ينفي ذلك. وعليه نسأل السؤال الآتي: إذا جاءنا القرآن ببعض العلوم فلماذا ترك بعضها الآخر؟ ولماذا اختار لنا هذه الطائفة من العلوم دون الأخرى؟

قبل أن أمثل لك على أهم القضايا التي تعد من قبيل الإعجاز العلمي، اسمح لي أن ألخص رأيي في المسألة وهو أننا في غنى عما يسمى بالإعجاز العلمي بناء على المقدمة التي وضعتها أعلاه، والأسئلة التي طرحتها فيها. فإذا كان الإعجاز العلمي هدفه ضم أكبر عدد من الناس بإبهارهم بهذه المعجزات إلى الإسلام فلا يخلو الأمر من اعتراضات ومغالطات في هذا الفهم وعليه فإن الدعوة إلى دين الله عبر الإعجاز العلمي ليست خالصة من كل شائبة أو مطعن.

لن أستطيع في هذا الفصل أن أمر على كل ما وضع تحت باب الإعجاز العلمي لكثرته، وقد ذكرت لك آنفاً أن المسائل كثرت بحيث أصبحت تشكل موسوعات لا موسوعة واحدة نظراً لأن العمل في ذلك مدعوم مؤسسيا.

دعنى أمر بكبرى القضايا التي ذكر أنها جاءت في القرآن الكريم على سبيل الإعجاز العلمي كما يظن الظانّون، وعلي أن أنبه أن الفهم الإعجازي يقوم على "الإسقاط"، بمعنى أنه بعد أن يعلن العلم عن حقيقة أو نظرية أو معلومة ما في حقل من حقول العلوم الطبيعية وينتهي منها، يبدأ الفهم الإعجازي من حيث انتهى العلم.

أولا: خلق الكون:

قال الله تعالى: ((أَوَ لَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا))[١].

لنعد إلى المعجم كي نرى معنى الفتق والرتق، ففي لسان العرب:

رتْقاً: الرَّتْقُ ضدّ الفتْقُ. وقال ابن سيده: الرَّتْقُ إلحام الفتْقِ وإصلاحه، رتَقَه يرتُقُه ويرتِقُه رتقاً فارتتق أي التَأَم. ففتقناهما: الفتقُ خلاف الرتق، فتقه يفتقُّه فتقاً: شقه.

الفتق: انفلاق الصبح."[٢]

وخلاصة المفهوم من المعجم هو التحام السماء بالأرض. ولننظر في أقوال المفسرين :

قال الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى: ((أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا)).

اختلف المفسرون في المراد بالرتق والفتق على أقوال:

أحدها: وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم أن المعنى كانتا شيئاً واحداً ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي، وأقرّ الأرض، وهذا القول يوجب أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء لأنه تعالى لما فصل بينهما ترك الأرض حيث هي وأصعد الأجزاء السماوية، قال كعب: "خلق الله السموات والأرض ملتصقتين ثم خلق ريحاً توسطتهما ففتقهما بها".

---

١) [الأنبياء: ٣٠]

٢) لسان العرب: مادة رتق، فتق

وثانيها: وهو قول أبي صالح ومجاهد أن المعنى: كانت السموات مرتفعة فجُعلت سبع سموات وكذلك الأرضون.

وثالثها: وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين أن السموات والأرض كانتا رتقاً بالاستواء والصلابة، ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات والشجر، ونظيره قوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ}. ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم، ولا يكون كذلك إلا إذا كان المراد ما ذكرنا.

ورابعها: قول أبي مسلم الأصفهاني: يجوز أن يراد بالفتق: الإيجاد والإظهار كقوله: {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} وكقوله: {قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ}، فأخبر عن الإيجاد بلفظ الفتق، وعن الحال قبل الإيجاد بلفظ الرتق.

أقول (أي الرازي): وتحقيقه أن العدم نفي محض، فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة، بل كأنه أمر واحد متصل متشابه فإذا وجدت الحقائق، فعند الوجود والتكون يتميز بعضها عن بعض، وينفصل بعضها عن بعض فبهذا الطريق حَسُنَ جعل الرتق مجازاً عن العدم والفتق عن الوجود".

قال الطبري في تفسير الآية أيضاً:

"وقوله: "ففتقناهما" يقول: فصدعناهما وفرجناهما ثم اختلف أهل التأويل في معنى وصف الله السموات والأرض بالرتق، وكيف كان الرتق وبأي معنى فتق؟[1]

لو اطلعت على أقوال المفسرين فستفهم عدة آراء في الموضع، ولكنها جميعا تتفق على أن السماء والأرض كانتا ملتحمتين ثم فصل الله بينهما، فرفع السماوات وسواهن سبعا، وفصل الأرض فسواها سبع أرضين.

---

١) انظر الموسوعة العلمية الإسلامية المعاصرة.- إعجاز القرآن. تحت باب الانفجار العظيم.-

وهنا يبقى مفهوم الأسطح المستوية ماثلا أمامك، فرفع السماوات كسطح كان ملتصقا بسطح آخر وهو الأرض، أما عن كيفية الفصل بينهما فتجدها بالماء والهواء، ولو حاكمت هذا التفسير فيزيائيا فلن تجد له مكاناً مناسبا في الفيزياء، لأن السماوات ليست أسطح من ناحية، كذلك الأرض ليست سطحا، والفرق الهائل بين حجم السماء والأرض لا يجيز المساواة بينهما، في أنهما كانا ملتصقين، وذلك كالالتصاق ذرة من الغبار بشمس يصل حجمها إلى عشرات المرات من حجم الشمس التي تطل علينا كل صباح.

هذا من ناحية، والناحية الثانية أن الانفجار العظيم قد أدى إلى إيجاد المادة من نقطة متناهية في الكثافة وقد حدث ذلك في لحظة واحدة ولم يفصل بينهما أي فاصل زمني لأن الزمن لم يكن معروفا في الكون، وقد ذكرت في الفصل السابق المفهوم الفيزيائي اليوم عن حقيقة السماء وأنها لا يمكن أن تلتصق بغيرها كالتصاق جدارين يملك كل منهما خصائص تجعل فصله عن غير ممكنا، لأن اتحاد المادة في النقطة المبدئية لم يكن يُمكّن أحدا من القدرة على تمييز المادة عن المكان عن الزمان فيها.

ثم إن الفاصل بين السماء والأرض ليس مجرد ماء وهواء. ولن أكرر ما قلته في ذلك قبلا. إلا أن اللغة المجازية المستحسنة في الفنون الأدبية ما زالت تلاحقنا في العلوم، فإن لغة العلوم لا بد ولا شك أنها لا تحتمل المجاز، والإشكالية التي نعانيها مع المفسرين والنقاد اليوم هي عدم القدرة الذهنية على الفصل بين طبيعة اللغتين ومؤدى كل منهما، فلا يمكن إقحام المجاز في العلم كما فعل الرازي: وينفصل بعضها عن بعض فبهذا الطريق حَسُنَ جعل الرتق مجازاً عن العدم والفتق عن الوجود".

وإلا فإننا لن نملك في النهاية فهما علميا وعندها تتشابه الصورة الفنية في قصيدة للمتنبي مثلا من حقيقة علمية ، وليس أدل على ذلك من المعجزة الطبية في قصيدة الحمى للمتنبي إذا أردنا خلط الأوراق البحثية العلمية بأواق النقد والأدب، فالمتنبي يقول في الحمي:

وزائرتي كأن بها حياء   فلا تزور إلا في الظلام.

والعلم اليوم يتحدث عن أن الحمى تشتد على صاحبها بالليل حيث يخمد نشاطه في النهار وحركته، وينشط مقابل ذلك عمل كريات الدم البيضاء في معركتها مع البكتيريا أو الفيروس المسبب للمرض، لذلك إذا خلد المريض إلى النوم في الليل فإنه يبدأ في المعاناة من ارتفاع درجات الحرارة نتيجة للعراك القائم في دمه. فهل نقول إن في قصيدة المتنبي إعجازا علميا طبيا؟ لأن الحمّى تزوره في الليل؟!

ثانيا : أدنى الأرض:

قال الله تعالى: ((الم ❖ غُلِبَتِ الرُّومُ ❖ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ❖ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ❖))[1]

عودا إلى المعجم ، جاء في الموسوعة الإسلامية ما يلي :

"التفسير اللغوي:

قال ابن منظور في لسان العرب:

أدنى: دنا من الشيء دنواً ودناوة: قَرُبَ.

وهناك رواية لقراءة أخرى عن الكلبي "في أداني الأرض" ذكرها الألوسي وأبو السعود في تفسيريهما.

وأدنى: أخفض."

كل ما ذكرته الموسوعة في معنى أدنى صحيح إلا الجملة الأخيرة (وأدنى: أخفض)، فلم أجدها في لسان العرب ولا غيره من المعاجم.

والظاهر أنها جاءت لتقحم الإعجاز على الآية التي تتحدث عن معركة بين الروم والفرس والتي انتصر فيها الفرس، مما أورث المسلمين حزنا لأن الروم وهم أهل كتاب هزموا في هذه المعركة. لكن الله يبشرهم فيما بعد أنهم سوف ينتصرون.

ولكن الغريب مرة أخرى هو إقحام العبارة الأخيرة في المعنى المعجمي لكلمة أدنى التي ساقتها المعاجم للدلالة على القرب لا على الانخفاض. يضاف إلى أن هذه الجملة التي

---

١) [الروم: الآيات ١- ٤]

أقحمتها الموسوعة ليست موجودة في المعجم الوسيط الذي يعد معجما حديثا، ويحتوي دلالات عصرية للألفاظ. فضلا عن المعاجم الأمهات التي لم تأت بهذا المعنى الملفّق المكذوب على ابن منظور كما ترى في الاقتباس أعلاه.

وهذا اقتباس من لسان العرب من مادة (د ن و) علما أنه لا يوجد مثل هذا المعنى أيضا في القاموس المحيط ولا في الصحاح في اللغة:

"دَنا من الشيء دنُوّاً ودَناوَةً: قَرُبَ.

وفي حديث الإيمان: ادْنُهْ؛ هو أَمْرٌ بالدُّنُوِّ والقُرْبِ، والهاء فيه للسكت، وجيءَ بها لبيان الحركة.

وبينهما دناوة أَي قَرابة.

والدَّناوةُ: القَرابة والقُربى.

ويقال: ما تَزْدادُ منَّا إلا قُرْباً ودَناوةً؛ فرق بين مصدرِ دنا ومصدر دَنُؤَ، فجعل مصدر دَنا دَناوةً ومصدر دَنُؤَ دَناءَةً؛ وقول ساعدة بن جُؤَيَّة يصف جبلاً: إذا سَبَلُ العَماء دَنا عليه، يَزِلُّ بِرَيْدِهِ ماءٌ زَلولُ أَراد: دَنا منه.

وأَدْنَيْته ودَنَّيْته.

وفي الحديث: إذا أَكَلْتُم فسَمُّوا الله ودَنُّوا وسَمِّتُوا؛ معنى قوله دَنُّوا كُلُوا مم يَلِيكُم وما دَنا منكم وقرب منكم، وسمِّتُوا أَي ادْعُوا للمُطْعِم بالبركة، ودَنُّوا: فِعْلٌ من دَنا يَدْنُو أَي كُلُوا مما بين أَيدِيكم.

واسْتَدْناه: طلب منه الدُّنُوَّ، ودنَوْتُ منه دُنُوّاً وأَدْنَيْتُ غيري."[1]

---

١) وهنا تتمة ما جاء في هذه المادة :" وقال الليث: الدُّنُوُّ غيرُ مهموز مصدرُ دَنا يَدْنُو فهو دانٍ، وسُمِّيت الدُّنْيا لدُنُوِّها، ولأَنها دَنتْ وتأَخَّرَت الآخرة، وكذلك السماءُ الدُّنْيا هي القُرْبَى إلينا، والنسبة إلى الدُّنيا دُنياوِيٌّ، ويقال دُنْيَوِيٌّ ودُنْيِيٌّ؛ غيره: والنسبة إلى الدُّنيا دُنْياوِيٌّ؛ قال: وكذلك النسبة إلى كل ما مُؤَنَّثُه نحو حُبْلَى ودَهْنا وأَشباه ذلك؛ وأَنشد: بوَعْساء دَهْناوِيَّة التُّرْبِ طَيِّب ابن سيده: وقوله تعالى ودَانِيةً عليهم ظِلالُها؛ إنما هو على حذف الموصوف كأنه قال وجزاهم جَنَّة دانيةً عليهم فحذف جنة وأَقام دانية مُقامها؛ ومثله ما أَنشده سيبويه من قول الشاعر: كأَنَّكَ من جِمالِ بَني أُقَيْشٍ، يُقَعْقَعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَنِّ أَراد جَمَلٌ من جمالِ بن أُقَيْشٍ.

وقال ابن جني: دانِيةً عليهم ظِلالُها، منصوبة على الحال معطوفة على قوله: متكئين فيها على الأَرائِك؛ قال: هذا هو القول الذي لا ضرورة فيه؛ قال وأَما قوله: كأَنَّك من جِمالِ بَني أُقَيْشٍ البيت، فإنما جاز ذلك في ضرورة الشِّعْر، ولو جاز لنا أَن نَجِدَ مِنْ بعض المواضع اسماً لجعلناها اسماً ولم نحمل الكلام على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، لأَنه نوع من الضرورة، وكتاب الله تعالى

يَجِلّ عن ذلك؛ فأَما قول الأَعشى: أَتَنْتَهُون ولَنْ يَنْهَى ذَوي شَطَطٍ، كالطَّعْنِ يَذْهَبُ فيه الزَّيْتُ والفُتُلُ فلو حملته على إقامة الصفة موضع الموصوف لكان أَقبح من تأَوُّل قوله تعالى: ودانية عليهم ظلالها؛ على حذف الموصوف لأَن الكاف في بيت الأَعشى هي الفاعلة في المعنى، ودانيةً في هذا القول إنما هي مَفْعول بها، والمفعول قد يكون اسماً غير صريح نحو ظَنَنْتُ زيداً يقوم، والفاعل لا يكون إلا إسماً صريحاً محضاً، فهُمْ على إمْحاضه إسماً أَشدُّ مُحافظة من جميع الأَسماء، أَلا ترى أَن المبتدأ قد يقع غيرَ اسمٍ محضٍ وهو قوله: تَسْمَعُ بالمُعَيْديِّ خيرٌ مِن أَن تَراهُ؟ فتسمع كما ترى فعل وتقديره أَن تسمع، فحذْفُهم أَنْ ورفْعُهُم تَسمعُ يدل على أَن المبتدأ قد يمكن أَن يكون عندهم غيرَ اسمٍ صريح، وإذا جاز هذا في المبتدأ على قُوَّة شبهه بالفاعل في المفعول الذي يبعُد عنهما أَجْوَزُ؛ فمن أَجل ذلك ارتفع الفعل في قول طَرَفة: أَلا أَيُّهَذا الزَّاجِري أَحْضُرُ الوَغَى، وأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ، هلْ أَنتَ مُخلِدي؟ عند كثير من الناس، لأَنه أَراد أَنْ أَحْضُرَ الوَغَى.

وأَجاز سيبويه في قولهم: مُرْهُ يَحْفِرُها أَن يكون الرفعُ على قوله أَنْ يَحْفِرَها، فلما حُذِفت أَن ارتفع الفعل بعدها، وقد حَمَلَهم كثرةُ حذفِ أَن مع غير الفاعل على أَن اسْتَجازُوا ذلك فيما لم يُسَمَّ فاعِلُه، وإن كان ذلك جارياً مَجْرى الفاعل وقائماً مقامه؛ وذلك نحو قول جميل: جَزِعْتُ حِذارَ البَيْنِ، يَوْمَ تَحَمَّلُوا، وحُقَّ لِمِثْلي، يا بُثَيْنَةُ، يَجْزَعُ أَراد أَن يَجْزَع، على أَن هذا قليل شاذ، على أَنّ حذف أَنْ قد كثُر في الكلام حتى صار كلا حَذْفٍ، أَلا ترى أَن جماعة استَخَفّوا نصف أَعْبُدَ من قوله عزّ اسمُه: قُلْ أَفَغَيْرَ اللّهِ تأْمُرُونّي أَعْبُدَ؟ فلولا أَنهم أَنِسُوا بحَذْفِ أَنْ من الكلام وإرادَتِها لَمَا اسْتَخَفُّوا انْتِصابِ أَعْبُدَ.

ودَنَت الشمسُ للغُروبِ وأَدْنَت، وأَدْنَت النَّاقَةُ إذا دَنا نِتاجُها.

والدُّنْيا: نَقِيضُ الآخرة، انْقَلَبت الواو فيها ياءً لأَن فُعْلى إذا كانت اسماً من ذوات الواو أُبدلت واوُها ياءً، كما أُبدلت الواو مكان الياء في فَعْلى، فأَدخلوها عليها في فُعْلى ليَتكافآ في التغيير؛ قال ابن سيده: هذا قول سيبويه، قال: وزدته أَنا بياناً.

وحكى ابن الأَعرابي: ما له دُنْياً ولا آخِرةٌ، فنَوّن دُنْياً تشبيهاً لها بفُعْلَلٍ، قال: والأَصل أَن لا تُصْرَفَ لأَنها فُعْلى، والجمع دُناً مثل الكُبْرى والكُبَر والصُّغْرى والصُّغَر، قال الجوهري: والأَصل دُنَوٌ، فحذفت الواو لاجتماع الساكنين؛ قال ابن بري: صوابه فقلبت الواو أَلفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت الأَلف لالتقاء الساكنين، وهما الأَلف والتنوين.

وفي حديث الحج: الجَمْرة الدُّنْيا أَي القَرِيبة إلى مِنىً، وهي فُعْلى من الدُّنُوِّ.

والدُّنْيا أَيضاً: اسمٌ لهذه الحياةِ لبُعْدِ الآخرة عَنْها، والسماء الدُّنْيا لقُرْبها من ساكِنِي الأَرْضِ. ويقال: سماءُ الدُّنْيا، على الإِضافة.

وفي حديث حَبْسِ الشمسِ: فادَّنى بالقَرْيَةِ؛ هكذا جاء في مسلم، وهو افْتَعَلَ من الدُّنُوِّ، وأَصلُه ادْتَنى فأُدْغِمَتِ التاءُ في الدال.

وقالوا: هو ابن عَمّى دِنْيَةً، ودِنْياً، منوَّنٌ، ودِنْيَا، غير مُنَوَّن، ودُنْيَا، مقصور إذا كان ابنَ عَمِّه لَحّاً؛ قال اللحياني: وتقال هذه الحروف أَيضاً في ابن الخال والخالَةِ، وتقال في ابن العَمَّة أَيضاً. قال: وقال أَبو صَفْوانَ هو ابنُ أَخِيه وأُخْتِه دِنْيَا، مثل ما قيل في ابن العَمِّ وابن الخال، وإنما انْقَلَبت الواو في دِنْيَةً ودِنْياً ياء لمجاورةِ الكسرةِ وضعفِ الحاجز، ونَظِيرُهُ فِتْيةٌ وعِلْيَةٌ، وكأَنَّ أَصلَ ذلك كلِّه دُنْيا أَي رَحِماً أَدْنى إلىَّ من غيرها، وإنما قَلَبوا ليَدُلّ ذلك على أَنه ياءُ تأْنيثِ الأَدْنى، ودِنْيَا داخلة عليها. قال الجوهري: هو ابن عَمٍّ دِنْى ودُنْيَا ودِنْيا ودِنْيَة. التهذيب: قال أَبو بكر هو ابن عمٍّ دِنْى ودِنْيةٍ ودِنْيا ودُنْيا، وإذا قلت دنيا، إذا ضَمَمْتَ الدال لَم يَجُز الإِجْراءُ، وإذا كسرتَ الدالَ جازَ الإِجْراءُ وتَرك الإِجْراء، فإذا أَضفت العمَّ إلى معرفة لم يجز الخفض في دِنْى، كقولك: ابن عمك دِنْىٌ ودِنْيَةٌ وابن عَمِّكَ دِنْياً لأَن دِنْياً نكرة ولا يكون نعتاً لمعرفة. ابن الأَعرابي: والدُّنا ما قرُبَ من خَيْرٍ أَو شَرٍّ.

ثالثا: خلق الجنين:

هذه قضية طالما سمعنا بها على أنها من أعظم المعجزات العلمية في القرن العشرين التي أبان عنها القرآن الكريم لا سيما في سورة المؤمنون، ((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ❖ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ❖ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا

=

ويقال: دَنا وأَدْنى ودَنَّى إذا قَرُبَ، قال: وأَدْنى إذا عاشَ عَيْشاً ضَيِّقاً بعد سَعَةٍ.

والأَدْنى السَّفِلُ. أَبو زيد: من أَمثالهم كلُّ دَنِيٍّ دُونَه دَنِيٌّ، يقول: كلُّ قريبٍ وكلُّ خُلْصان دُونَه خُلْصانٌ. الجوهري: والدَّنِيُّ القَريب، غيرُ مهموز.

وقولهم: لقيته أَدْنى دَنِيٍّ أَي أَوَّلَ شيء، وأَما الدنيءُ بمعنى الدُّون فمهموز.

وقال ابن بري: قال الهروي الدَّنيُّ الخَسِيسُ، بغير همز، ومنه قوله سبحانه: أَتَسْتَبْدِلون الذي هو أَدْنى؛ أَي الذي هو أَخَسُّ، قال: ويقوِّي قوله كونُ فعله بغير همز، وهو دَنِيَ يَدْنى دَناً ودَنايَةً، فهو دَنيٌّ. الأَزهري في قوله: أَتَسْتَبْدلون الذي هو أَدْنى؛ قال الفراءُ هو من الدَّناءَةِ؛ والعرب تقول إنه لَدَنيٌّ يُدَنِّي في الأُمور تَدْنِيَةً، غير مَهموز، يَتْبَع خسيسَها وأَصاغرَها، وكان زُهَير الفُرْقُبيُّ يهمز أَتَسْتَبْدلون الذي هو أَدْنى، قال الفراء: ولم نَرَ العرب تهمز أَدْنى إذا كان من الخِسَّةِ، وهم في ذلك يقولون: إنه لَدانئٌ خبيث، فيهمزون.

وقال الزجاج في معنى قوله أَتستبدلون الذي هو أَدْنى ، غير مَهْموز: أَي أَقْرَبُ، ومعنى أَقْرَبُ أَقلُّ قيمةً كما تقول ثوب مُقاربٌ، فأَما الخسيس فاللغة فيه دَنُؤَ دَناءةً، وهو دَنيءٌ بالهمز، وهو أَدْنَأُ منه. قال أَبو منصور: أَهل اللغة لا يهمزون دَنُوَ في باب الخِسَّة، وإنما يهمزونه في باب المُجون والخُبْثِ. قال أَبو زيد في النوادر: رجل دَنيءٌ من قوم أَدْنِياءَ، وقد دَنُؤَ دَناءَةً، وهو الخَبيث البَطْن والفَرْج.

ورجل دَنيٌّ من قوم أَدْنِياءَ، وقد دَنَى يَدْنى ودَنُوَ يَدْنُو دُنوّاً: وهو الضعيف الخَسِيسُ الذي لا غَناء عنده المُقَصِّرُ في كلِّ ما أَخَذَ فيه؛ وأَنشد: فلا وأَبِيك ما خُلُقى بوَعْر، ولا أَنا بالدَّنِّى ولا المُدَنِّى وقال أَبو الهيثم: المُدَنِّى المُقَصِّر عما ينبغى له أَن يَفْعَله؛ وأَنشد: يا مَنْ لِقَوْم رأْيُهُم خَلْفٌ مُدَنْ أَراد مُدَنِّى فَقَيَّد القافية. إن يَسْمَعُوا عَوْراءَ أصْغَوْا في أَذَنْ ويقال للخسيس: إنه لَدنيٌّ من أَدْنِياءَ، بغير همز، وما كان دَنِيّاً ولَقَدْ دَنِيَ يَدْنى دَنىً ودَنايَةً.

ويقال للرجل إذا طَلَب أَمراً خسيساً: قد دَنَّى يُدَنِّى تَدْنِية.

وفي حديث الحُدَيْبِيَة: علامَ نُعْطِى الدَّنِيَّة في دِينِنا أَى الخَصْلَة المَذْمُومَة؛ قال ابن الأَثير: الأَصل فيه الهمز، وقد يخفف، وهو غير مهموز أَيضاً بمعنى الضعيف الخسيس.وتَدَنَّى فلان أَى دَنا قَلِيلاً.

وتَدانَوْا أَى دَنا بعضهم من بعض.

وقوله عز وجل: ولَنُذِيقَنَّهم من العَذاب الأَدْنى دون العَذاب الأَكْبَر؛ قال الزجاج: كلُّ ما يُعَذَّبُ به في الدنيا فهو العذابُ الأَدْنى، والعذابُ الأَكْبَر عذابُ الآخِرةِ.

ودانَيْت الأَمْرَ: قارَبْته.

ودانَيْت بَيْنَهما : جَمَعْت.

(انظر بقية المادة فلن تجد فيها المعنى الموضوع لتلفيق المعجزة)

الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ))[1]

والنظر في معنى الآية لا سيما حروف المعاني التي تغلب عليها حروف العطف هنا، نتوقف عند قوله ((فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا))، ونحن نعرف أن حرف العطف الفاء يفيد الترتيب مع تقاصر المدة الزمنية أي التعقيب، وهذا يعني أن الهيكل العظمي يتكون في رحم أمه هيكلا عظميا أولا وبعد ذلك يكتسي الهيكل لباسا من اللحم، ولكن الواقع كما يخبرنا المتخصصون في الأجنة أن مراحل نمو الجنين وتكون الأجهزة في جسمه تسير بشكل متوازٍ، لا تعاقبي. فالطبقات التي يتشكل منها الجنين ثلاث: الإكتوديوم، والميسوديرم، والأندو ديرم، وكل منها تكوّن مجموعة من الأجهزة الحيوية في الجنين، فالأولى تكوّن الجهاز العصبي والدماغ والجلد، والطبقة الوسطى يتكون منها العظام، والأخيرة يتكون منها الأمعاء والبنكرياس والطحال وغيرها، ونموها كما قلت يسير بشكل متواز فلا تجد ترتيبا تعاقبيا بحيث يتوقف نمو أجهزة ريثما يتم تكون أجهزة أخرى، بمعنى أن اللحم ينمو بموازاة العظم لا بعد كما يفيدنا حرف الفاء العاطف.

وإليك التلفيق من الموسوعة الإسلامية جهارا نهارا تحت باب (حقائق علمية):

" لقد كشف علم الأجنة الحديث عن المراحل التي يتم فيها خلق الإنسان وحدّدها بالأطوار التالية:

أ- مرحلة التخلق الأولى:

١- النطفة
٢- العلقة
٣- المضغة
٤- كساء العظام
٥- كساء العظام باللحم

---

١) [المؤمنون: ١٢- ١٤].

ب- طور النشأة

جـ- طور قابلية الحياة

د- طور الحضانة الرحمية

هـ- طور المخاض"

أقول : علم الأجنة بريء من هذا الهراء. ثم إن كانت العقدة في الإعجاز معقودة في الاصطلاحات كالنطفة والعلقة و "أمشاج"، وغيرها، فهذا لا يعني وصفا دقيقا لأن العربي كان يرى الناقة تجهض والأنعام كلها، ولا ننسى أنه كان بالإمكان أن يتفحص الأعرابي الجنين الآدمي عندما تجهض المرأة، ويعرف ويرى بعينيه حال هذا الكائن الذي سقط من رحم أمه في مرحلة من مراحل الحمل.

لا يحسن بنا إطلاقا أن ننظر إلى الآيات الكريمة بهذا المنظار، أو التلفيق المكشوف لمن أراد أن يتقصى حول الحقيقة ، أما إذا كان المقصود منه تمريره على جمهور العامة، فهذا بلاء وغباء، لأن العامة مؤمنة بلا إعجاز ولا إجهاد للنفس في ذلك. يضاف إلى ذلك أن مجرد التلاعب بدلالات الألفاظ أو وضع كلام خاطئ لا يمت للعلم بصلة تحت باب "حقائق علمية"، هو كذب منهي عنه في الدين، وتلفيق وتزوير من أجل غاية نحن في غنى عنها. وهذا بدوره يبرز ضعف إيماننا لا قوته، لأننا نلجأ إلى التحايل والغش كي نقول إن القرآن كتاب علم. فقد جاءت هذه الآيات وأمثالها في القرآن من أجل لفت نظر الناس لخلق الله لا لإعلامهم بكيفية الخلق. ولكي يبرهن لهم عجزهم عن الخلق وتقليده كما كان من أمر إعجاز القرآن وذلك أن أفصح المتكلمين لم يستطيعوا مجابهة التحدي.

سأمثل لك أخيرا بهذا المثال ولن أعلق عليه، سأدعك وإياه كي تفهمه كما تريد:

قال الله تعالى: ((وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً))[1] .

جاء في شرح الآية الإعجازي ما يلي :

---

١) [الإسراء: ١٢]

أولاً كالمعتاد : اللغة:

قال ابن منظور في لسان العرب:

- **آية: الآية: العلامة، وقال ابن حمزة، الآية من القرآن كأنها العلامة التي يُفضى منها إلى غيرها.**

أما في التفسير :

" لقد استنبط الصحابة الكرام منذ أربعة عشر قرناً أن كوكب القمر كان يشعّ نوراً ثم أذهب الله ضوءه وأزاله، وذلك من خلال تفسيرهم لقوله تعالى في سورة الإسراء: ((وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة))، فقد روى الإمام ابن كثير في تفسيره أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال في تأويله للآية: "كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، وهو آية الليل، فمحي، فالسواد الذي في القمر أثر ذلك المحو"[1].

والآن يأتي دور التلفيق تحت عنوان (حقائق علمية)، خذ ما يلي :

"اكتشف علماء الفلك بعد صعود الإنسان إلى القمر وبواسطة الصور التي التقطتها الأقمار الصناعية أن كوكب القمر كان في القديم كوكباً مشتعلاً لكنه انطفأ وذهب ضوؤه."[2] السؤال من أين بهذه الحقيقة؟ ومن هو الذي قال بها؟!

على الموسوعة والقائمين عليها أن يأتوا بالبرهان على ما يقولون. أما أنت إن أردت أن تحمل الكلام على أكتافك كما يريدون فلا مانع يمنعك من ذلك، لكن عليك أن تحجر على عقلك، ولا تطلق العنان للسانك بطرح الأسئلة.

في الختام سأتناول الآية الكريمة الآتية لإظهار المغالطة المنهجية التي يسقط فيها الإعجازيون، وهي لغوية صرفة. ولن آخذ برأي من الآراء فيها لكنني سأتناولها مرة من منطق إعجازي ومرة من منطق آخر ليظهر لك الفرق بين الفهمين، هذا ولن ألفت

---

١) روح المعاني للألوسي. [١٥/٢٦]

٢) انظر الموسوعة الإسلامية. باب القمر كان مشتعلا.

النظر مجددا إلى التلفيق أو الغش الذي يمرر علينا. إنما سأكتفي بالمعالجة من جهتين كما ذكرت لك:

يقول الله تعالى : ((وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب))[1].

سأطرح السؤال الآتي :

هل ورد في القرآن الكريم شيئاً عن حركة الأرض؟ فنحن نقرأ فيه عن حركة الشمس والقمر، ولكن لم نقرأ عن حركة الأرض شيئا. في حين أن ذكر حركة الشمس والقمر كانت صريحة في القرآن ولا مجال للملاحاة والشك والتأويل لفهمها. فجاء في القرآن قوله تعالى: ((وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ))[2]

وقوله تعالى: ((الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى..))[3]

في الوقت الذي نقرأ فيه صريح الكلام عن حركة الشمس والقمر، لا نجد مثل ذلك عن حركة الأرض.

ولكن الإعجازيين يصرون أن القرآن ذكر حركة الأرض في الآية التي وضعتها في بداية الموضوع، وهي قوله تعالى : ((وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب)).

دعنا نتفحص اللغة، قارن بين الألفاظ الواردة في حركة الشمس والقمر تجدها صريحة الدلالة، والإعجازيون هنا في راحة بال واطمئنان خاطر لأنه لا جدال في المسألة، تجد مثلا ((كل يجري لأجل مسمى)) كذلك ((وَالشَّمْسُ تَجْرِي)).

---

١) [النمل: ٨٨]

٢) [يس: ٣٨].

٣) [الرعد: ٢]

أما عن الأرض : ففي البداية عليك أن تحدد منهج نظرك وفهمك ، فإذا أردت المنهج الذي فهمت منه حركة الشمس والقمر، فهذا غير متحصل لك في الآية الدالة على حركة الأرض، والسبب هو ما يلي:

١- ذكر الشمس والقمر كأجرام سماوية، ولم يذكر أجزاء منها كما هي الحال في آية الأرض لأنه ذكر الجبال فقط.

٢- ووصف الجبال بالمرور ولم يقل إنها تتحرك كحركة الشمس والقمر، ولم يذكر السهول والأودية ، بل ذكر جزءً منها لا كلها على أنها جرم سماوي.

٣- وصف حركتها بمرور السحاب، وهذا كلام غير دقيق، فأي سحاب هو المعني بهذا التشبيه؟ هناك سحاب سريع وهناك بطيء وهناك وسط بين الاثنين. فأيهما المقصود بهذا المرور، بمعنى أنه لم يحدد السرعة.

بقي علينا أن نغير المنطق الذي نريد منه أن يكون منطقا إعجازيا، فنذهب إلى لغة المجاز، ونعالج الآية بهذه اللغة، فنقول: قد ذكر الجزء وهو يريد الكل.

وأراد بالمرور الحركة لأنه لا يحصل مرور إلا إذا تحرك الجزء الذي أراد به الكل.

ثم شبهه بالسحاب لأن السحاب مشهور بالحركة ويراه الناس فكان قريبا على أفهامهم. وعليه فالآية تدل على أن الأرض تتحرك.

هذا منطق اللغة المجازية المرفوض في فهم حركة الشمس والقمر لأننا نتوقف عنه إلى دلالة اللغة الحقيقية(المعجمية) لا المجازية، وعندئذ نحن إزاء منهجين في التفسير لا منهج واحد مستقيم.

ثم يضاف إلى ذلك أن المرور لا يعني الدوران، فأين الآية التي تدل على أن الأرض تدور حول محورها؟

هنا تبرز لك المغالطة الثالثة بقولهم: ليس المطلوب من القرآن أن يخبرنا عن كل ما يجري في الكون.

وعليه؛ فلماذا أخبرنا إذن عن حركة الشمس والقمر خاصة بلغة صريحة، وعن حركة الأرض بلغة مجازية، وأخفى علينا دوران الأرض حول محورها بشكل صريح كما كان الحال مع الشمس والقمر؟!

وقد يلجأ أحدهم هنا إلى المهرب الخلفي للموضوع فيقول هذا من المتشابه وذاك من المحكم، وبذلك ندخل في متاهة كبيرة وهي: كيف نحدد المتشابه من المحكم؟ ثم لماذا كانت حركة الشمس والقمر من المحكم وكانت حركة الأرض من المتشابه؟

كل ذلك لا أعده إلا صنوفا من المغالطات المتراكبة، تستطيع للأسف أن تمر على الناس، لأنهم يأخذون الكلام من أهل العلم بالدين لا من أهل العلم بالعلم. ويقحمون النص المقدس باجتزاء لا بكلية في العلوم الحديثة، مما يبيح لهم أن يتصرفوا بكلام الله كيف شاؤوا، وهذا مخالف لأصل من أصول التفسير وهو ألا يقال في القرآن بالرأي، والإعجاز العلمي إنما هو قول في القرآن بالرأي لأنه يرجع إلى فهم خاص يفهمه شخص ما ويعممه على الآخرين كأنه اكتشف اكتشافا عظيما ظانا أنه بذلك يخدم الدين.

يقول خالد منتصر : " القرآن كتاب دين وهداية وليس كتاب كيمياء أو فيزياء، وإنكار الإعجاز العلمي في القرآن ليس كفرا ولا هو إنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة"[1] ثم يتابع بقوله : " ولكنه إعجاز الأفكار العظيمة التي تحدّث عنها والقيم الجليلة التي بشر بها والثورة التي صنعها والتي كانت شرارتها الأولى العقل واحترامه وتبجيله، ومن يروّجون للإعجاز العلمي لا يحترمون هذا العقل بل يتعاملون معنا كبلهاء متخلفين ما علينا إلا أن نفتح أفواهنا مندهشين ومسبحين بمعجزاتهم بعد كلامهم الملفوف الغامض الذي يعجب معظم المسلمين ...والفجوة ما زالت تتسع بيننا وبين الغرب فلم نعد نملك من متاع الحياة إلا أن نغيظهم بأننا الأجدع والأفضل، وأن كل ما ينعمون به وما يعيشون به من علوم وتكنولوجيا تحدث عنه قرآننا قبلهم بألف وأربعمئة سنة."[2]

يقول منتصر هذا الكلام على خلفية علمه بأنواع الألاعيب اللغوية والالتفافات البهلوانية التي تمارس في حق النص القرآني الذي يجب أن ننزهه عن مثل هذه

---

١) وهم الإعجاز العلمي: د.خالد منتصر. دار العين للنشر. ط١ ٢٠٠٥ . ص٥

٢) المرجع السابق : ص٦

السلوكات، ويضيف أخيرا: " كل هذا الكلام يرددونه وبجرأة وثبات وثقة يحسدون عليها ذلك كله يتم مع أن الرد عليه بسيط والمنطق مفحم ولا يحتاج إلى جدل فبرغم وجود القرآن بين أيدينا كل هذه السنين فما زلنا أكثر الشعوب فقرا وجهلا وتخلفا ومرضا ، وما زلنا نستورد العلم من هؤلاء الكفرة ونستخدم الدش والتلفزيون والإنترنت وهي بعض من منجزاتهم نستغلها ونسخرها للهجوم عليهم وعلى ماديتهم ومعايرتهم بجهلهم بالإعجاز العلمي."[١]

لم يبق لي شيء أقوله بعد تأييد منتصر فيما ذهب إليه إلا: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

١) المرجع السابق: ص ٦ .

المصادر والمراجع:

أولاً- المصادر:

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس: العهد القديم ، والعهد الجديد.
- لسان العرب.

ثانياً- المراجع:

١. أسطورة المادة". بول ديفز. ترجمة: م. علي يوسف.الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢. إعجاز القرآن الكريم بالصّرفة. دراسة ناقدة. إعداد : محمود توفيق محمد سعد في جامعة الأزهر الشريف.

٣. أفلاطون" . آر فالترز ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون. كتب دائرة المعارف الإسلامية . دار الكتاب اللبناني

٤. أفلاطون". ديف روبنسوت و جودي جروفز. ترجمة : إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠١ ، ص ٦٣ وما بعدها.

٥. آينشتاين والقضايا الفلسفية لفيزياء القرن العشرين. د. ب جريبانوف وآخرون . ترجمة ثامر الصفار . دمشق. ط١. ١٩٩٠.

٦. تاريخ الدولة العربية : تاريخ العرب منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية. السيد عبد العزيز سالم. دار النهضة. بيروت.١٩٨٦ .

٧. تاريخ الفرس الأسطوري عند الطبري والفردوسي" . سميرة عبد السلام عاشور- كلية الآداب /جامعة الإسكندرية.

٨. تاريخية الفكر العربي الإسلامي". محمد أركون. ترجمة: هاشم صالح. مركز الإنماء القومي- بيروت. ط٢. ١٩٩٦ .

٩. التصوّف عند الفرس. أبراهيم الدسوقي شتا. دار المعارف.القاهرة.١٩٧٨. بلا طبعة.ص٣ . وانظر كذلك : المعتقدات الدينية لدى الشعوب:

١٠. تفسير الشعراوي. قطاع الثقافة. أخبار اليوم. القاهرة. بلا طبعة.

١١. تفسير القرآن العظيم. ابن كثير ، دار الجيل- بيروت

١٢. تهافت التهافت" . ابن رشد.تحقيق د. سليمان دنيا ، دار المعارف، الطبعة الأولى.

١٣. جامع البيان في تأويل القرآن. محمد بن جرير الطبري. تحقيق: محمد أحمد شاكر.مؤسسة الرسالة. ط١. ٢٠٠٠ م .

١٤. جمهورية أفلاطون" : أميرة حلمي مطر- القراءة للجميع، مكتبة الأسرة ١٩٩٤

١٥. جوامع الكون والفساد"، ابن رشد. تحقيق د. أبو الوفا التفتازاني و أ. سعيد زايد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١

١٦. حساب التفاضل والتكامل والهندسة التحليلية" . ايرل و سووكوفسكي . الطبعة الثانية . ١٩٨١ أشرف على ترجمته مجمع اللغة العربية الأردني.

١٧. خرافة الإسراج والمعراج". فيبي عبد المسيح. سلسلة رحلتي من الظلمة إلى النور. بلا طبعة ولا تاريخ

١٨. خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل". أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري. الناشر: أبو خالد بن عبد الوكيل. الطبعة الأولى.

١٩. دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. تحقيق محمود شاكر.مكتبة الخانجي. القاهرة.ط٥. ٢٠٠٤ .

٢٠. دواعي الإيمان في عصرنا". الأب جيوفاني مارتينتي- نقله من الفرنسية الأب يوسف قوشاقجي راجعه: ريمون حرفوش. دار المشرق بيروت.١٩٩٧ ط١ .

٢١. الدين والعلم". بيرتراند راسل. ترجمة رمسيس عوض. دار الهلال. د.ط. د.ت

٢٢. رسالة الغفران لأبي العلاء المعري . بنت الشاطئ – دار المعارف بمصر

٢٣. زبدة التفسير. محمد سليمان الأشقر.داتر النفائس.الأردن.ط٢ .٢٠٠٤

٢٤. صانع الساعات الأعمى. ردشارد دوكنز. ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ٢٠٠٢ .

٢٥. العربية تاريخ وتطوّر". د. إبراهيم السمرائي. مكتبة المعارف- بيروت. ط١ . ١٩٩٣.

٢٦. العقيدة الإسلامية من منظور الإمام الخميني(التوحيد) بقلم الشيخ إبراهيم الأنصاري. بلا طبعة.

٢٧. العلم في منظوره الجديد. روبرت م. أغروس. ترجمة كمال خلايلي. عالم المعرفة. فبراير ١٩٨٩.

٢٨. العناية الإلهية. الأب ليون عبد الصمد العناية الإلهية- العقيدة. موسوعة المعرفة المسيحية. دار المشرق بيروت.ط٢

٢٩. فتح الباري في شرح صحيح البخاري. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية:\. المملكة العربية السعودية.

٣٠. فلسفة الطبيعة عند الرواقيين" : د. مصطفى لبيب عبد الغني . جامعة القاهرة- دار الثقافة للنشر والتوزيع.

٣١. فلسفة الفيزياء النيوتونية.عبد القادر بشتة. فلسفة العلم في القرن العشرين. يمنى الخولي. الكون والثقوب السوداء. رؤوف وصفي وزهير الكرمي.

٣٢. فلسفة النشوء والارتقاء". شبيلي الشميل. دار مارون عبود، ١٨٨٤ . والمقالة الخامسة لباخنر مضمّنة في هذا الكتاب، ص ١٩٥- ٢١٨ .

٣٣. الفيزياء المسلية: ياكوف بيريليمان، الكتاب الأول والثاني. ترجمة داود سليمان. دار مير. ط٥
٣٤. قصص الأنبياء المسمّى بعرائس المجالس: لأبي إسحق الثعلبي. دار المنار، القاهرة،
٣٥. قضايا في نقد العقل الديني". محمد أركون. ترجمة هاشم صالح. دار الطليعة –بيروت. ط١. ١٩٩٨.
٣٦. القول المفيد على كتاب التوحيد". محمد بن صالح العثيمين.مؤسسة الرسالة.ط١. ١٩٩٨.
٣٧. كتاب التاو". لاوتسه، و تشوانغ تسه. ترجمة هادي العلوي. دار الكنوز الأدبية. بيروت –لبنان. ط١. ١٩٩٥ .
٣٨. اللغة والتفسير والتواصل. مصطفى ناصف. عالم المعرفة يناير ١٩٩٥ .
٣٩. اللغة واللغويات". جون لوينز. ترجمة محمد العناني. دار جرير. الطبعة الأولى.٢٠٠٩.
٤٠. اللّه في فلسفة توماس الإكويني. ميلاد ذكي غالي.منشأة المعارف. الإسكندرية.1975 .
٤١. اللّه، العقل ، الكون" : بول ديفز .ترجمة د.سعد الدين خرفان، وائل بشير الأتاسي. منشورات دار علاء الدين، ط٥ ٢٠٠٧.
٤٢. المختار من تفسير القرآن العظيم. الشيخ محمد متولي الشعراوي. مكتبة التراث الإسلامي.القاهرة.
٤٣. معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدين السيوطي.ضبطه وصححه أحمد سمش الدين.دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. ط١. ١٩٨٨ .
٤٤. المعتقدات الدينية لدى الشعوب. جفري بارندر. ترجمة إمام أحمد إمام. مايو ١٩٩٣. سلسلة عالم المعرفة .
٤٥. مغامرة العقل الأولى". فراس السواح. دار علاء الدين. دمشق.ط ١١ .
٤٦. مفاتيح الجنان" . عباس القمي. مؤسسة الأعلمي- بيروت ط٢ . ١٩٩٨
٤٧. مهزلة العقل البشري". علي الوردي. دار كوفان للنشر- بيروت.ط٢ . ١٩٩٤ .
٤٨. موجز تاريخ الزمن". سيتفن هوكنغ. نقلا عن بول ديفز. "اللّه، والعقل والكون"ترجمة سعدالدين خرفان. دار علاء الدين. دمشق.٢٠٠٧ .
٤٩. موجز تاريخ علم اللغة في الغرب". ر. هـ. روبنز . ترجمة د. أحمد عوض.عالم المعرفة، نوفمبر ١٩٩٧ .
٥٠. الموسوعة العلمية الإسلامية المعاصرة.- إعجاز القرآن. موقع الموسوعة الإسلامية/الإنترنت.
٥١. موسوعة مشاهير العالم في العلوم والفكر والسياسة.ج.ج. باكسون. ترجمة: فريد حمدان. دار الصداقة .بيروت.ط٢٠٠٢.
٥٢. ميكانيكا الكم. سعود اللحياني. جامعة أم القرى.شعبة الفيزياء الطبية. بلا طبعة.
٥٣. نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها عند توماس الإكويني.محمود قاسم. مطبعة الأنجلو المصرية. بلا طبعة .
٥٤. هكذا تكلم زرادشت". فريدرك نيتشه . ترجمة : فيلكس فارس . مكتبة محمد حسنين هيكل. نشر سنة ٢٠٠٠ .
٥٥. وهم الإعجاز العلمي: د.خالد منتصر. دار العين للنشر. ط١ ٢٠٠٥ .

٥٦. PRINCIPLES OF QUANTUM MECHANICS: as Applied to Chemistry and chemical Physics. 2002 (CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS). Donald D. Fitts. Edition

ثالثا- الكتب الإلكترونية والدوريات:

- الكتب:

٥٧. آيات الرحمن في جهاد الأفغان" . عبد الله عزام. الموقع الرسمي على الإنترنت.
http://www.azzambooks.4t.com/azzam.htm

٥٨. سقراط " ، مايكل يوسف. كتاب إلكتروني.

٥٩. السلسلة الصحيحة " . ناصر الدين الألباني . موقع الألباني على الإنترنت www.alalbany.net

٦٠. قراءة نقدية للإسلام . كامل النجار. كتاب إلكتروني.

٦١. **مدخل إلى العقيدة المسيحية**. كوستلي بندلي. وآخرون.كتاب إلكتروني. إسلاميات دوت كوم.

٦٢. " ميكانيكا الكم . أرفن شرودنجر. كتاب إلكترونيWWW.4SHARED.COM

٦٣. الله يتجلى في عصر العلم. جمعته الشبكة الإسلامية للمعرفة./الإنترنت.

- المقالات/الدوريات الإلكترونية:

٦٤. الأسطورة مكون أساسي من مكونات الدين". ملف هذا الحوار مأخوذ من موقع على الإنترنت وهو : WWW.4SHARED.COM

٦٥. "ما قبل الانفجار العظيم ". بول ديفز. ترجمة: ليلى نشواتي. موقع الذاكرة.

٦٦. مجلة (National Geographic News عدد ٢٥ . أبريل/ نيسان ٢٠٠٢)

٦٧. مجلة العربي. وزارة الإعلام بدولة الكويت. العدد 13/4/ 547 الثلاثاء 1 يونيو 2004 . مقالة مترجمة إلى العربية بعنوان : ميكانيكا الكم ..عالم من الأسرار في قلب الطبيعة. كتبها : إرفين شرودنجر.

٦٨. مقالة بالفرنسية بعنوان: Evolution et créationnismes . التطور و المدارس الخلقية. مؤلفها: Guillaume LECOINTRE . ترجمة: مختار فكري.

٦٩. مناقضة علم الفيزياء لنظرية التطور". أورخان محمد علي. مقالة إنترنت.

٧٠. النجاة في المنطق والإلهيات. ابن سينا. كتاب إلكتروني./الإنترنت. www.4shared.com

٧١. مقالة في : نظريات في الفلسفة. موقع الذاكرة./الإنترنت.